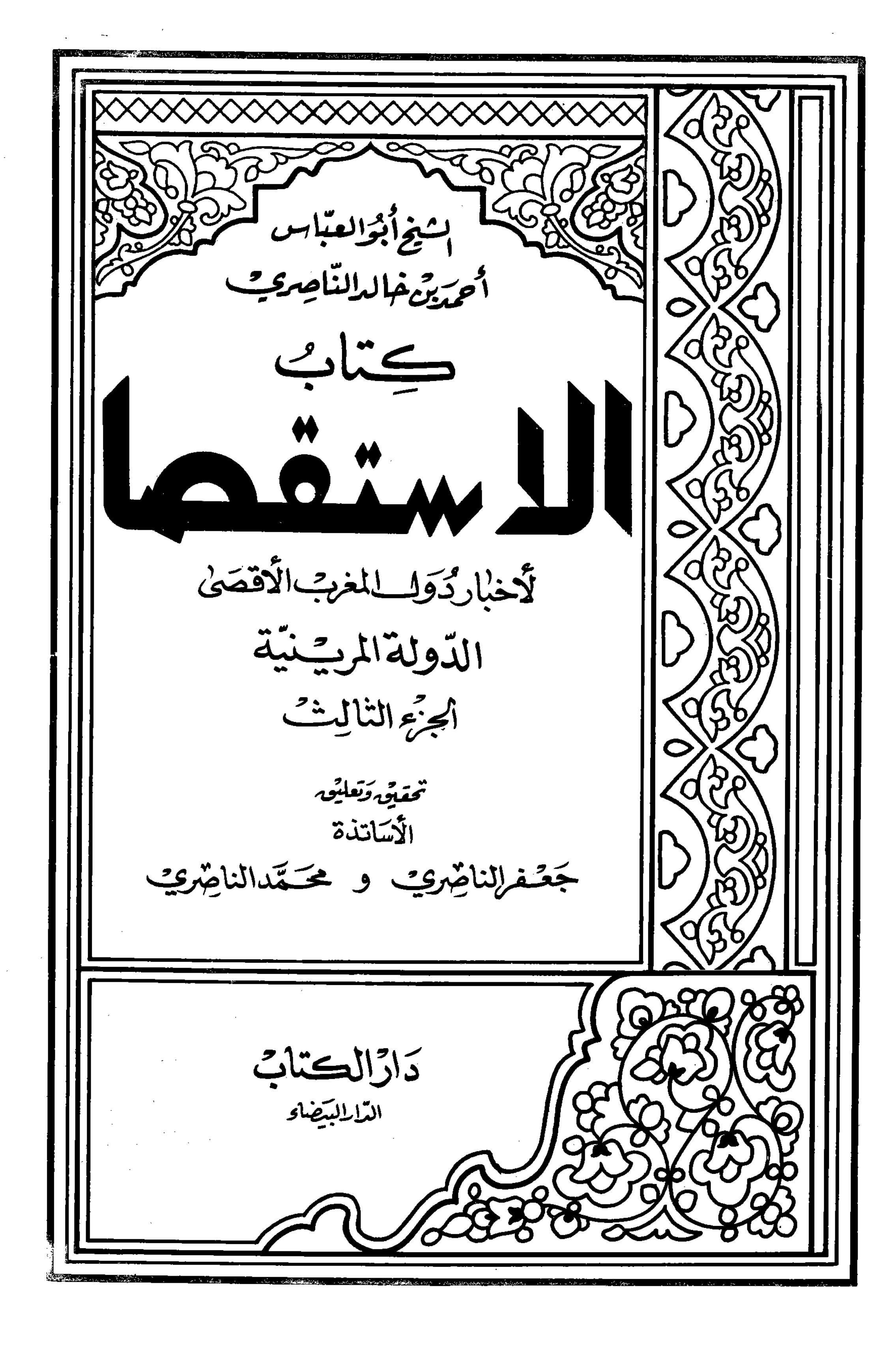


الشيخ أبو العباس
أحمد بن خالد النّاصري

كتاب الاستقصا

لأخبار دول المغرب الأقصى

الدّولة المرينيّة

الجزء الثالث

تحقيق وتعليق
الأساتذة
جعفر الناصري و محمّد الناصري

دار الكتاب
الدار البيضاء

ساحة المسجد المحمدي
الدار البيضاء

1418هـ/ 1997م

رقم الإيداع القانوني والدولي
1399/96

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الدولة المرينية

الخبر عن دولة بني مرين ملوك فاس والمغرب وذكر أوليتهم وأصلهم

اعلم أن العلامة الرئيس أبا زيد عبد الرحمٰن بن خلدون رحمه الله قسم جيل زناتة إلى طبقتين، الطبقة الأولى هي التي كان منها مغراوة ملوك فاس، وبنو يفرن ملوك سلا، وقد تقدم الكلام على دولتهم مستوفى، والطبقة الثانية هي التي كان منهم بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الأوسط وبنو مرين ملوك فاس والمغرب الأقصى، وهؤلاء هم الذين تعلق الغرض الآن بذكرهم.

فاعلم أن جيل زناتة في المغرب كما قال الرئيس المذكور جيل قديم معروف العين والأثر وهم لهذا العهد آخذون من شعار العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتقلب في الأرض وإيلاف الرحلتين وتخطف الناس من العمران والإباية من الانقياد إلى النصفة، وشعارهم من بين البربر اللغة التي يتراطنون بها وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر، ومواطنهم في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب.

فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى حتى أن عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم، قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي إفريقية وبجبل أوراس بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد، وأذغنوا لحكمهم، والأكثر منهم بالمغرب الأوسط حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناتة، ومنهم بالمغرب الأقصى أمم أخر، وكان بنو مرين منهم قبل استيلائهم على ملك المغرب أحياء ظواعن بمجالات القفر من فيجج إلى

سجلماسة إلى ملوية، وربما يخطون في ظعنهم إلى بلاد الزاب ويذكر نسابتهم أن الرياسة كانت فيهم في تلك العصور لمحمد بن ورزيز بن فكوس بن كرماط بن مرين، ومرين يتصل نسبه بزانا بن يحيى أبي الجيل.

وكان لمحمد المذكور سبعة من الولد اثنان منهم شقيقان وهم حمامة وعسكر وخمسة أبناء علات، وكان يقال لهم بلسان زناتة تيربعين ومعناه الجماعة.

ويزعمون أن محمد بن ورزيز لما هلك قام بأمره من قومه ابنه حمامة بن محمد وكان الأكبر من ولده.ثم من بعده شقيقه عسكر بن محمد ثم من بعده ابنه المخضب بن عسكر وهلك سنة أربعين وخمسمائة في بعض الحروب[1] التي كانت بين عبد المؤمن والمرابطين.

ثم قام بأمر بني مرين بعد المخضب ابن عمه أبو بكر بن حمامة بن محمد إلى أن هلك فقام بأمرهم ابنه أبو خالد محيو بن أبي بكر ولم يزل مطاعاً فيهم إلى أن استنفرهم يعقوب المنصور إلى غزوة الأرك بالأندلس فشهدوها وأبلوا فيها البلاء الحسن، وأصابت محيو بن أبي بكر يومئذٍ جراحات هلك منها بصحراء الزاب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وكان من رياسة عبد الحق ابنه من بعده وبقائها في عقبه ما نذكره إن شاء الله.

الخبر عن دخول بني مرين أرض المغرب الأقصى واستيلائهم عليه والسبب في ذلك

كان السبب في دخول بني مرين لهذا القطر المغربي أنه لما كانت وقعة العقاب بالأندلس سنة تسع وستمائة وهزم الناصر وهلك الجمهور من حامية المغرب ورعاياه حتى خلت البلاد من أهلها ثم حدث عقب ذلك الوباء العظيم الذي تحيف الناس إلا قليلاً وهلك الناصر سنة عشر بعدها فبايع

(1) انظر هذه الحروب في الذخيرة السنية صفحة 18 وما بعدها طبع الجزائر.

الموحدون ابنه يوسف المنتصر وهو يومئذٍ صبي حدث لا يحسن التدبير، وشغلته مع ذلك أحوال الصبا ولذات الملك عن القيام بأمر الرعية فتضافرت هذه الأسباب على الدولة الموحدية فأضعفتها لحينها وأمرضتها المرض الذي كان سبباً لحينها، وكان بنو مرين يومئذٍ موطنين ببلاد القبلة من زاب إفريقية إلى سجلماسة، يتنقلون في تلك القفار والصحارى لا يدخلون تحت حكم سلطان ولا تنالهم الدولة بهضيمة ولا يؤدون إليها ضريبة كثيرة ولا قليلة ولا يعرفون تجارة ولا حرثاً إنما شغلهم الصيد وطراد الخيل والغارات على أطراف البلاد.

وكانت طائفة منهم ينتجعون تخوم المغرب وتلوله زمان الربيع والصيف فيكتالون من أطراف البلاد ما يحتاجون إليه من الميرة ويرعون فيها تلك المدة أنعامهم وشاءهم حتى إذا أقبل فصل الشتاء اجتمع نجعهم بأكرسيف ثم شدوا الرحلة إلى بلادهم فكان ذلك دأبهم على مر السنين.

فلما كانت سنة عشر وستمائة أقبل نجعهم على عادته للارتفاق والميرة حتى إذا أطلوا على المغرب من ثناياه ألفوه قد تبدلت أحواله وبادت خيله ورجاله وفنيت حماته وأبطاله وعريت من أهله أوطانه وخف منها سكانه وقطانه ووجدوا البلاد مع ذلك طيبة المنبت خصيبة المرعى غزيرة الماء واسعة الأكناف فسيحة المزارع متوفرة العشب لقلة راعيها مخضرة التلول والرُبى لعدم غاشيها فأقاموا بمكانهم وبعثوا إلى إخوانهم فأخبروهم بحال البلاد وما هي عليه من الخصب والأمن وعدم المحامي والمدافع، فاغتنموا الفرصة وأقبلوا مسرعين بنجعهم وحللهم وانتشروا في نواحي المغرب وأوجفوا عليها بخيلهم وركابهم واكتسحوا بالغارات والنهب بسيطها ولجأت الرعايا إلى حصونها ومعاقلها وتم لهم ما أرادوا من الاستيلاء على بسيط المغرب وسهله وانتجاع مواقع طله ووبله.

الخبر عن رياسة الأمير أبي محمد عبد الحق بن محيو المريني رحمه الله

لما دخل بنو مرين المغرب كان الأمير عليهم يومئذٍ عبد الحق بن

محيو بن أبي بكر بن حمامة بن محمد المريني، فكثر عيثهم وضررهم بالمغرب وأعضل داؤهم وتضاعف على الرعية بلاؤهم فرفعت الشكايات بهم إلى الخليفة بمراكش وهو يومئذٍ يوسف المنتصر بن الناصر بن المنصور فجهز لهم جيشاً كثيفاً من عشرين ألفاً وعقد عليه لأبي علي بن وانودين وكتب له إلى صاحب فاس السيد أبي إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن يأمره بالخروج معه لغزو بني مرين والإثخان فيهم وعدم الإبقاء عليهم مهما قدر على ذلك.

واتصل الخبر ببني مرين وهم في جهات الريف وبلاد بطوية فتركوا أثقالهم وعيالهم بحصن تازوطا من أرض الريف وصمدوا إلى الموحدين فالتقى الجمعان بوادي نكور[1] فكان الظهور لبني مرين على الموحدين فهزموهم وقتلوهم وامتلأت الأيدي من أسلابهم وأمتعتهم ورجع الموحدون إلى فاس يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف عند أهل المغرب بالمشعلة لكثرة الخصب يومئذٍ واعتمار الفدن بالزرع وأصناف الباقلي فسميت تلك السنة يومئذٍ بعام المشعلة وهي سنة ثلاث عشرة وستمائة، ثم زحف الأمير عبد الحق في ذي الحجة من السنة المذكورة بجموع بني مرين إلى رباط تازة[2] حتى وقف بإزاء زيتونها فخرج عاملها لحربه في جيش كثيف من الموحدين والعرب والحشد من قبائل تسول ومكناسة وغيرهم فقتلت بنو مرين العامل المذكور وهزموا جيوشه.

وجمع عبد الحق الأسلاب والخيل والسلاح وقسم ذلك كله في قبائل بني مرين، ولم يمسك منها لنفسه شيئاً وقال لبنيه: إياكم أن تأخذوا من هذه الغنائم شيئاً فإنه يكفيكم منها الثناء والظهور على أعدائكم.

---

(1) وتمت المعركة بحفص الوادي ما بين رباط تازا والمقرمدة (الذخيرة السنية ص 27 طبع الجزائر).

(2) راجع الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية صفحة 31 طبع الجزائر.

حرب بني مرين مع عرب رياح
ومقتل الأمير عبد الحق رحمه الله

لما انتصر بنو مرين على أعدائهم الموحدين حصل في نفوس بني عسكر بن محمد من عشيرتهم نفاسة عليهم وضاقت صدورهم من استقلال بني عمهم حمامة بن محمد بالرياسة دونهم، فخالفوا الأمير عبد الحق وعشيرته إلى مظاهرة الموحدين وأوليائهم من عرب رياح، وكانت رياح يومئذٍ أشد قبائل المغرب قوة وأقواهم شوكة وأكثرهم خيلاً ورجالاً لحدوث عهدهم بالعز والبداوة، فأغراهم الموحدون يومئذٍ ببني مرين لينتصفوا لهم منهم واتفقت كلمتهم عليهم وسمعت بنو مرين بإقبال العرب والموحدين وبني عسكر إليهم، فاجتمعوا إلى أميرهم عبد الحق فقالوا له: ما ترى في أمر هؤلاء العرب المقبلين إلينا؟ فقال: يا معشر مرين أما ما دمتم في أمركم مجتمعين، وفي آرائكم متفقين وكنتم على حرب عدوكم أعواناً وفي ذات الله إخواناً، فلا أخشى أن ألقى بكم جميع أهل المغرب، وإن اختلفت أهواؤكم وتشتت آراؤكم ظفر بكم عدوكم فقالوا له: «إنا نجدد لك الآن بيعة على السمع والطاعة وأن لا نختلف عليك ولا نفر عنك أو نموت دونك فانهض بنا إليهم على بركة الله» فنهض الأمير عبد الحق في جموع بني مرين فكان اللقاء بمقربة من وادي سبو على أميال من تافرطاست فكانت بينهم حرب بعد العهد بمثلها وقتل فيها الأمير عبد الحق وكبير أولاده إدريس.

ولما رأيت بنو مرين ما وقع بأميرها وابنه حميت وغضبت وأقسمت بأيمانها أن لا يدفن حتى يأخذوا بثاره فصمموا العزم لقتال رياح واستأنفوا الجد لقراعهم، وصبروا صبراً جميلاً فنصرهم الله على عدوهم فهزموا رياحاً وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وشردوهم في الشعاب والأودية ورؤوس الهضاب، واحتووا على ما كان في محلتهم من السلاح والخيل والأثاث، وقام بأمر بني مرين بعد هلاك عبد الحق ابنه عثمان على ما نذكره إن شاء الله.

بقية أخبار الأمير عبد الحق وسيرته

قالوا كان الأمير عبد الحق المريني مشهوراً في قومه بالتقى والفضل والدين، موسوماً بالصلاح وصحة اليقين معروفاً بالورع والعفاف، موصوفاً في سيرته بالعدل والإنصاف يطعم الطعام ويكفل الأيتام ويؤثر المساكين، ويحنو على المستضعفين وكانت له بركة معروفة ودعوة مستجابة موصوفة وكانت قلنسوته وسراويله يتبرك بهما في جميع أحياء زناتة، وكانوا يحملون فضلة وضوئه فيستشفون بها لمرضاهم وكان يسرد الصوم فلا يزال صائماً طول عمره في الحر والبرد لا يرى مفطراً إلا في أيام الأعياد، كثير الذكر والأوراد لا يفتر عنها في سائر الحالات متحرياً لأكل الحلال لا يقتات إلا من لحوم إبله وألبانها أو ما يعانيه من الصيد، معظماً في بني مرين مطاعاً فيهم يقفون عند أمره ولا يصدرون إلا عن رأيه.

حكى ابن أبي زرع عمن حدثه من الثقات: أنه قدم على أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق في وفد من أعيان فاس وفقهائها وذلك في رمضان سنة ثلاث وثمانين وستمائة والأمير يعقوب يومئذٍ برباط الفتح يريد العبور إلى الأندلس برسم الجهاد قال: فجرى في مجلسه ذكر والده الأمير عبد الحق فقال الأمير يعقوب: «كان الأمير عبد الحق رحمه الله صادق القول إذا قال فعل وإذا عاهد وفى لم يحلف بالله قط باراً ولا حانثاً ولم يشرب مسكراً قط، ولا ارتكب فاحشة، تضع الحوامل ببركة إزاره متى عسرت عليهن الولادة وكان يسرد الصوم ويقوم أكثر الليل وإذا سمع بخبر صالح أو عابد قصد لزيارته، واستوهب منه الدعاء شديد الخوف من الصالحين متواضعاً لهم، وكان مع ذلك سماً لأعدائه قاهراً لهم وما وجدنا إلا بركته وبركة من دعا له من الصالحين».

قالوا: وكان الأمير عبد الحق في ابتداء أمره قليل الأولاد فرأى ذات ليلة في منامه كان شعلاً أربعاً من نار خرجن منه فعلون في جو المغرب ثم احتوين على جميع أقطاره، فكان تأويلها تمليك بنيه الأربعة من بعده وهذا

مثل الرؤيا التي رآها عبد الملك بن مروان من بوله في المحراب أربع مرات فكان تأويلها أن ولي الخلافة أربعة من بنيه الوليد وسليمان ويزيد وهشام.

وكان للأمير عبد الحق تسعة من الولد: إدريس وهو أكبرهم وقتل معه في حرب رياح وعثمان ومحمد وأبو بكر ويعقوب وهؤلاء الأربعة هم الذين ولوا الأمر بعده، وعبد الله وعبد الرحمٰن ويقال له بلسانهم رحو وزيان وأبو عياد وبنت هي العاشرة والله أعلم.

الخبر عن رياسة الأمير أبي سعيد عثمان بن عبد الحق رحمه الله

لما فرغ بنو مرين من حرب رياح ورجعوا من اتباعهم اجتمعوا إلى الأمير أبي سعيد عثمان بن عبد الحق وكان أكبر بني أبيه بعد إدريس فعزوه بمصاب أبيه وأخيه وبايعوه عن رضى منهم فاجتمعت عليه كلمتهم ولما فرغ الأمير أبو سعيد من تجهيز أبيه وأخيه ودفنهما أقسم أن لا يرجع عن حرب رياح حتى يثأر بمائة شيخ منهم فسار إليهم وأثخن فيهم حتى شفى نفسه وأذعنوا إلى الطاعة ولاذوا بالسلم، فسالمهم على إتاوة يؤدونها إليه كل سنة.

ثم ضعفت شوكة الموحدين وتداعى أمرهم إلى الاختلال وأشرف ملكهم على ربوة الاضمحلال وتقلص ظل حكامهم عن البدو جملةً وفسدت السابلة واختلط المرعى بالهمل.

فلما رأى الأمير أبو سعيد ما عليه أمر الموحدين من الضعف وما نزل برعايا المغرب من الجور والعسف جمع أشياخ مرين وندبهم إلى القيام بأمر الدين والنظر في مصالح المسلمين فأسرعوا إلى إجابته وبادروا لتلبية دعوته.

فسار بهم أبو سعيد في نواحي المغرب يتقرى مسالكه وشعوبه ويتتبع تلوله ودروبه ويدعو الناس إلى طاعته والدخول في عهده وحمايته، فمن أجابه منهم أمنه ووضع عليه قدراً معلوماً من الخراج، ومن أبى عليه نابذه وأوقع به فبايعه من قبائل المغرب هوارة وزكارة ثم تسول ومكناسة ثم بطوية وفشتالة ثم

سدراتة وبهلولة ومديونة ففرض عليهم الخراج وفرق فيهم العمال، ثم فرض على أمصار المغرب مثل فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة ضريبة معلومة يؤدونها على رأس كل حول على أن يكف الغارة عنهم ويصلح سابلتهم.

ثم لما كانت سنة عشرين وستمائة غزا بلاد فازاز ومن بها من ظواعن زناتة فأثخن فيهم حتى أذعنوا للطاعة وقبض أيديهم عن إذاية الناس بالغارات والنهب في الطرقات.

ثم في سنة إحدى وعشرين بعدها غزا عرب رياح أهل أزغار وبلاد الهبط فأثخن فيهم حتى كاد يأتي عليهم ولم يزل دأبه ذلك من تدويخ بلاد المغرب وأقطاره حتى هلك باغتيال علج له كان رباه صغيراً، فشب وسول له الشيطان الفتك به فترصد غرته وطعنه بحربة في منحره فمات لوقته سنة ثمان وثلاثين.

وكان ذا نجدة وشجاعة وعزم وكرم وإيثار مكرماً للفقهاء وأهل الصلاح سالكاً في ذلك سنن أبيه رحمه الله.

الخبر عن رياسة الأمير أبي معرّف محمد بن عبد الحق رحمه الله

لما هلك الأمير أبو سعيد قام بالأمر بعده أخوه أبو معرّف محمد بن عبد الحق، فاقتفى سنن أخيه في تدويخ بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصاره وجباية المغارم من باديته، وبعث الرشيد بن المأمون صاحب مراكش قائده أبا محمد بن وانودين لحرب بني مرين وعقد له على مكناسة فأجحف بأهلها في المغارم، ثم نزل بنو مرين في بعض الأحيان بنواحيها وأجلبوا عليها فنادى أبو محمد في عسكره وخرج إليهم فدارت بينهم حرب شديدة هلك فيها خلق من الجانبين، وبارز محمد بن إدريس بن عبد الحق قائداً من قواد الفرنج فاختلفا ضربتين هلك العلج بإحداهما وجرح محمد بالأخرى فاندمل جرحه وصار أثراً في وجهه لقب من أجله بأبي ضربة، ثم شد بنو مرين على الموحدين فانكشفوا ورجع بن وانودين إلى مكناسة مفلولاً.

وبقي بنو عبد المؤمن من أثناء ذلك في مرض من الأيام وتثاقل عن الحماية ثم أومضت دولتهم إيماضة الخمود وذلك أنه لما هلك الرشيد بن المأمون سنة أربعين وستمائة وولي أخوه علي وتلقب بالسعيد وبايعه أهل المغرب انصرفت عزائمه إلى غزو بني مرين، وقطع أطماعهم عما سمت إليه من تملك المواطن فجهز عساكر الموحدين لقتالهم ومعهم قبائل العرب والمصامدة وجموع الفرنج فنهضوا سنة اثنتين وأربعين وستمائة في جيش كثيف يناهز عشرين ألفاً، فسمع الأمير أبو معروف بإقبالهم فاستعد لقتالهم وزحف إليهم فكان اللقاء بموضع يعرف بصخرة أبي بياش من أحواز فاس فدارت بينهم حرب شديدة وصبر الفريقان، ولما كان عشي النهار قتل الأمير أبو معرّف بن عبد الحق في الجولة بيد زعيم من زعماء الفرنج تحاملا فعثر فرس أبي معرّف به، وأمكنت العلج فيه الفرصة فاغتنمها وطعنه فمات، فانهزمت بنو مرين وتبعهم الموحدون فاتخذوا الليل جملاً وأسروا طول ليلتهم بحللهم وعيالاتهم وأموالهم فأصبحوا بجبال غياثة من نواحي تازا فاعتصموا بها أياماً ثم خرجوا إلى بلاد الصحراء وولوا عليهم أبا بكر بن عبد الحق على ما نذكره، وكانت هذه الوقعة وهلاك الأمير أبي معرّف عشية يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين وستمائة.

الخبر عن دولة الأمير أبي بكر بن عبد الحق رحمه الله

هذا الأمير هو الذي رفع من راية بني مرين وسما بها إلى مرتبة الملك وكنيته أبو يحيى وهو أول من جند الجنود منهم، وضرب الطبول ونشر البنود وملك الحصون والبلاد واكتسب الطارف والتلاد. بايعه بنو مرين بعد مهلك أخيه أبي معرّف في التاريخ المتقدم فكان أول ما ذهب إليه ورآه من النظر لقومه: أن قسم بلاد المغرب وقبائل جبايته بين بني مرين وأنزل كلاًّ منهم بناحية منه سوغهم إياها سائر الأيام طعمة لهم وأمر كل واحد من أشياخ بني مرين أن يستركب الرجل ويستلحق الأتباع فحسنت حالهم وكثرت غاشيتهم وتوفرت جموعهم.

استيلاء الأمير أبي بكر على مكناسة وبيعة أهلها لابن أبي حفص بواسطته

ثم سار الأمير أبو بكر بمحلته فنزل جبل زرهون ودعا أهل مكناسة إلى بيعة الأمير أبي زكرياء بن أبي حفص صاحب إفريقية لأنه كان يومئذٍ على دعوته وفي ولايته، وحاصرها وضيق عليها بمنع المرافق وترديد الغارات إلى أن أذعنوا لطاعته، فافتتحها صلحاً بمداخلة أخيه يعقوب بن عبد الحق لزعيمها أبي الحسن بن أبي العافية وبعثوا ببيعتهم إلى الأمير أبي زكرياء الحفصي، وكانت البيعة من إنشاء أبي المطرف بن عميرة المخزومي وكان من أعلام ذلك العصر ومشاهيره، ولي القضاء لبني عبد المؤمن بمدينة سلا، ثم استقضوه بعدها بمكناسة فشهد هذه القضية وكتب البيعة.

ولما فتح الأمير أبو بكر مكناسة أقطع أخاه يعقوب ثلث جبايتها جزاء له على وساطته وكان فتح مكناسة سنة ثلاث وأربعين وستمائة، ثم آنس الأمير أبو بكر من نفسه الاستبداد ومن قبيله الاستيلاء فاتخذ الآلة لذلك وسما بنفسه إلى مرتبة الملك وأعد له عدته وانتهى الخبر إلى السعيد صاحب مراكش بتغلب الأمير أبي بكر على مكناسة وصرفها لابن أبي حفص فوجم لها وفاوض الملأ من أهل دولته في أمره وأراهم كيف اقتطع الأمر عنهم شيئاً فشيئاً حتى لم يبق بيدهم إلا قرارة مراكش وما حولها بعد امتداد ظل ملكهم على المغربين وإفريقية والأندلس.

ثم نهض السعيد من مراكش سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة وبني مرين أولاً، ثم تلمسان ويغمراسن بن زيان ثانياً ثم إفريقية وابن أبي حفص آخراً.

ولما وصل إلى وادي بهت عرض جيوشه وميزها واتصل الخبر بالأمير أبي بكر وهو بمكناسة فخرج وحده ليلاً يتجسس الأخبار ويستطلع أحوال السعيد وجموعه فتقدم حتى أشرف على محلة السعيد من كثب ولا علم

لأحد به فرأى ما لا طاقة له به ورأى من الرأي أن يتخلى للسعيد عن البلاد ولا يناجزه الحرب فلحق بمكناسة واستدعى بني مرين من أماكنهم التي عين لهم، فتلاحقوا به وساروا إلى قلعة تازوطا من بلاد الريف فتحصنوا بها.

وتقدم السعيد إلى مكناسة فتلقاه أهلها خاضعين مستشفعين إليه بشيوخهم وصبيانهم فعفا عنهم، ثم سار إلى فاس فنزل بظاهرها من ناحية القبلة وخرج إليه أشياخها فسلموا عليه وسألوه الدخول إلى البلد فتكرم عنهم وأبى، ثم ارتحل إلى رباط تازا فنزل بظاهرها وهناك بعث إليه الأمير أبو بكر ببيعته فقبلها وكتب له ولقومه بالأمان وكان فيما خاطبه به الأمير أبو بكر أن قال له: «ارجع يا أمير المؤمنين إلى حضرتك وأنا أكفيك أمر يغمراسن وأفتح لك تلمسان» فشاور السعيد خاصته في ذلك فقالوا: «لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن الزناتي أخو الزناتي لا يسلمه ولا يخذله وإنا نخاف أن يصطلحا على حربك» فأسعفهم وكتب إلى الأمير أبي بكر يقول له: «أقم بموضعك وابعث إليّ بحصة من قومك» فأمده بخمسمائة من بني مرين وعقد عليها لابن عمه أبي عياد بن أبي يحيى بن حمامة.

وتقدم السعيد إلى تلمسان فكان من هلاكه على قلعة تامزردكت ما قدمناه في أخبار دولته، وكان الأمير أبو بكر لما نزل حصن تازوطا وأهل ذلك الحصن يومئذٍ هم بنو وطاس بطن من بني مرين أجمعوا الفتك به غيرة ونفاسة عليه فدس إليه بذلك بعض شيوخهم وأعلمه بما تواطؤوا عليه من غدره فارتحل الأمير أبو بكر عنهم إلى بني يزناسن وكانوا نازلين يومئذٍ بعين الصفا فأقام هنالك معهم حتى رجعت إليه الحصة التي كانت مع السعيد وأعلموه بمقتله وافتراق جموعه فانتهز الأمير أبو بكر الفرصة في فل الموحدين واعترضهم بأكرسيف فاستلبهم وانتزع الآلة من أيديهم وأدار إليه كتيبة الفرنج والناشبة من الأغزاز، واتخذ المركب الملوكي من يومئذٍ ثم أغذ السير إلى مكناسة فدخلها واستولى عليها وأقام بها أياماً ثم نهض إلى أعمال وطاط وحصون ملوية فافتتحها ودوخ جبالها وذلك أواخر صفر سنة ست وأربعين وستمائة.

استيلاء الأمير أبي بكر على فاس وبيعة أهلها لها

لما فرغ الأمير أبو بكر من فتح حصون ملوية صرف عزمه إلى فتح فاس وانتزاعها من يد بني عبد المؤمن وكان العامل بها يومئذٍ السيد أبا العباس من بني عبد المؤمن فأناخ عليها الأمير أبو بكر بخيله ورجله وتلطف في مداخلة أهلها وضمن لهم جميل النظر وحميد السيرة وكف الأذى عنهم، فأجابوه ووثقوا بعهده وغنائه وأووا إلى ظله وركنوا إلى طاعته وانتحال الدعوة الحفصية بأمره ونبذوا طاعة بني عبد المؤمن يأساً من صريخهم فبايعوه بالرابطة خارج باب الشريعة وحضر هذه البيعة الشيخ أبو محمد الفشتالي ونشده الله على الوفاء بما اشترط على نفسه من النظر لهم والذب عنهم وسلوك طريق العدل فيهم فكان حضوره ملاك تلك العقدة والبركة التي يتعرف أثرها خلفهم في تلك البيعة.

ودخل الأمير أبو بكر مدينة فاس زوال يوم الخميس السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ست وأربعين وستمائة بعد موت السعيد صاحب مراكش بشهرين، ولما دخل الأمير أبو بكر قصبة فاس أمن السيد أبا العباس عامل الموحدين بها وأخرجه من القصبة بعياله وأولاده وبعث معه سبعين فارساً يبلغونه إلى مأمنه فأجازوه وادي أم الربيع ورجعوا.

ثم نهض الأمير أبو بكر إلى منازلة تازا وبها يومئذٍ السيد أبو علي بن محمد أخو أبي دبوس فنازلها أربعة أشهر حتى نزلوا على حكمه فقتل بعضهم ومنّ على آخرين منهم وسد ثغورها وأقطع أخاه يعقوب بن عبد الحق رباط تازا وحصون ملوية ورجع إلى فاس فأقام بها نحو سنة واستقامت له الأمور، وقدمت عليه الوفود وأمر القبائل بالنزول في البسائط وعمارة القرى والمداشر وأمنت الطرقات وتحركت التجار ورخصت الأسعار وصلح أمر الناس واغتبطوا بولايته.

انتقاض أهل فاس على الأمير أبي بكر ومحاصرته إياهم

لما استولى الأمير أبو بكر على المغرب وملك مدينة فاس كما ذكرنا نهض في ربيع الأول سنة سبع وأربعين وستمائة إلى معدن العوام من بلاد فازاز لفتح بلاد زناتة وتدويخ نواحيها واستخلف على فاس مولاه السعود بن خرباش من جماعة الحشم أحلاف بني مرين وكان الأمير أبو بكر لما فتح فاساً استبقى من كان فيها من عسكر بني عبد المؤمن من غير نسبهم على الوجه الذي كانوا عليه من الخدمة مع الموحدين، وكان من جملتهم طائفة من النصارى نحو المائتين، وعليهم قائد منهم يقال له شريد الفرنجي فكانوا من حصة السعود هنالك، فوقعت بينهم وبين شيعة الموحدين من أهل فاس مداخلة وعزم الفاسيون على الفتك بالسعود وتحويل الدعوة إلى المرتضى فاجتمعوا إلى القاضي أبي عبد الرحمٰن المغيلي وفاوضوه في ذلك فوافقهم على رأيهم، فاستدعوا شريداً وقالوا له: «تقتل هذا الأسود وتضبط البلد حتى نكتب إلى المرتضى فيبعث إلينا من يقوم بأمرنا» فأجابهم إلى ذلك وكان ميله إلى الموحدين وهواه معهم لكونه صنيعتهم وكان الذي مشى في هذه الثورة وتولى كبرها المشرف ولد القاضي المذكور وابن جشار وأخوه وابن أبي طاط وولده.

فلما كانت صبيحة الثلاثاء الموفي عشرين من شوال سنة سبع وأربعين وستمائة طلع الأشياخ المذكورون إلى القصبة للسلام على السعود على عادتهم في ذلك فدخلوا عليه بمجلس حكمه وهاجوه ببعض المحاورات فغضب وانتهرهم فوثبوا به ونادوا بشعارهم وكان شريد الفرنجي واقفاً في عسكره أمام القصبة قد واطأهم على ذلك فاقتحم على السعود فقتله وقتل معه أربعين من رجاله واحتز العامة رأسه ورفعوه على عصا وطافوا به في أسواق البلد وسككها واقتحموا القصر فانتهبوه وسبوا الحرم ونصبوا النصراني لضبط البلد وبعثوا ببيعتهم إلى المرتضى صاحب مراكش واتصل الخبر بالأمير أبي بكر وهو منازل بلاد فازاز فأفرج عنها وأغذ السير إلى فاس فأناخ عليها بعساكره وشمر لحصارها وقطع المادة عنها.

وبعث أهل فاس إلى المرتضى بالصريخ فلم يرجع إليهم قولاً ولا ملك لهم ضرّاً ولا نفعاً ولا وجد لكشف ما نزل بهم حيلة ولا وجهاً، سوى أنه استجاش على الأمير أبي بكر بيغمراسن بن زيان صاحب تلمسان وأمله لكشف هذه النازلة عمن انحاش إلى طاعته فأجابه يغمراسن إلى ذلك وطمع أن يكون ذلك سبباً له في تملك المغرب وسلماً للصعود إلى ذروة ملكه فاحتشد لحركته ونهض من تلمسان للأخذ بحجزة الأمير أبي بكر عن فاس وأهلها.

واتصل بالأمير أبي بكر خبر نهوضه إليه لتسعة أشهر من منازلته فاساً، فجمر الكتائب عليها وصمد إليه قبل فصوله عن تخوم بلاده فلقيه بوادي ايسلي من بسيط وجدة فتزاحف القوم وكانت ملحمة عظيمة هلك فيها عبد الحق بن محمد بن عبد الحق بيد إبراهيم بن هشام من بني عبد الواد.

ثم انكشفت بنو عبد الواد ونجا يغمراسن بن زيان إلى تلمسان برأس طمرة ولجام وترك محلته بما فيها فاحتوى عليها الأمير أبو بكر وانكفأ راجعاً إلى فاس للأخذ بمخنقها فوصل إليها في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وستمائة وأناخ عليها بكلكله واستأنف الجد وأرهف الحد وشدد في الحصار وأيس أهل فاس من إغاثة المرتضى وسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ولم يجدوا وليجة من دون مراجعة طاعة بني مرين فسألوا الأمير أبا بكر الأمان فبذله لهم على غرم ما أتلفوا له بالقصر من المال يوم الثورة وقدره مائة ألف دينار فتحملوها وأمكنوه من قياد البلد فدخلها في الثالث والعشرين من الشهر المذكور فأقام بها إلى رجب الموالي له وطالبهم بالمال فسوفوه وتلووا في المقال.

فلما رأى ذلك منهم قبض على جماعة من أشياخها وأمنائها وأثقلهم بالحديد وطالبهم بالمال والأثاث الذي انتهبوه من القصر فقال له شيخ يعرف بابن الخبا: «إنما فعل الذنب منا ستة فكيف تهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ ولو فعل الأمير ما أشير به عليه لكان صواباً من الرأي» فقال: «وما ذلك؟» قال: «تعمد إلى هؤلاء النفر الستة الذين سعوا في الفتنة فتأخذ رؤوسهم وتشرد بهم من خلفهم ثم تأخذنا نحن بغرم المال» فقال: «لعمري لقد أصبت».

ثم أمر بالقاضي المغيلي وابنه وابن أبي طاط وابنه وابن جشار وأخيه فقتلوا ورفعت على الشرفات رؤوسهم وأخذ الباقين بغرم المال طوعاً وكرهاً قال ابن خلدون: «فكان ذلك مما عبد رعية فاس وقادها لأحكام بني مرين وضرب الرهب على قلوبهم فخشعت منهم الأصوات وانقادت منهم الهمم ولم يحدثوا بعدها أنفسهم بغمس يد في فتنة» وكان مقتل النفر المذكورين خارج باب الشريعة يوم الأحد الثامن من رجب المذكور.

استيلاء الأمير أبي بكر على مدينة سلا ثم ارتجاعها منه وهزيمة المرتضى بعد ذلك

لما أكمل الله للأمير أبي بكر فتح مدينة فاس واستوسق أمر بني مرين بها رجع إلى ما كان فيه من منازلة بلاد فازاز فافتتحها ودوخ أوطان زناتة واقتضى مغارمهم وحسم علل الثائرين بها، ثم تخطى ذلك إلى مدينة سلا ورباط الفتح سنة تسع وأربعين وستمائة فملكها وتاخم الموحدين بثغرها، واستعمل عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق وعقد له على ذلك الثغر وضم الأعمال إليه.

وبلغ الخبر بذلك إلى المرتضى بمراكش فأهمه الشأن وأحضر الملأ من الموحدين وفاوضهم واعتزم على حرب بني مرين وسرح العساكر سنة خمسين وستمائة فأحاطت بسلا ثم افتتحوها وعادت إلى طاعة المرتضى وعقد عليها لأبي عبد الله بن يعلو من مشيخة الموحدين ثم أجمع المرتضى النهوض بنفسه إلى بني مرين فبعث في المدائن والقبائل حاشرين فأهرعت إليه أمم الموحدين والعرب والمصامدة وغيرهم وفصل من مراكش سنة ثلاث وخمسين وستمائة في نحو الثمانين ألفاً، ووالى السير حتى انتهى إلى جبال بهلولة من نواحي فاس وصمد إليه الأمير أبو بكر في عساكر بني مرين ومن اجتمع إليهم من ذويهم.

والتقى الجمعان هنالك وصدقهم بنو مرين الجلاد فاختل مصاف الموحدين وانهزمت عساكر المرتضى وأسلمه قومه ورجع إلى مراكش مفلولاً، واستولى بنو مرين على معسكره واستباحوا سرادقه وانتهبوا فساطيطه وغنموا جميع ما وجدوا بها من المال والذخيرة واستاقوا سائر الكراع والظهر، وامتلأت أيديهم من الغنائم واعتز أمرهم وانبسط سلطانهم وكان يوماً له ما بعده، وفي القرطاس أن انهزام جيش المرتضى في هذه المرة كان عن جولان فرس بين أخبيتهم ليلاً فحسبوا أن بني مرين قد أغاروا عليهم فانهزموا لا يلوون على شيء والله أعلم.

ثم غزا الأمير أبو بكر بعد هذا بلاد تادلا فاستباح حاميتها من بني جابر عرب جشم واستلحم أبطالهم وألان من جدهم وخضد من شوكتهم وفي خلال هذه الحروب كان مقتل علي بن عثمان بن عبد الحق وهو ابن أخي الأمير أبي بكر شعر منه بفساد الدخيلة والإجماع للتوثب على الأمر فدس لابنه أبي حديد مفتاح بن أبي بكر بقتله فقتله في جهات مكناسة سنة إحدى وخمسين وستمائة والله تعالى أعلم.

استيلاء الأمير أبي بكر على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة

لما كانت سنة خمس وخمسين وستمائة نهض الأمير أبو بكر إلى محاربة يغمراسن بن زيان وسمع به يغمراسن فنهض إليه أيضاً، فكان اللقاء بأبي سليط فاقتتلوا وانهزم يغمراسن واعتزم الأمير أبو بكر على اتباعه فثناه عن رأيه في ذلك أخوه يعقوب بن عبد الحق لعهد تأكد بينه وبين يغمراسن فرجع.

ولما انتهى إلى المقرمدة من أحواز فاس بلغه أن يغمراسن قصد سجلماسة ودرعة لمداخلة كانت له من بعض أهلها وعورة أطمعته في ملكها فأسرع الأمير أبو بكر السير بجموعه إلى سجلماسة فدخلها قبل وصول يغمراسن إليها بيوم، ثم جاء يغمراسن حتى نزل خارجها بباب تاحسنت وسقط في يده ويئس من غلبة الأمير أبي بكر عليها ودارت بينهما حرب تكافأ

الفريقان فيها وهلك سليمان بن عثمان بن عبد الحق ابن أخي الأمير أبي بكر، وانقلب يغمراسن إلى بلده وعقد الأمير أبو بكر على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن واستعمل على الجباية عبد السلام الأوربي وجعل مسلحة الجند بها لنظر أبي يحيى القطراني وملكه قيادتهم وانكفأ راجعاً إلى فاس والله تعالى أعلم.

وفاة الأمير أبي بكر رحمه الله

لما رجع الأمير أبو بكر من حرب يغمراسن على سجلماسة أقام بفاس أياماً ثم نهض إلى سجلماسة أيضاً متفقداً لثغورها فانقلب منها عليلاً ووصل إلى فاس فتوفي بقصره من قصبتها أواسط رجب سنة ست وخمسين وستمائة ودفن داخل باب الجيزيين من أبواب عدوة الأندلس بإزاء الشيخ أبي محمد الفشتالي حسبما أوصى بذلك وتصدى للقيام بالأمر بعده ابنه عمر على ما نذكره.

الخبر عن دولة أبي حفص الأمير عمر بن أبي بكر بن عبد الحق رحمه الله

لما مات الأمير أبو بكر رحمه الله اشتمل العامة من بني مرين على ابنه أبي حفص عمر فبايعوه ونصبوه للأمر وتباروا في خدمته، ومالت المشيخة وأهل العقد والحل إلى عمه يعقوب بن عبد الحق وكان غائباً عند مهلك أخيه بتازا فلما بلغه الخبر أسرع اللحاق بفاس وتوجهت إليه وجوه الأكابر، وأحس عمر بميل الناس إلى عمه يعقوب فقلق لذلك وأغراه أتباعه بالفتك بعمه فاعتصم بالقصبة، ثم سعى الناس في الإصلاح بينهما فتفادى يعقوب من الأمر ودفعه إلى ابن أخيه على أن تكون له بلاد تازا وبطوية وملوية التي كان أقطعه إياها أخوه من قبل، فانفصلوا على ذلك وخلص الأمر لعمر واستمر بفاس أشهراً إلى أن غلب عليه عمه المذكور حسبما نقص عليك.

الخبر عن دولة السلطان المنصور بالله
يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

هذا السلطان جليل القدر عظيم الشأن وهو سيد بني مرين على الإطلاق وستسمع من أخباره الحسنة ما يستغرق الوصف ويستوقف السمع والطرف وهو رابع الإخوة الأربعة الذين ولوا الأمر بالمغرب من بني عبد الحق وكانت أمه واسمها أم اليمن بنت علي البطوي رأت وهي بكر كأن القمر خرج من قبلها حتى صعد إلى السماء وأشرق نوره على الأرض فقصت رؤياها على أبيها فسار إلى الشيخ الصالح أبي عثمان الورياكلي فقصها عليه فقال: إن صدقت رؤياها فستلد ملكاً عظيماً فكان كذلك. ولما انفصل الأمير يعقوب بن عبد الحق عن ابن أخيه عمر بولاية تازا وما أضيف إليها اجتمع إليه كافة بني مرين وعذلوه فيما كان منه من التخلي عن الملك وحملوه على العود في الأمر ووعدوه من أنفسهم المظاهرة والنصر إلى أن يتم أمره فأجاب وبايعوه وصمد إلى فاس فبرز الأمير عمر للقائه.

ولما تراءى الجمعان خذل عمر جنوده وأسلموه فرجع إلى فاس مفلولاً ووجه الرغبة إلى عمه أن يقطعه مكناسة وينزل له عن الأمر، فأجابه إلى ذلك ودخل السلطان يعقوب مدينة فاس فملكها سنة سبع وخمسين وستمائة ونفذت كلمته في بلاد المغرب ما بين ملوية وأم الربيع وما بين سجلماسة وقصر كتامة واقتصر عمر على إمارة مكناسة فتولاها أياماً ثم اغتاله بعض عشيرته فقتلوه لنحو سنة من إمارته فكفى الأمير يعقوب أمره واستقام سلطانه وذهب التنازع والشقاق عن ملكه.

وكان يغمراسن بن زيان لما سمع بموت قرنه الأمير أبي بكر سما له أمل في الإجلاب على المغرب فجمع لذلك قومه من بني عبد الواد واستظهر ببني توجين ومغراوة ووعدهم ومناهم وأطمعهم في غيل الأسد، ثم نهض بهم إلى المغرب حتى إذا انتهوا إلى كلدمان صمد إليهم الأمير يعقوب ففلهم وردهم على أعقابهم ومر يغمراسن في طريقه بتافرسيت من بلاد بطوية فأحرق

وانتسف واستباح وأعظم النكاية ورجع الأمير يعقوب إلى فاس واقتفى مذهب أخيه الأمير أبي بكر في فتح أمصار المغرب وتدويخ أقطاره وكان مما أكرمه الله به أن فتح أمره باستنقاذ مدينة سلا من أيدي نصارى الإصبنيول فكان له بها أثر جميل وذكر خالد رحمه الله.

استيلاء نصارى الإصبنيول على مدينة سلا وإيقاع السلطان يعقوب بهم وطردهم عنها

كان يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق قد استعمله عمه الأمير أبو بكر بن عبد الحق على مدينة سلا لما ملكها كما ذكرناه ولما استرجعها الموحدون من يده أقام يتقلب في جهاتها مترصداً للفرصة وإمكانها فيها ولما بويع عمه السلطان يعقوب بن عبد الحق آسفته بعض الأحوال منه فذهب مغاضباً حتى نزل عين غبولة وألطف الحيلة في تملك رباط الفتح وسلا ليعتدهما ذريعة لما أسر في نفسه من التوثب على الأمر فتمت له الحيلة وملك سلا وركب عاملها أبو عبد الله بن يعلو البحر فاراً إلى آزمور وخلف أمواله وحرمه، فتملك يعقوب بن عبد الله ذلك وتمكن من البلد وجاهر بالخلع، وصرف إلى منازعة عمه السلطان يعقوب وجوه العزم وتمكنت الوحشة بين اليعقوبين.

وداخل يعقوب سلا تجار الحرب من الإصبنيول في الإمداد بالسلاح فتباروا في ذلك وكثرت سفن المترددين منهم إليها حتى كثروا أهلها وزاد عددهم فعزموا على الثورة بها واهتبلوا فيها غرة عيد الفطر من سنة ثمان وخمسين وستمائة عند اشتغال الناس بعيدهم وثاروا بسلا في اليوم الثاني من شوال فوضعوا السيف في أهلها وقتلوا الرجال وسبوا الحرم وانتهبوا الأموال وكان الحادث بها عظيماً وضبطوا البلد وتحصن يعقوب بن عبد الله برباط الفتح.

وطار الصريخ إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق وهو يومئذٍ بمدينة تازا

دخلها أوائل شعبان من السنة المذكورة لاستشراف أحوال يغمراسن بن زيان فوصل إليه الخبر في اليوم الرابع من شوال المذكور فنهض السلطان يعقوب من فوره بعد أن صلى العصر بتازا من ذلك اليوم فأسرى ليلته تلك في نحو الخمسين فارساً ومن الغد صلى العصر بظاهر سلا فكان قطعه مسافة ما بينهما في يوم وليلة، وهذا أمر خارق للعادة بلا شك أظهره الله على يد هذا السلطان لصدق عزمه وحسن نيته وإلا فالمسافة ما بين تازا وسلا ست مراحل أو أكثر، ثم تلاحقت به جيوش المسلمين من القبائل المتطوعة من جميع آفاق المغرب فحاصر النصارى بها وضيق عليهم ووالى القتال عليهم بالليل والنهار حتى اقتحمها عليهم عنوة لأربع عشرة ليلة من حصارها وأثخن فيهم بالقتل ونجا من نجا منهم إلى سفنهم فنشروا قلوعهم وذهبوا يلتفتون وراءهم، ثم شرع السلطان يعقوب رحمه الله في بناء السور الغربي من سلا الذي يقابل الوادي منها فإنها كان لا سور لها من تلك الجهة من أيام عبد المؤمن بن علي فإنه كان قد هدم أسوار قواعد المغرب مثل فاس وسبتة وسلا حسبما قدمنا الخبر عنه في دولته ومن هذه الثلمة كان دخول النصارى إلى سلا فشرع السلطان يعقوب رحمه الله في بنائه فبناه من أول دار الصناعة قبلة إلى البحر جوفاً وكان رحمه الله يقف على بنائه بنفسه ويناول الحجر بيده ابتغاء ثواب الله وتواضعاً وسعياً في صلاح المسلمين حتى تم السور المذكور على أحصن وجه وأكمله.

ودار الصناعة المذكورة في هذا الخبر هي الدار التي كانت تصنع بها الأساطيل البحرية والمراكب الجهادية يجلب إليها العود من غابة المعمورة فتصنع هنالك ثم ترسل في الوادي وكان ذلك من الأمر المهم في دولة الموحدين حسبما سلف قال في الجذوة: «دار الصناعة بسلا بناها المعلم أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج من أهل إشبيلية وكان من العارفين بالحيل الهندسية ومن أهل المهارة في نقل الأجرام ورفع الأثقال بصيراً باتخاذ الآلات الحربية الجافية» اهـ.

وأما يعقوب بن عبد الله الثائر فإنه خشي بادرة السلطان يعقوب بن

عبد الحق فخرج من رباط الفتح وأسلمه فضبطه السلطان وثقفه ثم نهض إلى بلاد تأمسنا فاستولى عليها وملك مدينة آنفى وهي المسماة الآن بالدار البيضاء، فضبطها ولحق يعقوب بن عبد الله بحصن علودان من جبال غمارة فامتنع به وسرح السلطان ابنه أبا مالك عبد الواحد وعلي بن زيان لمنازلته وسار هو إلى لقاء يغمراسن فلقيه وعقد معه المهادنة وافترقا على السلم ووضع أوزار الحرب ورجع السلطان إلى المغرب فخرج عليه بنو أخيه إدريس على ما نذكره.

خروج بني إدريس بن عبد الحق على عمهم السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

قد تقدم لنا أن الأمير عبد الحق المريني كان له تسعة من الولد أكبرهم إدريس وقتل مع والده في حرب رياح وكان لإدريس هذا عدة أولاد بقوا في كفالة أعمامهم ولما أفضى الأمر إلى السلطان يعقوب وكان أولاد إدريس قد ملكوا أمر أنفسهم واشتدت شكيمتهم فنفسوا عليه ما آتاه الله من الملك ورأوا أنهم أحق به منه لأن أباهم هو الأكبر من ولد عبد الحق كما مر فخرجوا على عمهم يعقوب ولحقوا بقصر كتامة وتابعوا ابن عمهم يعقوب بن عبد الله على رأيه واجتمعوا إلى كبيرهم محمد بن إدريس بن عبد الحق وانضم إليه من كان على رأيهم من عشيرتهم ومواليهم واعتصموا بجبال غمارة فنهض إليهم السلطان يعقوب وتلطف بهم حتى استنزلهم واسترضاهم وعقد لعامر بن إدريس منهم سنة ستين وستمائة على عسكر من ثلاثة آلاف فارس أو يزيدون من المتطوعة من بني مرين وأغزاهم الأندلس لجهاد العدو بها وحملهم وفرض لهم في العطاء وشفع بهذه الفعلة الحسنة عمله في واقعة سلا وهو أول جيش عبر البحر إلى الأندلس من بني مرين فكان لهم في الجهاد والمرابطة مواقف مذكورة ومقامات محمودة تبع الخلف فيها السلف ودام ذلك فيهم برهة من الدهر وقاموا عن أهل المغرب والأندلس بهذا الواجب العظيم رحمهم الله وجزاهم عن المسلمين خيراً.

وأما يعقوب بن عبد الله صاحب سلا فإنه أقام خارجاً بالنواحي متنقلاً في الجهات إلى أن قتله طلحة بن محلي من أولياء السلطان يعقوب على ساقية غبولة من ناحية رباط الفتح سنة ثمان وستين وستمائة فكفى السلطان يعقوب أمره.

حصار السلطان يعقوب حضرة مراكش ونزوع أبي دبوس منها إليه وهلاك المرتضى بعد ذلك

لما فرغ السلطان يعقوب من شأن الخارجين عليه من عشيرته أجمع رأيه لمنازلة المرتضى والموحدين في دارهم وحضرتهم ورأى أنه أوهن لشوكتهم وأقوى لأمره عليهم، فبعث في قومه وحشد أهل مملكته واستكمل التعبئة وسار سنة ستين وستمائة حتى انتهى إلى جبل جيليز فشارف دار الخلافة ونزل بعقرها وأخذ بمخنقها وخفقت ألويته على جنباتها، وعقد المرتضى على حربه لأبي دبوس إدريس بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن فعبأ كتائبه ورتب مصافه وبرز لمدافعتهم ظاهر الحضرة فكانت بينهم حرب بعد العهد بمثلها هلك فيها الأمير عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق ففت مهلكه في عضدهم وارتحلوا عنها إلى أعمالهم واعترضتهم عساكر الموحدين بوادي أم الربيع وعليهم يحيى بن عبد الله بن وانودين فاقتتلوا في بطن الوادي وانهزمت عساكر الموحدين هزيمة شنعاء وتركوا الأموال والأثاث فاحتوى بنو مرين على ذلك كله وهي واقعة أم الرجلين.

ثم سعى سماسرة الفتن عند الخليفة المرتضى في ابن عمه وقائد حربه أبي دبوس بأنه يطلب الأمر لنفسه وشعر هو بالسعاية في جانبه فخشي بادرة المرتضى ولحق بالسلطان يعقوب سنة إحدى وستين وستمائة عند دخوله إلى فاس من محاصرته مراكش فأقام عنده ملياً ثم سأله الإعانة على أمره بعسكر يمده به وآلة يتخذها لملكه ومال يصرفه في ضرورياته، على أن يشركه في

الفتح والغنيمة والسلطان فأمده السلطان يعقوب بخمسة آلاف من بني مرين وبالمستجاد من الآلة والكفاية من المال وأهاب له بالعرب والقبائل من أهل مملكته وغيرهم أن يكونوا معه يداً واحدة حتى يبلغ مراده في فتح مراكش، وسار أبو دبوس في الكتائب حتى شارف الحضرة ودس إلى أشياعه من الموحدين بأمره فثاروا بالمرتضى فكان من فراره إلى آزمور ونزوله على صهره ابن عطوش ومقتله على يده ما قدمنا ذكره في دولته، واستتب أمر أبي دبوس بمراكش وثبت قدمه بها فبعث إليه السلطان في الوفاء بالمشارطة فاستنكف واستكبر ونقض العهد وأساء الرد فنهض إليه السلطان يعقوب في جموع بني مرين وعساكر المغرب فخام عن اللقاء واعتصم بالأسوار فزحف إليه السلطان يعقوب وحاصره أياماً ثم سار في الجهات والنواحي يحطم الزروع وينسف الأقوات وعجز أبو دبوس عن مدافعته فاستجاش عليه بيغمراسن بن زيان ليفت في عضده ويشغله عما أمامه بما وراءه فكان ما نذكره.

وقعة تلاغ بين يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان

لما نزل السلطان يعقوب حضرة مراكش وربض على ترائبه للتوثب عليها لم يجد أبو دبوس ملجأ من دون الاستظهار عليه بيغمراسن بن زيان ليأخذ بحجزته عنها فبعث إليه بالصريخ في ذلك وأكد العهد وأسنى الهدية فشمر يغمراسن لاستنقاذه وجذب السلطان يعقوب عنه من خلفه بشن الغارات على ثغور المغرب وإيقاد نار الفتنة بها، فهاج عليه من السلطان يعقوب ليث عادياً وأرهف منه حدّاً ماضياً فأفرج للوقت عن مراكش ورجع عوده على بدئه يريد تلمسان وصاحبها يغمراسن بن زيان فنزل فاساً وتلوم بها أياماً حتى أخذ أهبة الحرب وعدة النزال ثم نهض إلى تلمسان منتصف محرم سنة ست وستين وستمائة وسلك على أكرسيف ثم على تافرطاست.

وتزاحف الفريقان بوادي تلاغ وعبأ كل منهما كتائبه ورتب مصافه وبرز النساء في القباب سافرات على سبيل التحريش والتحريض والتحم القتال وطال القراع والنزال، ولما فاء الفيء ومال النهار وكثرت حشود بني مرين جموع بني عبد الواد ومن إليهم انكشفوا ومنحوا العدو أكتافهم وهلك في الحومة أبو حفص عمر بن يغمراسن بن زيان وكان كبير أولاده وولي عهده وهلك معه جماعة من عشيرته، ولما انهزم بنو عبد الواد بقي يغمراسن في ساقتهم حامياً لهم من بني مرين أن تركبهم من خلفهم فكان ردءاً لهم إلى أن وصلوا إلى بلادهم، وكانت وقعة تلاغ يوم الاثنين الثاني عشر من جمادى الأخيرة من السنة المذكورة ورجع السلطان يعقوب إلى مكانه من حصار مراكش والله غالب على أمره.

فتح حضرة مراكش ومقتل أبي دبوس وانقراض دولة الموحدين بها

لما قفل السلطان يعقوب من حرب يغمراسن صرف عزمه إلى غزو مراكش والعود إلى حصارها كما كان أول مرة فنهض إليها من فاس في شعبان سنة ست وستين وستمائة ولما عبروا وادي أم الربيع بث السرايا وشن الغارات وأطلق الأعنة والأيدي للنهب والعيث فحطموا زروعها وانتسفوا آثارها وتقرى نواحيها كذلك بقية عامه، ثم غزا عرب الخلط من جشم بتادلا فأثخن فيهم واستباحهم، ثم نزل وادي العبيد فأقام هنالك أياماً ثم غزا بلاد صنهاجة فاستباحها ولم يزل ينقل ركابه في أحواز مراكش ويجوس خلالها إلى آخر ذي القعدة من سنة سبع وستين وستمائة فاجتمع أشياخ القبائل من العرب والمصامدة عند أبي دبوس وقالوا له: «يا مولانا كم تقعد عن حرب بني مرين وقد ترى ما نزل بنا في حريمنا وأموالنا منهم فاخرج بنا إليهم لعل الله يجعله سبب الفتح فإنهم قليلون وجمهورهم وذوو الشوكة منهم قد بقوا

برباط تازا لحراسة ذلك الثغر من بني عبد الواد ولم يزالوا يفتلون له في الذورة والغارب حتى أجابهم إلى رأيهم فاستعد للحرب وبرز من حضرة مراكش في جيوش ضخمة وجموع وافرة، فاستجره السلطان يعقوب بالفرار أمامه ليبعد عن مدد الصريخ فيستمكن منه، فلم يزل أبو دبوس يسعى خلفه حتى نزل ودغفوا فحينئذٍ كر عليه السلطان يعقوب فالتحمت الحرب واختل مصاف أبي دبوس وفر يسابق إلى مراكش وأين منه مراكش فأدركته الخيول وحطمته الرماح فخر صريعاً واحتز رأسه وجيء به إلى السلطان يعقوب فسجد شكراً لله تعالى وذلك يوم الأحد ثاني محرم سنة ثمان وستين وستمائة، ثم تقدم السلطان يعقوب نحو مراكش وفر من كان بها من الموحدين إلى تينملل وبايعوا إسحاق أخا المرتضى فبقي ذبالة هنالك إلى أن قبض عليه سنة أربع وسبعين وستمائة وجيء به في جماعة من قومه إلى السلطان يعقوب فقتلوا جميعاً وانقرض أمر بني عبد المؤمن والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ثم خرج الملأ وأهل الشورى من الحضرة إلى لقاء السلطان يعقوب ففرح بهم وأمنهم ووصلهم، ودخل مراكش في عسكر ضخم وموكب فخم يوم الأحد التاسع من محرم المذكور وورث ملك آل عبد المؤمن وتملاه واستوسق أمره بالمغرب وتطامن الناس لبأسه وسكنوا لظل سلطانه، وأقام بمراكش إلى رمضان من سنته ثم أغزا ابنه الأمير أبا مالك عبد الواحد بن يعقوب بلاد السوس فافتتحها وأوغل في ديارها ودوخ أقطارها ورجع إلى أبيه واستمر السلطان يعقوب بمراكش يصلح شؤونها إلى رمضان من سنة تسع وستين وستمائة فخرج بنفسه إلى بلاد درعة فأوقع بعربها الوقيعة المشهورة التي خضدت من شوكتهم ورجع لشهرين من غزاته، ثم أجمع الرحلة إلى دار ملكه بفاس فعقد على مراكش لمحمد بن علي بن يحيى من كبار أوليائهم ومن أهل خؤلته وكان من طبقة الوزراء وأنزله بقصبة مراكش وجعل المسالح في أعمالها لنظره وعهد إليه بتدويخ الأقطار ومحو آثار بني عبد المؤمن وفصل من مراكش قاصداً حضرة فاس في شوال من السنة المذكورة والله تعالى أعلم.

مراسلة السلطان أبي عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصي للسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق رحمهما الله

كانت دولة بني أبي حفص أصحاب تونس وإفريقية فرعاً من دولة بني عبد المؤمن وشعبة منها حسبما نبهنا عليه غير مرة، ولما ضعفت دولة بني عبد المؤمن بمراكش والمغرب كان صاحب إفريقية أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد الهنتاتي يأمل الاستيلاء عليها والتملك لها ويتمنى ذلك لو ساعده القدر لأنه كان يرى أنه أولى بتلك الحضرة من غيره حتى من بني عبد المؤمن لأنها أرض سلفه وموطن أصله وعشيرته لأن عمالة مراكش لم تعرف إلا للمصامدة من قديم الزمان وقبيلة هنتاتة هي صميمها وذؤابتها فبهذا ونحوه كان بنو أبي حفص يتطاولون إلى ملك مراكش، ولما نبغ بنو مرين بالمغرب وغلبوا على الكثير من ضواحيه كانوا يدعون إلى أبي زكرياء الحفصي تأليفاً لأهل المغرب واستجلاباً لمرضاتهم وإتياناً لهم من ناحية أهوائهم إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت في قلوبهم فلو دعوا إلى غيرها من أول الأمر لحاصوا عنها حيصة حمر الوحش، ولما لم يمكن بني مرين أن يدعوا إلى بني عبد المؤمن لأنهم أقتالهم وإياهم ينازعون ولهم يحاربون ويجالدون دعوا إلى طاعة الحفصيين الذين هم فرع منهم والدعوة إلى الفرع كالدعوة إلى أصله، فلم تنفر نفوس أهل المغرب عنها وإنما كان بنو مرين يسرون من ذلك حسواً في ارتغاء ولهذا لما استقل السلطان يعقوب بالأمر وتمكن له السلطان بالمغرب قطع دعوة الحفصيين حالاً بعد أن كان أولاً يدعو إليها هو وإخوته من قبله وكان بنو أبي حفص ينشطون لذلك ويهادون بني مرين ويمدونهم بالمال والسلاح وغير ذلك ولما عزم السلطان يعقوب على منازلة مراكش كتب إلى أبي عبد الله محمد المستنصر بالله بن أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص يخبره بذلك ويستمده حتى

كأنه نائب عنه لا غير وأرسل بكتابه مع ابن أخيه عامر بن إدريس بن عبد الحق في جماعة من وجوه دولته فأكرم المستنصر وفادتهم، ثم لما فتح السلطان يعقوب مراكش واستولى عليها بعث إليه المستنصر بهدية فيها من أصناف الخيل الجياد والسلاح والثياب الرفيعة ما اختاره واستحسنه وبعث بذلك مع جماعة من وجوه دولته أيضاً وفيهم الكاتب أبو عبد الله محمد الكناني فتلطف الكاتب المذكور في ذكر المستنصر على منبر مراكش حتى تم له ذلك بمحضر وفد الموحدين فعظم سرورهم وانقلبوا إلى صاحبهم بالخبر واتصلت المودة والمهاداة بين المستنصر والسلطان يعقوب سائر أيامهم، ولما هلك المستنصر وبويع ابنه أبو زكرياء يحيى المدعو بالواثق اقتفى سنن أبيه في ذلك فبعث إلى السلطان يعقوب بهدية حافلة مع قاضي بجاية أبي العباس الغماري سنة سبع وسبعين وستمائة فعظم موقعها من السلطان يعقوب وكان لأبي العباس الغماري هذا بالمغرب ذكر تحدث الناس به دهراً وقطع السلطان يعقوب لأول أمره الدعوة إلى الحفصيين كما قلنا والله تعالى أعلم.

عقد السلطان يعقوب ولاية العهد لابنه أبي مالك بسلا وما نشأ عن ذلك من خروج قرابته عليه

كان السلطان يعقوب حين خرج من مراكش بعد فتحها قاصداً حضرة فاس دار ملك بني مرين اجتاز بمدينة سلا فأراح بها أياماً فطرقه مرض وعك منه وعكاً شديداً، فلما أبل من مرضه جمع قومه وعقد العهد لأكبر أولاده أبي مالك عبد الواحد بن يعقوب لما علم من أهليته لذلك وأخذ له البيعة عليهم جميعاً فأعطوها طواعية وعز ذلك على القرابة من بني عبد الحق وهم أولاد سوط النساء بنو إدريس بن عبد الحق وبنو عبد الله بن عبد الحق وبنو رحو بن عبد الحق وإنما قيل لهم أولاد سوط النساء لأن هؤلاء الثلاثة من بني عبد الحق كانوا أشقاء أمهم اسمها سوط النساء، فلما بايع السلطان

يعقوب لابنه أبي مالك بولاية العهد آسفهم ذلك لأنهم كانوا يرون أنهم أحق بالأمر حسبما سلف فارتدوا على أعقابهم وقلبوا لعمهم ظهر المجن وعادت هيف إلى أديانها وأسروا من ليلتهم من سلا ولم يصبحوا إلا بجبل علودان من بلاد غمارة عش خلافهم ومدرج فتنتهم وكان ذلك في عيد الفطر من سنة تسع وستين وستمائة وانضم إليهم بنو أبي عياد بن عبد الحق وشايعوهم على رأيهم، فخرج السلطان يعقوب في أثرهم وقدم بين يديه ابنه الأمير يوسف بن يعقوب في خمسة آلاف فأحاط بهم وأخذ بمخنقهم ولحق به أخوه أبو مالك في عسكره ومعه مسعود بن كانون شيخ سفيان ثم لحق بهم السلطان يعقوب في عساكره فحاصروهم ثلاثة ولما رأوا أن قد أحيط بهم سألوا الأمان فبذله لهم وأنزلهم ومسح صدورهم واسترضاهم واستل سخائمهم ووصل بهم إلى حضرته فسألوا منه الإذن في اللحاق بتلمسان حياء مما ارتكبوه من الخلاف فأذن لهم فأجازوا البحر إلى الأندلس وخالفهم عامر بن إدريس لما آنس من ميل عمه إليه فبقي بتلمسان حتى توثق لنفسه بالعهد وعاد إلى قومه بعد منازلة السلطان يعقوب لتلمسان حسبما نذكره عن قريب.

قال ابن خلدون: «واحتل هؤلاء القرابة من بني عبد الحق بأرض الأندلس على حين أقفر من الحامية جوها واستأسد العدو علىَ ثغورها وتحلبت شفاهه لالتهامها، فتبوءوها أسوداً ضارية وسيوفاً ماضية معودين لقاء الأبطال وقراع الحتوف والنزال مستغلظين بخشونة البداوة وصرامة العز وبسالة التوحش فعظمت نكايتهم في العدو واعترضوا في صدره سجى دون الوطن الذي كان طعمة له في ظنه وارتدوه على عقبه ونشطوا من همم المسلمين المستضعفين وراء البحر وبسطوا من آمالهم لمدافعة طاغيتهم وزاحموا أمير الأندلس في رياستها بمنكب قوي فتجافى لهم عن خطة الحرب ورياسة الغزاة من أهل العدوة من أعياصهم وغيرهم من أمم البربر وثافنوه في مستقر عزه وساهموه، في الجباية بفرض العطاء والديوان فبذله لهم واستعدوا على العدو وحسن أثرهم فيه حسبما تلمع بالبعض من ذلك إن شاء الله.

هجوم النصارى على العرائش وتيشمس من ثغور المغرب

لما كان المحرم من سنة ثمان وستين وستمائة هجم النصارى على مدينة العرائش وتيشمس من ثغور العدوة المغربية فقتلوا رجالها وسبوا نساءها وانتهبوا أموالها وأضرموها ناراً ورجعوا عودهم على بدءهم فركبوا أجفانهم ولحقوا ببلادهم ولم تنلهم شوكة السلطان يعقوب لأنه كان مشغولاً بفتح مراكش في التاريخ المذكور ولم يبين في القرطاس هؤلاء النصارى من هم.

وقعة إيسلي بين السلطان يعقوب ابن عبد الحق ويغمراسن بن زيان

لما أنعم الله على السلطان يعقوب بامتداد ظل ملكه في أقطار المغرب ونواحيه ونفوذ كلمته في حواضره وبواديه وتمم له الصنع بفتح مراكش ووراثة كرسي بني عبد المؤمن بها وعاد إلى فاس كما قلنا تحرك ما كان في نفسه من ضغائن يغمراسن بن زيان وما آسفه به من تخذيل عزائمه ومجاذبته عن قصده ورأى أن وقعة تلاغ لم تشف صدره ولا أطفأت نار موجدته فأجمع أمره لغزوه ونشطه لذلك ما صار إليه من الملك وسعة السلطان، فحشد جميع أهل المغرب وعزم على استئصاله وقطع دابره فعسكر بفاس وبعث ولده أبا مالك إلى مراكش في جماعة من خواصه حاشرين في مدائنها وضواحيها، فاجتمع عليه من قبائل العرب والمصامدة وصنهاجة وبقايا عساكر الموحدين بالحضرة وحامية الأمصار من جند الفرنج وناشبة الغزو، استكثر من ذلك كله واحتفل السلطان يعقوب بفاس كذلك، ثم نهض منها غرة صفر سنة سبعين وستمائة فسار حتى نزل وادي ملوية فأقام عليه أياماً حتى لحقه ابنه أبو مالك في جموعه وتوافت لديه أمداد العرب من قبائل جشم أهل تامسنا الذين هم سفيان والخلط والعاصم وبنو جابر ومن معهم من الأثبج وقبائل ذوي حسان والشبانات من معقل أهل السوس الأقصى وقبائل رياح أهل أزغار وبلاد الهبط، فعرض هنالك عساكره وميزها ورتبها فيقال إنها بلغت ثلاثين ألفاً

وارتحل يريد تلمسان.

ولما انتهى إلى أنكاد قدمت عليه رسل ابن الأحمر ووفد أهل الأندلس يستصرخونه على العدو ويسألونه الإعانة والنصر ويخبرونه بأنه قد كلب عليهم وشره لالتهام بلادهم فتحركت همته رحمه الله للجهاد ونصر المسلمين وإغاثة المستضعفين منهم، ونظر في صرف الشواغل عن ذلك وجنح للسلم مع يغمراسن وعزم عليها واستشار الملأ من أشياخ العرب، وبني مرين في ذلك فصوبوا رأيه لما كانوا عليه أيضاً من إيثار الجهاد ومحبته، فبعث السلطان يعقوب جماعة من أشياخ القبائل إلى يغمراسن يدعونه إلى الصلح واجتماع الكلمة وقال لهم في جملة قوله: «إن الصلح خير كله فإن جنح يغمراسن إليه وأناب فذاك وإلا فأسرعوا إليّ بالخبر» فسار الأشياخ إلى يغمراسن فوافوه بظاهر تلمسان وقد أخذ أهبته واستعد للقاء وحشد قبائل زناتة المجاورين له في تلك البلاد من بني عبد الواد وبني راشد وأحلافهم ومغراوة من عرب بني زغبة فبلغوه الرسالة وعرضوا عليه مقالة السلطان يعقوب فأبى واستكبر وصم عن سماع قولهم وموعظتهم وقال: «أبعد مقتل ولدي أصالحه، والله لا كان ذلك أبداً حتى أثأر به وأذيق أهل المغرب النكال من أجله» فرجعت الرسل إلى السلطان يعقوب بالخبر، وتزاحف الفريقان فكان اللقاء على وادي ايسلي من بسيط وجدة وعبأ السلطان يعقوب كتائبه ورتب مصافه وجعل ابنه عبد الواحد في الميمنة وابنه يوسف في الميسرة ووقف هو في القلب، ودارت بينهم رحى الحرب وركدت ملّياً وهلك في الحومة أبو عنان فارس بن يغمراسن بن زيان في جماعة من بني عبد الواد، وهلك عامة عسكر الفرنج الذين كانوا معهم لثباتهم بثبات يغمراسن فطحنتهم رحى الحرب وتقبض على قائدهم برنيس وانهزم الباقون، ونجا يغمراسن في فله حامياً لهم ومدافعاً عنهم من خلفهم، ومر في هزيمته بفساطيطه فأضرمها ناراً تفادياً من حصرة استيلاء العدو عليها وانتهبت بنو مرين باقي معسكره واستبيحت حرمه وارتحل السلطان يعقوب من الغد في أثره حتى إذا انتهى إلى وجدة وقف عليها فأمر بهدمها فتسارعت أيدي الجند إليها وجعلوا عاليها

سافلها وألصقوا بالرغام جدرانها وتركوها قاعاً صفصفاً، وكانت هذه الوقعة منتصف رجب من سنة سبعين وستمائة.

ثم تقدم إلى تلمسان فنزل عليها وحاصرها أياماً وأطلق الأيدي في ساحتها بالنهب والعيث ثم شن الغارات على البسائط فاكتسحها سبياً ونسفها نسفاً وهلك في طريقه إلى تلمسان وزيره عيسى بن ماساي وكان من علية وزرائه وحماة ميدانه وله في ذلك أخبار مذكورة، وكان مهلكه في شوال من السنة المذكورة وقدم عليه وهو محاصر لتلمسان الأمير أبو زيان محمد بن عبد القوي بن العباس بن عطية كبير بني توجين من زناتة في جيش كثيف من قومه مباهياً ببنوده وطبوله وآلة حربه، وكان قدومه هذا بقصد مظاهرة السلطان يعقوب على يغمراسن وتلمسان لعداوة كانت بينهما فأكرم السلطان يعقوب وفادته واستركب الناس للقائه واتخذ رتبة السلاح لمباهاته واستمر الحصار على تلمسان، وعظمت نكاية بني توجين فيها بتخريب الرباع وانتساف الجنات وقطع الثمار وإفساد الزرع وتحريق القرى والضياع لما كان يغمراسن يعاملهم في بلادهم بمثل ذلك أو أكثر، ولما امتنعت تلمسان على السلطان يعقوب وأيس من فتحها لحصانتها واشتداد شوكة حاميتها عزم على الإفراج عنها وأشار على الأمير محمد بن عبد القوي بالقفول إلى مأمنه قبل أن ينهض هو عن تلمسان.ووصله وقومه وملأ حقائبهم من التحف وجنب لهم مائة من الخيل المقربات الجياد بمراكبها وأراح عليهم ألف ناقة حلوب وعمهم بالخلع الفاخرة والصلات الوافرة واستكثر لهم من السلاح والفازات والفساطيط وحملهم على الظهر وارتحلوا إلى منجاتهم ومقرهم من جبل وانشريس، وتلوم السلطان يعقوب عليهم أياماً ريثما وصلوا حذراً عليهم من يغمراسن أن ينتهز الفرصة في اتباعهم، ثم أقلع السلطان عن تلمسان وثنى عنانه إلى المغرب فوصل إلى رباط تازا في أول يوم من ذي الحجة من السنة المذكورة فعيد بها عيد النحر ثم ارتحل إلى فاس فدخلها فاتح سنة إحدى وسبعين وستمائة فأقام بها إلى اليوم الحادي عشر من صفر فتوفي ولده وولي عهده الأمير أبو مالك عبد الواحد بن يعقوب فأسف لفقده ثم

صبر واحتسب ثم نهض[1] إلى مراكش فدخلها أوائل ربيع الثاني من السنة المذكورة فأقام بها شهراً حتى أصلح من شأنها ثم نهض إلى طنجة وسبتة على ما نذكره.

فتح طنجة وسبتة وما كان من أمر العزفي بهما

قد تقدم لنا في دولة أبي حفص عمر المرتضى أن الفقيه أبا القاسم العزفي استبد عليه بسبتة وتوارث ذلك بنوه من بعده وكان هؤلاء العزفيون من بيوتات سبتة وأهل الرياسة والعلم والدين فيهم، ولما ضعف أمر بني عبد المؤمن بالمغرب استقل الفقيه أبو القاسم بن أبي العباس العزفي برياستها وضبطها وانتظم في طاعته سائر أعمالها، ولما كانت سنة ثلاث وستين وستمائة بعث الفقيه المذكور أجفانه إلى مدينة أصيلا فهدموا أسوارها ونقضوا قصبتها لأنه خاف عليها من خلائها أن يملكها العدو ويتمنع بها، واستمرت أموره في سبتة ونواحيها على الشداد وكانت طنجة تالية لسبتة في سائر أحوالها وكانتا معاً من أحصن بلاد المغرب فدخل صاحب طنجة وهو أبو الحجاج يوسف بن محمد الهمداني المعروف بابن الأمير في طاعة أبي القاسم المذكور، ثم انتقض عليه لمضي سنة من طاعته واستبد وخطب لابن أبي حفص صاحب إفريقية ثم للخليفة العباسي صاحب بغداد ثم لنفسه، وسلك في طنجة مسلك العزفي في سبتة ولبثوا على ذلك ما شاء الله، حتى إذا ملك بنو مرين المغرب وافتتحوا معاقله وحصونه وهلك الأمير أبو بكر بن عبد الحق وابنه أبو حفص عمر من بعده فتحيز بنوه في اتباعهم وحشمهم إلى ناحية طنجة وأصيلا فأوطنوا

---

(1) قال في الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ما نصه: فلما انقضى شهر صفر الذي توفي فيه له ولده أبو مالك ارتحل أمير المسلمين إلى حضرة مراكش فوصل إلى رباط الفتح في الثاني عشر من ربيع الأول فأخذ البيعة لولده الأمير أبي يعقوب على بني مرين بولاية العهد بها لولده الأمير أبي يعقوب ثم سار إلى مراكش فدخلها في نصف ربيع الآخر فقعد بها أياماً ثم ارتحل إلى بلاد السوس الخ... وهذا خلاف ما عند المؤلف هنا فراجع ذلك ص 154 طبع الجزائر.

ضاحيتها وعاثوا في نواحيها وضيقوا على أهل طنجة حتى شارطهم ابن الأمير على خراج معلوم على أن يكفوا الأذية ويحموا الحوزة ويصلحوا السابلة فاتصلت يده بيدهم وترددوا إلى البلد لاقتضاء حاجاتهم، ثم مكروا وأضمروا الغدر فدخلوا في بعض الأيام متأبطين السلاح وفتكوا بابن الأمير غيلة، فثارت بهم عامة أهل طنجة واستلحموهم لحينهم في مصرع واحد سنة خمس وستين وستمائة، واجتمعوا على ولده فبايعوه وبقيت في ملكته خمسة أشهر. ثم استولى عليها أبو القاسم العزفي فنهض إليها بعساكره من الرجل برّاً وبحراً وملكها وفر ابن الأمير فلحق بتونس ونزل على المستنصر الحفصي واستقرت طنجة في إيالة العزفي فضبطها وقام بأمرها وولي عليها من قبله وأشرك الملأ من أشرافها في الشورى.

ولما استولى السلطان يعقوب على حضرة مراكش ومحا دولة آل عبد المؤمن منها وفرغ من أمر عدوه يغمراسن هم بتلك الناحية وأحب أن يضيفها إلى ما بيده ليصفو له أمر المغرب الأقصى كله فنهض إلى طنجة ونازلها مفتتح اثنتين وسبعين وستمائة لأنها كانت في البسيط دون سبتة فكان أمرها أسهل فحاصرها نحو ثلاثة أشهر فامتنعت عليه ويئس منها وعزم على الإفراج عنها فبينما هو يقاتل في عشي اليوم الذي عزم على النهوض في غده إذا بجماعة من رماتها قاموا على برج ورفعوا لواء أبيض ونادوا بشعار بني مرين، وذلك لخلاف وقع بينهم داخل البلد فتسارع الجند إليهم فملكوهم البرج فتسوروا إليه الحيطان وقاتلوا عليه سائر ليلتهم إلى الصباح ثم تكاثرت جيوش بني مرين واقتحموا البلد عنوة ونادى منادي السلطان يعقوب بالأمان فلم يهلك من أهلها إلا نفر يسير ممن رفع يده للقتال وشهر السلاح ساعة الدخول، وكان ذلك في ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وستمائة، ولما فرغ السلطان يعقوب من طنجة بعث ولده الأمير يوسف إلى سبتة فحاصر بها العزفي أياماً ثم لاذ بالطاعة على أن يبقى ممتنعاً بحصنه ويؤدي للسلطان خراجاً معلوماً كل سنة فقبل السلطان منه ذلك وأفرجت عنه عساكره وعاد إلى فاس والله غالب على أمره.

فتح سجلماسة وما كان من أمرها

قد ذكرنا ما كان من استيلاء الأمير أبي بكر بن عبد الحق على سجلماسة ودرعة وأنه عقد على مسلحتها لأبي يحيى القطراني الذي كان السبب في فتحها عليه، ولما هلك الأمير أبو بكر استبد القطراني المذكور بسجلماسة ثم غلبه عليها المرتضى وقتل القطراني بواسطة القاضي ابن حجاج حسبما تقدم ذلك كله ثم غلب عليها بعد حين يغمراسن بن زيان بواسطة عرب المنبات من بني معقل أهل الصحراء وعقد عليها لعبد الملك بن محمد العبد الوادي المعروف بابن حنينة نسبة إلى أمه وهي أخت يغمراسن بن زيان ولما فتح السلطان يعقوب بلاد المغرب وانتظمها في ملكته وجه عزمه إلى افتتاح سجلماسة وانتزاعها من أيدي بني عبد الواد المتغلبين عليها فنهض إليها في رجب سنة اثنتين وسبعين وستمائة في جموع بني مرين وقبائل المغرب من العرب والبربر، ونازلها ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وغير ذلك.

قال ابن خلدون: «ونصب عليها هندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة بارئها» اهـ كلامه. قلت وفيه فائدة: أن البارود كان موجوداً في ذلك التاريخ وأن الناس كانوا يقاتلون به ويستعملونه في محاصراتهم وحروبهم يومئذٍ وفيه رد لما نقله أبو زيد الفاسي في شرح منظومته الموضوعة في العمل الجاري بفاس قال: «كان حدوث البارود سنة ثمان وستين وسبعمائة حسبما ذكره بعضهم في تأليف له في الجهاد وأنه استخرجه حكيم كان يعمل الكيمياء ففرقع له فأعاده فأعجبه فاستخرج منه هذا البارود» اهـ. وصرح الشيخ أبو عبد الله بناني في حاشيته، على مختصر الشيخ خليل بأن حدوثه كان في وسط المائة الثامنة وهو غير صواب لما علمت من كلام ابن خلدون أنه كان موجوداً قبل ذلك بنحو مائة سنة ويغلب على ظني أن لفظ الستمائة تصحف بالسبعمائة فسرى الغلط من ذلك والله أعلم.

وأقام السلطان يعقوب على حصار سجلماسة حولاً كاملاً وكان سفهاؤها يصعدون فوق الأسوار ويعلنون بالسب والفحش إلى أن هتك المنجنيق ذات يوم طائفة من سورها فدخلت من هنالك عنوة بالسيف وعاث الجند في أهلها[1] فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية وأتى القتل على عاملها عبد الملك بن حنينة ومن كان بها من أشياخ بني عبد الواد وعرب المنبات وكان فتحها آخر صفر وقيل يوم الجمعة ثالث ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين وستمائة وكمل بفتحها للسطان يعقوب فتح بلاد المغرب وتمشت طاعته في أقطاره فلم يبق فيه أهل حصن يدينون بغير دعوته ولا جماعة تتحيز إلى غير فئته.

أخبار السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المريني في الجهاد وما كان له بالأندلس من الذكر الجميل والفخر الجزيل رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان للعدو الكافر على المسلمين في وقعة العقاب من الظهور والغلبة وأن تلك الوقعة كانت سبب ضعف المسلمين بالمغرب والأندلس واستيلاء العدو الكافر على جل ثغورها وحصونها، ولما ضعف أمر الموحدين بالمغرب استبد السادة منهم بالأندلس وصاروا إلى المنافسة فيما بينهم واستظهار بعضهم على بعض بالطاغية وإسلام حصون المسلمين إليه في سبيل تلك الفتنة فمشت رجالات الأندلس بعضهم إلى بعض وأجمعوا على إخراج الموحدين من أرضهم فثاروا بهم لوقت واحد وأخرجوهم وتولى كبر ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامي ثم من بعده محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر ونازع ابن هود الرياسة بالأندلس، ولا تسأل عما ذهب في منازعتهما من حصون المسلمين الكثيرة وبلادهم العديدة الشهيرة التي منها قرطبة وإشبيلية قاعدتا أرض الأندلس كان كل واحد من هذين الثائرين يتقرب إلى الطاغية بما غلب عليه من ذلك ليعينه على صاحبه

---

(1) الذي في الذخيرة السنية صفحة 158 أن السلطان يعقوب أمن سائر أهلها وعفا عنهم ونظر في مصالحهم ورفع مظالمهم وأصلح أحوالهم وبلادهم.

والأمر لله وحده، وانقرض أمر ابن هود عن أمد قريب واستمرت دولة ابن الأحمر في عقبه إلى آخر المائة التاسعة ولما استتب أمر ابن الأحمر بالأندلس عقد السلم مع الطاغية على أن ينزل له عن جميع بسائط عرب الأندلس فنزل له عنها أجمع ولجأ بالمسلمين إلى سيف البحر معتصمين بأوعاره ومتشبثين بمعاقله وحصونه، واختار ابن الأحمر لنزوله مدينة غرناطة واتخذها كرسي مملكته وابتنى بها لسكناه حصن الحمراء.

وكان ابن الأحمر هذا يدعى بالشيخ وكان قد عهد إلى ولده القائم من بعده محمد المعروف بالفقيه لانتحاله طلب العلم في صغره وأوصاه إذا نابه أمر من العدو أو وصل إليه مكروه أن يستنصر عليه ببني مرين ويدرأ بهم في نحره ويجعلهم وقاية بين العدو وبين المسلمين، فلما تكالب الطاغية على بلاد الأندلس بادر محمد الفقيه إلى العمل بإشارة والده وأوفد[1] مشيخة الأندلس كافة على السلطان يعقوب رحمه الله فلقيه وفدهم منصرفاً من فتح سجلماسة فتبادروا للسلام عليه وألقوا إليه كنه الخبر عن كلب العدو على المسلمين وثقل وطأته فحيا وفدهم واستبشر بمقدمهم وبادر لإجابة داعي الله وإيثار الجنة وكان السلطان يعقوب رحمه الله منذ أول أمره مؤثراً عمل الجهاد كلفاً به مختاراً له لو أعطي الخيار على سائر أعماله حتى لقد كان اعتزم على الغزو إلى الأندلس أيام أخيه الأمير أبي بكر وطلب إذنه في ذلك فلم يأذن له فكان في نفسه من ذلك شغل وله إليه صاغية، فلما قدم عليه هذا الوفد نبهوا عزيمته وأيقظوا همته فأعمل في الاحتشاد وبعث في النفير ونهض من فاس في شوال سنة ثلاث وسبعين وستمائة فوصل إلى طنجة وأقام هنالك وجهز خمسة آلاف من قومه أزاح عللهم وأجزل أعطياتهم وعقد عليهم لابنه أبي

(1) راجع نص الكتاب الذي جاء به مشيخة الأندلس من ابن الأحمر إلى السلطان يعقوب يستنهضه فيه للجهاد في كتاب الذخيرة السنية صفحة 159 طبع الجزائر.
وراجع أيضاً جواب السلطان يعقوب على كتاب ابن الأحمر في الذخيرة السنية أيضاً صفحة 162.

زيان وأعطاه الراية واستدعى من العزفي صاحب سبتة السفن لإجازتهم فوافاه بقصر المجاز منه عشرون أسطولاً فأجاز العسكر المذكور ونزل بطريف في السادس عشر من ذي القعدة من السنة المذكورة فأراح الأمير أبو زيان بطريف ثلاثاً، ثم دخل دار الحرب وتوغل فيها وأجلب على ثغورها وبسائطها وامتلأت أيديهم من المغانم وأثخنوا بالقتل والأسر وتخريب العمران ونسف الآثار حتى نزل بساحة شريش فخام حاميتها عن اللقاء وتحصنوا بالأسوار وقفل الأمير أبو زيان إلى الجزيرة الخضراء وقد امتلأت أيدي عسكره من الأموال وحقائبهم من السبي وركائبهم من السلاح والأثاث ورأى أهل الأندلس أن قد ثأروا بعام العقاب بعد أن لم تنصر لهم راية من ذلك اليوم إلى الآن والله غالب على أمره.

الجواز الأول للسلطان يعقوب إلى الأندلس برسم الجهاد

ثم اتصل الخبر بالسلطان يعقوب رحمه الله أن العدو قد أخذ في الاستعداد وعزم على الخروج إلى بلاد المسلمين فاعتزم على الغزو بنفسه، وخشي على ثغور بلاده من عادية يغمراسن صاحب تلمسان فبعث حافده تاشفين بن عبد الواحد بن يعقوب في وفد من بني مرين لعقد السلم مع يغمراسن والرجوع للاتفاق والموادعة ووضع أوزار الحرب بين المسلمين للقيام بوظيفة الجهاد فأكرم موصله وموصل قومه، وبادر إلى الإجابة والألفة وأوفد مشيخة بني عبد الواد على السلطان يعقوب لعقد السلم وبعث معهم الرسل وأسنى الهدية وجمع الله كلمة الإسلام وعظم موقع هذه السلم من السلطان يعقوب لما كان في نفسه من الميل إلى الجهاد وإيثار مبرورات الأعمال، فبث الصدقات شكراً لله تعالى على ما منحه من التفرغ لذلك، ثم استنفر الكافة واحتشد القبائل والجموع ودعا المسلمين إلى جهاد عدوهم وخاطب في ذلك سائر أهل المغرب من زناتة والعرب والموحدين والمصامدة وصنهاجة وغمارة وأوربة ومكناسة وجميع قبائل البربر من المرتزقة والمتطوعة وأهاب بهم وشرع في عبور البحر فأجازهم من فرضة قصر المجاز في صفر

سنة أربع وسبعين وستمائة واحتل بساحل طريف وكان السلطان يعقوب حين استصرخه ابن الأحمر وأوفد عليه مشايخ الأندلس اشترط عليه السلطان يعقوب النزول عن بعض الثغور بساحل الفرضة لاحتلال عساكره بها فتجافى له عن رندة وطريف.

ولما أحس الرئيس أبو محمد بن أشقيلولة بإجازة السلطان يعقوب قدم إليه الوفد من أهل مالقة ببيعتهم وصريخهم وكان أبو محمد بن أشقيلولة وأخوه أبو إسحاق من أصهار ابن الأحمر وكانا مستوليين على مالقة ووادي آش وقمارش ووقعت بينهما وبين ابن الأحمر منافسة فخرجا عن طاعته، ولما عبر السلطان يعقوب إلى الأندلس بادر أبو محمد بن أشقيلولة إليه واتصل به وأمحضه الود والنصح وسابق ابن الأحمر في ذلك ونازعه في برور مقدمه والإذعان له وربما صدرت من ابن أشقليولة في حق ابن الأحمر جفوة بمحضر السلطان يعقوب أدت إلى بعض الفساد وانصرف ابن الأحمر مغاضباً للسلطان من أجل ذلك.

ولما احتل السلطان بناحية طريف ملأت كتائبه ساحة الأرض ما بينها وبين الجزيرة الخضراء، ثم نهض إلى العدو قبل أن يسبق إليهم الخبر فدخل دار الحرب وانتهى إلى الوادي الكبير فعقد هنالك لولده الأمير يوسف على خمسة آلاف من عسكره قدمها بين يديه ثم تبعه على أثره وسرح كتائبه في البسائط وخلال المعاقل تنسف الزورع وتخطم الغروس وتخرب العمران وتنتهب الأموال وتكتسح السرح وتقتل المقاتلة وتسبي النساء والذرية حتى انتهى إلى حصن المدور وبياسة وأبدة واقتحم حصن بلمة عنوة، وأتى على سائر الحصون في طريقه فطمس معالمها واكتسح أموالها.

وقفل السلطان يعقوب رحمه الله والأرض تموج سبياً إلى أن عرس بأستجة من تخوم دار الحرب وجاءه النذير باتباع العدو آثاره لاستنقاذ أسراه واسترجاع أمواله وأن زعيم الفرنج وعظيمهم نونه خرج في طلبهم في أمم النصرانية من المحتلم إلى الشيخ فقدم السلطان الغنائم بين يديه وسرح ألفاً من الفرسان أمامها وسار يقتفيها من خلفها حتى إذا أطلت رايات العدو مر ورائهم كان

الزحف ورتب المصاف وجرد السيف وذكر اسم الله وراجعت زناتة بصائرها وعزائمها وتحركت هممها وأبلت في طاعة ربها والذب عن دينها وجاءت بما يعرف من بأسها وبلائها في مقاماتها ومواقفها فلم يكن إلا كلا ولا حتى هبت ريح النصر وظهر أمر الله وانكشفت جموع النصرانية وقتل الزعيم نونه وكان هذا اللعين زعيم النصرانية بالأندلس قد قدمه الفنش على جيوشه واستعمله على حروبه وفوض له في جميع أموره وكان النصارى قد سعدوا بطائره وتيمنوا بنقيبته لأنه لم تهزم له قط راية وكان وبالاً على بلاد الإسلام كثير الغارات عليها حتى جمع الله بينه وبين السلطان يعقوب فأراحه من تعب الحرب وكد الغارات وألحقه بأمه الهاوية، ومنح المسلمين رقاب الفرنج واستحر فيهم القتل حتى بلغت قتلاهم عدد الألوف وجمعوا من رؤوسهم مآذن أذنوا عليها لصلاتي الظهر والعصر، واستشهد من المسلمين ما يناهز الثلاثين[1] أكرمهم الله تعالى بالشهادة وآثرهم بما عنده ونصر الله حزبه وأعز أولياءه وأظهر دينه، وبدا للعدو ما لم يكن يحتسبه بمحاماة هذه العصابة عن الملة وقيامها بنصر الكلمة وبعث السلطان يعقوب رحمه الله برأس الزعيم نونه إلى ابن الأحمر فيقال إنه بعثه سرّاً إلى قومه بعد أن طيبه وأكرمه ولاية أخلصها لهم، ومداراة وانحرافاً عن السلطان يعقوب ظهرت شواهد ذلك عليه بعد حين.

واعلم أن هذا الزعيم يسميه كثير من المؤرخين دون نونه ولفظة دون معناها في لسانهم السيد أو العظيم أو ما أشبه ذلك فلذا أسقطناها.

وقفل السلطان يعقوب من غزاته هذه إلى الجزيرة الخضراء منتصف ربيع من السنة المذكورة فقسم في المجاهدين الغنائم وما نفلوه من أموال عدوهم وسباياهم وأسراهم وكراعهم بعد الاستئثار بالخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرفه في مصارفه، ويقال كان مبلغ الغنائم في هذه الغزاة مائة ألف من البقر وأربعة وعشرين ألفاً من السبي ومن الأسارى سبعة آلاف وثمانمائة وثلاثون ومن الكراع أربعة عشر ألفاً وستمائة، وأما الغنم فاتسعت عن الحصر

---

(1) ذكر في الذخيرة السنية أن عددهم أربعة وعشرون صفحة 173 طبع الجزائر.

كثرة حتى لقد زعموا أنه قد بيعت الشاة الواحدة بدرهم وكذلك السلاح.

وأقام السلطان يعقوب بالجزيرة أياماً ثم نهض في جمادى الأولى من السنة المذكورة غازياً إشبيلية فجاس خلالها وتقرى نواحيها وأقطارها وأثخن بالقتل والنهب في جهاتها وعاث في عمرانها وأوغل في مسيره حتى وقف على بابها وزعقت طبوله في جوها وخفقت ألويته على جنباتها ولجأت الفرنج إلى الأسوار واعتمدوا على الحصار ولم يخرج إليه منهم أحد، ثم ارتحل إلى شريش فأذاقها من وبال العيث والاكتساح مثل ذلك أو أكثر ورجع إلى الجزيرة لشهرين من غزاته فبيعت الفرنجية من سبيه بها بمثقال ونصف لكثرة السبي حينئذٍ[1].

ودخل فصل الشتاء فنظر السلطان يعقوب في اختطاط مدينة بفرضة المجاز من العدوة لنزول عسكره منتبذاً عن الرعية لما يلحقهم من ضرر العسكر وجفائهم وتخير لها مكاناً ملاصقاً للجزيرة فأوعز ببناء المدينة المشهورة بالبنية، ثم أجاز البحر إلى المغرب في رجب من سنته أعني سنة أربع وسبعين وستمائة فكان مغيبه وراء البحر ستة أشهر واحتل بقصر مصمودة وأمر ببناء السور على باديس مرفأ السفن ومحل العبور من بلاد غمارة ثم رحل إلى فاس فدخلها في النصف من شعبان من السنة المذكورة.

فتح جبل تينملل ونبش قبور بني عبد المؤمن على يد الملياني عفا الله عنه

قد تقدم لنا أن جبل تنيملل كان حصناً للموحدين وملجأ لهم إذا نابهم مكروه وكان مسجده مزاراً عظيماً لهم لأنه مدفن إمامهم وملحد خلفائهم فكانوا يعكفون عليه ويلتمسون بركة زيارته ويقدمون ذلك بين يدي غزواتهم

(1) ذكر في الذخيرة السنية أن السلطان يعقوب كتب بهذا الفتح لبلاد العدوة وقرىء كتابه على المنابر وكذلك كتب الفقيه أبو القاسم العزفي رسالة إلى فقهاء المغرب وصلحائه بشرح هذه الغزاة فانظرها هناك صفحة 175 طبع الجزائر.

قربة يتقربون بها إلى الله تعالى، ولما استولى السلطان يعقوب على مراكش فر من كان بها من الموحدين إلى الجبل المذكور واعتصموا به وبايعوا إسحاق أخا المرتضى وأملوا منه رجع الكرة وإدالة الدولة واستمر الحال على ذلك إلى هذه السنة فنهض عامل مراكش من قبل السلطان يعقوب وهو محمد بن علي بن محلي أحد خؤلته ونازل الجبل المذكور وحاصره مدة ثم اقتحمه عنوة وافتض عذرته وفك ختامه وتقبض على خليفة الموحدين إسحاق وابن عمه السيد أبي سعيد بن أبي الربيع ومن معهما من الأولياء وجنبوا إلى مصارعهم بباب الشريعة من مراكش فضربت أعناقهم وصلبت أشلاؤهم وكان فيمن قتل منهم الكاتب القبائلي وأولاده.

وعاثت عساكر بني مرين في جبل تينملل واكتسحوا أمواله ونبشوا قبور خلفاء بني عبد المؤمن واستخرجوا أشلاءهم وكان فيها شلو يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور فقطعت رؤوسهم وتولى كبر ذلك أبو علي بن أحمد الملياني، كان أبو علي هذا ثار على الحفصيين بمدينة مليانة فجهزوا إليه عساكره وأجهضوه عنها ففر إلى السلطان يعقوب فقبله وآواه وأقطعه بلد أغمات إكراماً له، فحضر هذه الوقعة في جملة العسكر وارتكب هذا الفعل الشنيع ورأى أنه قد شفى نفسه باستخراج هؤلاء الخلائق من أرماسهم والعبث بأشلائهم وقد أنكر الناس عامة والسلطان يعقوب خاصة هذه الفعلة منه ولم يرضوها ومع ذلك فقد تجاوز له السلطان يعقوب عنها تأنيساً لغربته ورعياً لجواره ولما توفي السلطان يعقوب وولي بعده ابنه يوسف سعى إليه في الملياني هذا فنبكه على ما نذكره إن شاء الله.

ولما وصل السلطان يعقوب من غزوته إلى فاس انتقض عليه طلحة بن محلي أحد أخواله وتمنع بجبل آصروا من بلاد فازاز فسار إليه السلطان يعقوب وحاصره به فأناب إلى الطاعة ونزل على الأمان[1] وذلك في منتصف

---

(1) وطلب من السلطان أن يبيح له التوجه إلى المشرق وأداء فريضة الحج وأسعفه ووصله بمال جليل وخيل عتاق وما يحتاج إليه. الذخيرة السنية صفحة 186 طبع الجزائر.

رمضان سنة أربع وسبعين وستمائة وفي ثاني يوم من شوال من هذه السنة ثارت العامة باليهود بفاس بسبب حدث أحدثوه فقتلوا منهم أربعة عشر يهودياً ولولا أن السلطان ركب بنفسه ورد العامة عنهم لكانت إياها.

بناء المدينة البيضاء المسماة اليوم بفاس الجديد

لما فتح جبل تينملل ومحيت منه بقية آل عبد المؤمن وتمهد ملك المغرب للسلطان يعقوب واستفحل أمره وكثرت غاشيته رأى أن يختط بلداً ينسب إليه ويتميز بسكناه وينزل فيه بحاشيته وأوليائه الحاملين لسرير ملكه، فأمر ببناء المدينة البيضاء ملاصقة لمدينة فاس على ضفة واديها المخترق لها من جهة أعلاه وشرع في تأسيسها ثالث شوال من سنة أربع وسبعين وستمائة، وركب السلطان بنفسه فوقف عليها حتى خطت مساحتها وأسست جدرانها وجمع الأيدي عليها وحشر الصناع والعملة لبنائها وأحضر لها أهل النجامة والمعدلين لحركات الكواكب فاختاروا لها من الطوالع ما يرضون أثره ويحمدون سيره وأسست فيه وكان في أولائك المعدلين إمامان شهيران أبو الحسن بن القطان[1]، وأبو عبد الله بن الحباك المقدمان في الصناعة فكمل تشييد هذه المدينة على ما رسم رحمه الله وكما رضي، ونزلها بحاشيته وذويه سنة أربع وسبعين المذكورة، واختط الناس بها الدور والمنازل وأجريت فيها المياه إلى القصور، وكانت من أعظم آثار هذه الدولة وأبقاها على الأيام.

قال ابن أبي زرع: ومن سعادة طالعها أنه لا يموت فيها خليفة ولم يخرج منها لواء قط إلا كان منصوراً ولا جيش إلا كان ظافراً.

ثم أمر رحمه الله ببناء قصبة مكناسة فشرع في بنائها وبناء جامعها في السنة المذكورة ثم استوزر صنيعته أبا سالم فتح الله السدراتي وأجرى له رزق الوزارة على عادتهم.

ثم كافأ يغمراسن بن زيان على هديته التي كان بعث بها إليه قبل إجازته

---

(1) في الذخيرة السنية بدل ابن القطان أبو الربيع سليمان الغياش صفحة 187 طبع الجزائر.

إلى الأندلس فبعث إليه فسطاطاً رائقاً كان صنع له بمراكش وثلاثين من البغال الفارهة ذكراناً وإناثاً وغير ذلك مما يباهي به ملوك المغرب.

وفي سنة خمس وسبعين وستمائة أهدى إليه الأمير محمد بن عبد القوي التوجيني صاحب جبل وانشريس أربعة من الجياد انتقاها من خيل المغرب كافة ورأى أنها على قلة عددها أحفل هدية وفي نفسه أثناء هذا كله من أمر الجهاد شغل شاغل يتخطى إليه سائرِ أعماله حسبما نذكره إن شاء الله.

الجواز الثاني للسلطان يعقوب إلى الأندلس برسم الجهاد

لما قفل السلطان يعقوب من غزوته الأولى واستنزل الخوارج وثقف الثغور وهادى الملوك واختط المدينة البيضاء لنزوله كما ذكرنا، خرج فاتح سنة خمس وسبعين وستمائة إلى جهة مراكش لسد ثغورها وتثقيف أطرافها وتوغل في أرض السوس وبعث وزيره فتح الله السدراتي في العساكر فجاس خلالها ثم انكفأ راجعاً وهناك خاطب السلطان يعقوب رحمه الله قبائل المغرب كافة بالنفير إلى الجهاد فتثاقلوا عليه فلم يزل يحرضهم وهم يسوفون إلى أن دخلت سنة ست وسبعين بعدها، ولما رأى تثاقل الناس عليه نهض إلى رباط الفتح وتلوم به أياماً في انتظار الغزاة فأبطؤوا عليه فخف في خاصته وتقدم في حاشيته حتى انتهى إلى قصر المجاز، وقد تلاحق به الناس من كل جهة لما رأوا من عزمه وتصميمه فأجاز بهم البحر واحتل بطريف آخر محرم من السنة المذكورة، ثم ارتحل إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى رندة، فوافاه بها الرئيسان أبو محمد عبد الله بن أبي الحسن علي بن اشقيلولة صاحب مالقة وأخوه أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الحسن برسم الجهاد معه.

ثم ارتحل السلطان من رندة فاتح ربيع الأول من السنة المذكورة حتى انتهى إلى إشبيلية فعرس عليها يوم المولد النبوي وكان بها يومئذٍ ملك الجلالقة ابن أذفونش فلم يجد بدّاً من الخروج إليه بعد أن خام عن اللقاء أولاً فبرز في جموعه وصفها على ضفة الوادي الكبير من ناحية السلطان وأظهر من أبهة الحرب ما قدر عليه فكانت جيوشه كلها في الدروع السوابغ والبيض اللوامع

والسيوف البواتر وغير ذلك من آلات الحرب التي يكاد شعاعها يدهش البصر وزحف إليه السلطان يعقوب رحمه الله بعد أن صلى ركعتين ودعا الله تعالى ووعظ الناس وذكرهم فرتب مصافه وجعل ولده الأمير يوسف في المقدمة وزحف على التعبية فاقتتلوا ملياً، ثم انهزمت الفرنج فتساقط بعضهم في الوادي وانحدر آخرون مع ضفته وتصاعد آخرون كذلك واقتحم المسلمون عليهم وسط الماء وقتلوهم في لجته حتى صار الماء أحمر وطفت جيفهم من الغد عليه فكان فيهم عبرة لمن اعتبر، وبات السلطان والمسلمون تلك الليلة على صهوات خيولهم يقتلون ويأسرون وأضرموا النيران بساحة إشبيلية حتى صار الليل نهاراً وباتت الفرنج على الأسوار ينفخون في القرون ويحترسون طول ليلتهم.

ثم ارتحل السلطان من الغد إلي جبل الشرف وبث السرايا في نواحيه فلم يزل يتقرى تلك الجهات حتى أباد عمرانها وطمس معالمها ودخل حصن قطنيانة وحصن جليانة وحصن القليعة عنوة وأثخن في القتل والسبي ثم ارتحل بالغنائم والأثقال إلى الجزيرة الخضراء فدخلها في الثامن والعشرين من ربيع الأول المذكور فأراح بها وقسم الغنائم في المجاهدين ثم خرج غازياً مدينة شريش منتصف ربيع الآخر فنازلها وأذاقها نكال الحرب ووبال الحصار وقطع الزياتين والأعناب وسائر الأشجار وأباد خضراءها وحرق ديارها وأثخن فيها بالقتل والأسر وكان السلطان يعقوب يباشر قطع الشجر والثمر بيده وسرح ولده الأمير يوسف من معسكره في سرية للغارة على إشبيلية وحصون الوادي الكبير فبالغ في النكاية واكتسح حصن روطة وشلوقة وغليانة والقناطر ثم صبح إشبيلية فاكتسحها وانكفأ راجعاً بالمغانم والسبي إلى السلطان يعقوب فسر بمقدمه وقفلوا جميعاً إلى الجزيرة الخضراء فأراح السلطان بها أياماً وقسم في المجاهدين غنائمهم ثم جمع أشياخ القبائل وندبهم إلى غزو قرطبة وقال: «يا معشر المجاهدين إن إشبيلية وشريش وأحوازهما قد ضعفت وبادت ولم يبق لكم بها كبير نفع ولا نكاية وإن قرطبة وأعمالها بلاد حصينة عامرة وعليها اعتماد الفرنج ومنها معاشهم ومادتهم فإن غزوتموها واستأصلتم خضراءها مثل ما فعلتم بإشبيلية وشريش كان ذلك سبب ضعف النصرانية بهذا القطر» فأجابوا

بالسمع والطاعة فدعا لهم وفرق فيهم الأموال والخلع وخاطب ابن الأحمر يستنفره للجهاد معه وقال: «إن خروجك معي إلى قرطبة يكون لك مهابة في قلوب الفرنج ما عشت سوى ما تستوجبه من الله تعالى من الثواب في ذلك».

ونهض السلطان إلى قرطبة فاتح جمادى الأولى من سنة ست وسبعين المذكورة فوافاه ابن الأحمر بناحية شدونة فأكرم موصله وشكر خفوفه إلى الجهاد وبداره إليه ونازلوا حصن بني بشير فدخلوه عنوة وقتلت المقاتلة وسبيت النساء ونفلت الأموال وهدم الحصن حتى لم يبق له أثر ثم بث السلطان رحمه الله السرايا والغارات في البسائط فاكتسحها وامتلأت الأيدي وأثرى العسكر وفاض عليهم من الغنم والبقر والمعز والخيل والبغال والحمير والقمح والشعير والزيت والعسل ما لا يوصف ثم ساروا يتقرون المنازل والعمران في طريقهم حتى احتلوا بساحة قرطبة فنازلوها وخفقت ألوية السلطان في نواحيها وزعقت طبوله في فضائها وتقدم في أبطاله وحماته حتى وقف على بابها ثم دار بأسوارها ينظر كيف الحيلة في قتالها ووقف ابن الأحمر بعساكر الأندلس أمام محلة المسلمين يحرسونها خوفاً من كرة العدو وخنس الفرنج وراء الأسوار وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم في نواحي قرطبة وقراها، فنسفوا آثارها وخربوا عمرانها وترددوا على جهاتها ودخلوا حصن الزهراء بالسيف وأقام السلطان على قرطبة ثلاثاً ثم ارتحل عنها إلى حصن بركونة فدخله عنوة ثم أرجونة كذلك ثم قدم بعثاً إلى مدينة جيان فقاسمها حظها من الخسف والدمار، وخام الطاغية عن اللقاء وأيقن بخراب عمرانه وإتلاف بلاده فجنح إلى السلم وخطبه من السلطان يعقوب ورغب فيه إليه وبعث الأقسة والرهبان للوساطة في ذلك فرفعهم السلطان يعقوب إلى ابن الأحمر وجعل الأمر في ذلك إليه تكرمة لمشهده ووفاء بحقه وقال لوفد الفرنج: «إنما أنا ضيف والضيف لا يصالح على رب المنزل» فساروا إلى ابن الأحمر وقالوا له: «إن السلطان يعقوب قد رد الأمر إليك ونحن قد جئناك لنعقد معك صلحاً مؤبداً لا يعقبه غدر ولا حرب» وأقسموا له بصلبانهم إن لم يرضه الفنش ليخلعنه لأنه لم ينصر الصليب ولا حمى الحوزة فأجابهم ابن

الأحمر إليه بعد عرضه على أمير المسلمين والتماس إذنه فيه لما فيه من المصلحة وجنوح أهل الأندلس إليه منذ المدد الطويلة فانعقد السلم في آخر شهر رمضان من السنة المذكورة وقفل السلطان يعقوب من غزاته هذه وجعل طريقه على غرناطة احتفاء بالسلطان ابن الأحمر وخرج له عن الغنائم كلها فاحتوى عليها ابن الأحمر وساقها إلى غرناطة وقال له السلطان يعقوب: «يكون حظ بني مرين من هذه الغزاة الأجر والثواب مثل ما فعل يوسف بن تاشفين رحمه الله مع أهل الأندلس يوم الزلاقة».

ولما قفل السلطان يعقوب من هذه الغزوة اعتل الرئيس أبو محمد بن اشقيلولة ثم هلك غرة جمادى من السنة المذكورة فلحق ابنه محمد بالسلطان يعقوب آخر شهر رمضان وهو متلوم بالجزيرة الخضراء منصرفه من الغزو كما ذكرناه فنزل له عن مالقة ودعاه إلى حوزها منه وقال له: «إن لم تحزها أعطيتها للفرنج ولا يتملكها ابن الأحمر» فحازها السلطان يعقوب منه وعقد عليها لابنه أبي زيان منديل بن يعقوب فسار إليها وتملكها، وعزّ ذلك على ابن الأحمر غاية لأنه لما بلغه وفاة أبي محمد بن اشقيلولة سما أمله إليها وأن ابن أخته وهو محمد الوافد على السلطان يعقوب شيعة له لا يبغي به بدلاً فأخطأ ظنه وخرج الأمر بخلاف ما كان يرتقب، ولما قضى السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء صومه ونسكه خرج إلى مالقة فدخلها سادس شوال من السنة وبرز إليه أهلها في يوم مشهود واحتفلوا له احتفال أيام الزينة سروراً بمقدم السلطان واغتباطاً بدخولهم في دعوته وانخراطهم في سلك رعيته، وأقام فيهم إلى خاتم سنته ثم عقد عليها لعمر بن يحيى بن محلي من صنائع دولتهم، وأنزل معه المسالح وترك عنده زيان بن أبي عياد بن عبد الحق في طائفة لنظره من أبطال بني مرين، واستوصاه بمحمد بن اشقيلولة وارتحل إلى الجزيرة الخضراء، ثم أجاز منها إلى المغرب فاتح سنة سبع وسبعين وستمائة وقد اهتزت الدنيا لمقدمه وامتلأت القلوب سروراً بما هيأه الله من نصر المسلمين بالأندلس وعلو راية الإسلام على كل راية وعظمت بذلك كله موجدة ابن الأحمر ونشأت الفتنة كما نذكره إن شاء الله.

حدوث الفتنة بين السلطان يعقوب وابن الأحمر وما نشأ عن ذلك من حصار الجزيرة الخضراء وغير ذلك

قد تقدم لنا أن بنو اشقيلولة كانوا أصهاراً لابن الأحمر وأنهم لما قدموا على السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء في جوازه الأول صدرت من ابن اشقيلولة كلمات أحفظت ابن الأحمر وغاظته فذهب لأجلها مغاضباً وانحرف عن السلطان يعقوب ولم يشهد معه الغزو ولا عرج على الجهاد، ولما نصر الله السلطان يعقوب على عدوه وقتل العلج وبعث برأسه إلى ابن الأحمر طيبه وبعثه إلى قومه انحرافاً عن السلطان وموالاة للعدو، ولما جاز السلطان يعقوب الجواز الثاني انقض عنه ابن الأحمر ولم يلقه حتى خاطبه السلطان واستنفره إلى الجهاد فلحقه بشدونة كما مر، ولما صنع الله للسلطان ما صنع من الظهور والعز الذي لا كفاء له واستولى على مالقة من يد ابن اشقيلولة ارتاب ابن الأحمر بمكانه وظن به الظنون وتخوف منه ما كان من يوسف بن تاشفين للمعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف فغص بمكانه وأظلم الجو بينهما ودارت بينهما مخاطبات شعرية على ألسنة الكتاب في معنى العتاب ولم تزل القوارص بين السلطانين تجري وعقارب السعاية تدب وتسري وخوف ابن الأحمر على ملكه يشتد ويزيد وأواصر الأخوة الإسلامية تتلاشى وتبيد إلى أن استحكمت البغضاء وضاق بينهما رحب الفضاء ففزع ابن الأحمر إلى مداخلة الطاغية في شأنه واتصال يده بيده وحبله بحبله وأن يعود إلى منزلة أبيه معه من ولايته ليدافع به السلطان يعقوب وقومه عن أرضه ويأمن معه من زوال سلطانه فاغتنم الطاغية هذه الفرصة ونكث عهد السلطان يعقوب ونقض السلم وأعلن بالحرب وأغزا أساطيله الجزيرة الخضراء حيث كانت مسالح السلطان يعقوب وجنوده وأرست بالزقاق حيث فراض المجاز وانقطعت عساكر السلطان وراء البحر وحال العدو بينهم وبين إغاثته إياهم واتصلت يد ابن الأحمر بيد الطاغية واتفقا على منع السلطان يعقوب من عبور

البحر وداخل ابن الأحمر عمر بن يحيى بن محلى صاحب مالقة في النزول له عنها بعوض ففعل واستولى ابن الأحمر عليها ثم راسل هو والطاغية يغمراسن بن زيان من وراء البحر وراسلهم هو في مشاقة السلطان وإفساد ثغوره وإنزال العوائق المانعة له من حركته والأخذ بأذياله عن النهوض إلى الغزو وأسنوا فيما بينهما الهدايا والتحف وجنب يغمراسن إلى ابن الأحمر ثلاثين من عتاق الخيل مع ثياب من عمل الصوف، وبعث إليه ابن الأحمر مكافأة على ذلك عشرة آلاف دينار فلم يرض بالمال ورده وأصفقت آراؤهم جميعاً على السلطان يعقوب ورأوا أن قد أبلغوا في إحكام أمرهم وسد مذاهبه إليهم.

واتصل خبر هذا كله بالسلطان وهو بمراكش كان خرج إليها مرجعه من الغزو في المحرم سنة سبع وسبعين وستمائة لما كان من عيث عرب جشم بتامسنا وإفسادهم السابلة، فثقف أطرافها وحسم مادة فسادها، ثم اتصل به خبر ابن محلي ونزوله عن مالقة لابن الأحمر ومنازلة الطاغية بأساطيله للجزيرة الخضراء وتضييقه على المسلمين بها، فبلغ ذلك منه كل مبلغ ونهض من مراكش ثالث شوال من السنة يريد طنجة فوصل إلى قرية مكول من بلاد تامسنا فتوالت عليه بها الأمطار والسيول وعاقته عن النهوض، وبينما هو في ذلك ورد عليه الخبر أيضاً بنزول الطاغية على الجزيرة الخضراء برّاً وإحاطة عسكره بها بعد أن كانت أساطيله منازلة لها في البحر منذ ستة أشهر أو سبعة وأنه مشرف على التهامها وبعثوا إليه يستصرخونه ويخبرونه بالحال فاعتزم على الرحيل.

ثم اتصل به الخبر ثالثاً بخروج مسعود بن كانون السفياني ببلاد نفيس من أرض المصامدة خامس ذي القعدة من السنة وأن الناس اجتمعوا إليه من قومه وغيرهم، فانخرقت على السلطان الفتوق وتوالت عليه الخطوب ولم يدر ما يصنع، إلا أنه رأى أن يقدم أمر ابن كانون والعرب فكر راجعاً إليه وقدم بين

يديه حافده تاشفين بن أبي مالك ووزيره يحيى بن حازم العلوي وجاء هو على ساقتهم، وفر مسعود بن كانون وجموعه أمام السلطان فانتهب معسكرهم وحللهم واستباح عرب الحارث من سفيان، ولحق مسعود بجبل سكسيوة فاعتصم به وشايع عبد الواحد السكسيوي القائم به على خلافه، ونازله السلطان يعقوب بعساكره أياماً وسرح ابنه الأمير أبا زيان منديل إلى بلاد السوس لتمهيدها وتدويخ أقطارها فأوغل في ديارها وقفل إلى أبيه في آخر يوم من السنة المذكورة.

واتصل بالسلطان ما تضاعف على أهل الجزيرة من ضيق الحصار وشدة القتال وإعواز الأقوات، وأنهم ختنوا الأصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرة الكفر فأهمه ذلك.

وكان أقسم أن لا يرتحل عن ابن كانون حتى ينزل على حكمه أو يهلك دون ذلك فأعمل النظر فيما يكون به خلاص أهل الجزيرة فعقد لولي عهده ابنه الأمير يوسف، وكان بمراكش على الغزو إليها وكان أهل الجزيرة كما قلنا قد أحاط بهم العدو براً وبحراً وانقطعت عنهم المواد وعميت عليهم الأنباء إلا ما يأتيهم به الحمام من جبل طارق، وفني أكثرهم بالقتل والجوع وسهر الليل على الأسوار وشدة الحصار حتى أشرف بقيتهم على الهلاك وأيسوا من الحياة، فحينئذٍ جمعوا صبيانهم وختنوهم كما مر وبينما هم على ذلك قدم الأمير يوسف بجيوشه إلى طنجة وكان قدومه في أوائل صفر من سنة ثمان وسبعين وستمائة.

وكان السلطان يعقوب لما بعث ابنه الأمير يوسف إلى طنجة قد كتب إلى الثغور بإعداد الأساطيل وعمارتها وتوجيهها إليه وقسم الإعطاءات وحض الناس على النهوض فتوفرت همم المسلمين على الجهاد وأجابوا من كل ناحية، وأبلى الفقيه أبو خاتم العزفي صاحب سبتة لما بلغه الخطاب من السلطان في شأن الأساطيل البلاء الحسن، وقام فيه المقام المحمود، فهيأ

خمسة وأربعين أسطولاً واستنفر كافة أهل بلده من المحتلم إلى الشيخ فركبوا البحر أجمعون ولم يبق بسبتة إلا النساء والشيوخ والصبيان، ورأى ابن الأحمر ما نزل بأهل الجزيرة وإشراف الطاغية على أخذها فندم على ممالاته إياه وأعد أساطيل سواحله من المنكب والمرية ومالقة فكانت اثني عشر أسطولاً فبعثها مدداً للمسلمين، وقدم من بادس وسلا وآنفى خمسة عشر أسطولاً فنهض في الوقت اثنان وسبعون أسطولاً واجتمعت كلها بمرفأ سبتة وقد أخذت بطرفي الزقاق في أحفل زي وأكمل استعداد ثم تقدمت إلى طنجة ليراها الأمير يوسف فشاهدها وسر بها وعقد لهم رايته مع جماعة من أبطال بني مرين رغبوا في الجهاد.

ثم أقلعت الأساطيل عن طنجة ثامن ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وستمائة وانتشرت قلوعهم في البحر فأجازوه وباتوا ليلة المولد الكريم بمرفأ جبل الفتح وصبحوا العدو وأساطيله يومئذٍ تناهز أربعمائة فتظاهر المسلمون في دروعهم وأسبغوا من شكتهم وأخلصوا لله عزائمهم وتنادوا بالجنة وشعارها ووعظ خطباؤهم وذكر صلحاؤهم، والتحم القتال ونزل الصبر فلم يكن إلا كلا ولا حتى نضحوا العدو بالنبل ففسدت أفروطتهم واختل مصافهم وانكشفوا وتساقطوا في عباب البحر، فاستلحمهم السيف وغشيهم اليم واستولى المسلمون على أساطيلهم فملكوها وأسروا قائدها الملند في جماعة من حاشيته، واستمر مثقفاً بفاس حتى فر بعد ذلك وسر المسلمون الذين بداخل الجزيرة بفساد أفروطة العدو وهلاكها.

ولما رأى عسكر الطاغية الذي في البر ما أصاب أهل البحر منهم من القتل والأسر داخلهم الرعب وخافوا من هجوم الأمير يوسف عليهم إذ كان مقيماً بساحل طنجة مستعداً للعبور فقوضوا أبنيتهم وأفرجوا عن البلد لحينهم وانتشر المسلمون والنساء والصبيان بساحة البلد كأنما نشروا من قبر وغلبت مقاتلتهم كثيراً من عسكر العدو على متاعهم فغنموا من الحنطة والإدام

والفواكه ما ملأ أسواق البلد أياماً حتى وصلتها الميرة من النواحي.

وأجاز الأمير يوسف البحر من حينه فاحتل بساحل الجزيرة وأرهب العدو في كل ناحية لكنه صده عن الغزو شأن الفتنة مع ابن الأحمر فرأى أن يعقد مع الطاغية سلماً ويصل يده بيده لمنازلة غرناطة دار ابن الأحمر فأجابه الطاغية إلى ذلك رهبة من بأسه وموجدة على ابن الأحمر في مدد أهل الجزيرة وبعث أساقفته لعقد ذلك وإحكامه فأجازهم الأمير يوسف إلى أبيه وهو بناحية مراكش فغضب لها وأنكر على ابنه وزوى عنه وجه رضاه، وأقسم أن لا يرى أسقفاً منهم إلا أن يراه بأرضه ورجعهم إلى طاغيتهم مخفقي السعي كاسفي البال.

ووصلت في هذه السنة هدية السلطان أبي زكرياء يحيى الواثق الحفصي مع أبي العباس الغماري حسبما مرت الإشارة إليه قبل هذا.

ثم إن السلطان يعقوب رحمه الله رجع إلى فاس وبعث خطابه إلى الآفاق مستنفراً للجهاد وفصل عنها غرة رجب من سنة ثمان وسبعين وستمائة حتى انتهى إلى طنجة وعاين ما اختل من أحوال المسلمين في تلك الفترة وما جرت إليه فتنة ابن الأحمر من اعتزاز الطاغية وما حدثته نفسه من التهام الجزيرة الأندلسية، ومن فيها وكان قد أمر أمره في هذه المدة وظاهره أعداء ابن الأحمر من بني اشقيلولة وغيرهم عليه. حتى حاصروا غرناطة ومرج أمر الأندلس ونغلت أطرافها وأشفق السلطان يعقوب رحمه الله على المسلمين الذين بها وعلى ابن الأحمر مما ناله من خسف الطاغية فراسله في الموادعة واتفاق الكلمة على أن ينزل له عن مالقة التي خادع عنها ابن محلي كما تقدم، فامتنع ابن الأحمر وأساء الرد في ذلك فرجع السلطان يعقوب إلى إزالة العوائق عن شأنه في الجهاد وكان من أعظمها فتنة يغمراسن واستيقن ما دار بينه وبين ابن الأحمر والطاغية ابن أذفونش من الاتصال والإصفاق على تعويقه عن الغزو فبعث إلى يغمراسن يسأله عن الذي بلغه عنه ويطلب منه تجديد الصلح وجمع الكلمة، فلج في الخلاف وكشف وجه العناد وأعلن بما

وقع بينه وبين أهل العدوة الأندلسية مسلمهم وكافرهم من الوصلة وأنه معتزم على وطء بلاد المغرب فصرف السلطان يعقوب عزمه إلى غزو يغمراسن وقفل إلى فاس لثلاثة أشهر من حلوله بطنجة فدخلها آخر شوال من السنة المذكورة وأعاد الرسل إلى يغمراسن لإقامة الحجة عليه وقال له فيما خاطبه به: «إلى متى يا يغمراسن هذا النفور والتمادي في الغرور؟ أما آن أن تنشرح الصدور وتنقضي هذه الشرور؟» في كلام غير هذا فصم يغمراسن عن ذلك كله ولم يرفع به رأساً، ولما أيس السلطان يعقوب من إقلاعه ورجوعه نهض إليه من فاس آخر سنة تسع وسبعين وستمائة وقدم ابنه الأمير يوسف في العساكر وتبعه فأدركه بتازا، ولما انتهى إلى ملوية تلوم أياماً في انتظار العساكر ثم ارتحل حتى نزل وادي تافنا وصمد إليه يغمراسن بجموع زناتة والعرب بحللهم ونجعهم وشائهم ونعمهم والتقت طوالع القوم أولاً فكانت بينهما حرب ثم ركب على آثارهما العسكران والتحم القتال سائر النهار، وكان الزحف بالموضع المعروف بالملعب من أحواز تلمسان ثم انكشف بنو عبد الواد عندما أراح القوم وانتهب معسكرهم بما فيه من الكراع والسلاح والفساطيط والمتاع وبات عسكر السلطان يعقوب تلك الليلة على متون جيادهم واتبعوا من الغد آثار عدوهم، واكتسحت أموال العرب الناجعة الذين كانوا مع يغمراسن وامتلأت أيدي بني مرين من شائهم ونعمهم وتوغلوا في أرض يغمراسن، ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي أمير بني توجين لقيه بناحية القصبات وعاثوا جميعاً في بلاده تخريباً ونهباً ثم أذن السلطان يعقوب لبني توجين في اللحاق ببلادهم وأخذ هو بمخنق تلمسان محاصراً لها حتى يصل محمد بن عبد القوي إلى مأمنه من جبل وانشريس خوفاً عليه من غائلة يغمراسن واتباعه إياه، ثم أفرج عنها وقفل إلى المغرب فدخل حضرة فاس في رمضان سنة ثمانين وستمائة، ثم نهض إلى مراكش فدخلها فاتح سنة إحدى وثمانين بعدها فبنى بها بامرأة مسعود بن كانون السفياني لأنه كان قد هلك قبل هذه السنة وسرح ابنه الأمير يوسف إلى السوس لتدويخ أقطاره ثم وافاه وهو بمراكش صريخ الطاغية على ما نذكره الآن.

الجواز الثالث للسلطان يعقوب إلى الأندلس مغيثاً للطاغية ومغتنماً فرصة الجهاد

لما كان السلطان يعقوب رحمه الله بمراكش سنة إحدى وثمانين وستمائة قدم عليه كتاب طاغية الإصنبيول واسمه هراندة مع وفد من بطارقته وزعماء دولته مستصرخاً له على ابنه سانجة الخارج عليه في طائفة من النصارى وأنهم غلبوه على أمره زاعمين بأنه شاخ وضعف عن تدبيرهم ولم يقدر على القيام بنصرتهم فاستنصره عليهم ودعاه لحربهم وأمله لاسترجاع ملكه من يدهم فاغتنم السلطان يعقوب هذه الفرصة في الحال وجعل جوابه نفس النهوض والارتحال فسار معهم لم يعرج على شيء حتى أتى قصر المجاز وهو قصر مصمودة فعبر منه واحتل لوقته بالجزيرة الخضراء في ربيع الثاني من سنة إحدى وثمانين المذكورة وأوعز إلى الناس بالنفير إلى الجهاد واجتمعت عليه مسالح الثغور بالأندلس وسار حتى نزل صخرة عباد وهناك قدم عليه الطاغية هراندة ذليلاً لعزة الإسلام مؤملاً صريخ السلطان فأكرم موصله وأكرم وفادته.

وذكر ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما من الأثبات: «أن هذا الطاغية لما اجتمع بالسلطان يعقوب قبل يده إعظاماً لقدره وخضوعاً لعزه فدعا السلطان رحمه الله بماء فغسل يده من تلك القبلة بمحضر من كان هناك من جموع المسلمين والفرنج ثم التمس الطاغية من السلطان أن يمده بشيء من المال ليستعين به على حربه ونفقاته، فأسلفه السلطان مائة ألف دينار من بيت مال المسلمين رهنه الطاغية فيها تاجه الموروث عن سلفه، قال ابن خلدون: «وبقي هذا التاج بدار بني يعقوب بن عبد الحق فخراً للأعقاب لهذا العهد» قلت: «وما أبعد حال هذا الطاغية المهين من حال عطارد بن حاجب التميمي الذي لم يسلم قوس أبيه على تطاول السنين والقصة مشهورة فانظر ما بين الهمم العربية والعجمية من البون وحال الفريقين في الابتذال والصون».

ثم إن السلطان يعقوب رحمه الله تقدم مع الطاغية ودخل دار الحرب غازياً حتى نازل قرطبة وبها يومئذٍ سانجة ابن الطاغية الخارج عليه مع طائفته

فقاتلها أياماً ثم أفرج عنها وتنقل في جهاتها وبعث سراياه إلى جيان فأفسدوا زروعها ثم ارتحل إلى طليطلة فعاث في جهاتها وخرب عمرانها حتى انتهى إلى حصن مجريط من أقصى الثغر فامتلأت أيدي المسلمين وضاق معسكرهم بالغنائم التي استاقوها فقفل السلطان من أجل ذلك إلى الجزيرة فاحتل بها في شعبان وأقام بها إلى آخر السنة المذكورة وكانت غزوة لم يسمح الدهر بمثلها وفي هذه السنة توفي يغمراسن بن زيان على ما في القرطاس. وذكر ابن خلدون: أنه لما حضرته الوفاة أوصى ابنه عثمان وقال له: «يا بني إن بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على حضرة الخلافة بمراكش لا طاقة لنا بلقائهم فإياك أن تحاربهم فإن مددهم موفور ومددك محصور ولا يغرنك أني كنت أحاربهم ولا أنكص عن لقائهم لأني كنت أخشى معرة الجبن عنهم بعد التمرس بهم والاجتراء عليهم وأنت لا يضرك ذلك لأنك لم تحاربهم ولم تتمرس بهم فعليك بالتحصن ببلدك متى زحفوا إليك وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين أصحاب تونس يستفحل بها ملكك وتكافىء حشد العدو بحشدك» قال: «فعمل ابنه عثمان على وصيته وأوفد أخاه محمد بن يغمراسن على السلطان يعقوب وهو بالأندلس في جوازه الرابع فعقد معه السلم على ما أحب وانكفأ راجعاً إلى أخيه فطابت نفسه وتفرغ لافتتاح البلاد الشرقية.

انعقاد الصلح بين السلطان يعقوب وابن الأحمر والسبب في ذلك

لما اتصلت يد السلطان يعقوب رحمه الله بيد الطاغية وقام معه في ارتجاع ملكه خشي ابن الأحمر عاديته فجنح إلى موالاة ابنه سانجة الخارج عليه ووصل يده بيده وأكد له العقد واضطرمت الأندلس ناراً وفتنة بسبب هذا الخلاف، ولما قفل السلطان يعقوب من غزوته مع الطاغية وقد ظهر على ابنه أجمع على منازلة مالقة التي استحوذ عليها ابن الأحمر وخدع عنها ابن محلي فنهض السلطان إليها من الجزيرة الخضراء فاتح سنة اثنتين وثمانين وستمائة

فغلب أولاً على الحصون الغربية كلها ثم أسف إلى مالقة فأناخ عليها بعساكره وضاق على ابن الأحمر النطاق ولم تغن عنه موالاة سانجة شيئاً وبدا له سوء المغبة في شأن مالقة وندم على تناولها فأعمل نظره في الخلاص من ورطتها ولم ير لها إلا الأمير يوسف ابن السلطان يعقوب فخاطبه بمكانه من المغرب مستصرخاً له لرقع هذا الخرق ورتق هذا الفتق وجمع كلمة المسلمين على عدوهم فأجابه واغتنم المثوبة في مسعاه وعبر البحر إلى الأندلس في صفر سنة اثنتين وثمانين المذكورة فوافى أباه بمعسكره على مالقة ورغب منه السلم لابن الأحمر في شأنها والتجافي له عنها فأسعف رغبة ابنه لما يؤمل في ذلك من رضى الله عز وجل في جهاد عدوه وإعلاء كلمته، وانعقد السلم وانبسط أمل ابن الأحمر وتجددت عزائم المسلمين للجهاد وقفل السلطان يعقوب إلى الجزيرة الخضراء فبث السرايا في دار الحرب فأوغلوا وأثخنوا ثم استأنف الغزو بنفسه إلى طليطلة فخرج من الجزيرة غازياً غرة ربيع الثاني من سنة اثنتين وثمانين المذكورة حتى انتهى إلى قرطبة فأثخن وغنم وخرب العمران وافتتح الحصون ثم ارتحل نحو البرت وترك محلته على بياسة بالمغانم والأثقال وترك معها خمسة آلاف فارس يحمونها من كرة العدو ثم أغذ السير في أرض قفرة ليلتين حتى انتهى إلى البرت من نواحي طليطلة فسرح الخيل في البسائط وجالت في أكنافها ولم تنته إلى طليطلة لتثاقل الناس بكثرة الغنائم وأثخن في القتل وقفل على غير طريقه فأثخن وخرب.

وانتهى إلى أبدة فوقف بساحتها وقاتلها ساعة من نهار فرماه علج من خلف السور بسهم أصاب فرسه فارتحل عنها إلى معسكره ببياسة فأراح بها ثلاثاً ينسف آثارها ويقتلع أشجارها وقفل إلى الجزيرة وبين يديه من السبي والغنائم ما يعجز عنه الوصف فدخلها في شهر رجب من السنة المذكورة فقسم الغنائم ونفل من الخمس وولى على الجزيرة حافده عيسى بن عبد الواحد بن يعقوب فهلك شهيداً على شنريش بسهم مسموم لشهرين من ولايته.

ثم عبر السلطان إلى المغرب فاتح شعبان ومعه ابنه أبو زيان منديل فأراح

بطنجة ثلاثاً ثم نهض إلى فاس فدخلها آخر شعبان ولما قضى صيامه ونسك عيده ارتحل إلى مراكش لتمهيدها وتفقد أحوالها وقسم من نظره لنواحي سلا حظاً فأقام برباط الفتح شهرين اثنين وتوفيت في هذه المدة الحرة أم العز بنت محمد بن حازم العلوي وهي أم الأمير يوسف وكانت وفاتها برباط الفتح فدفنت بشالة. ثم نهض السلطان يعقوب إلى مراكش فدخلها فاتح ثلاث وثمانين وستمائة وبلغه مهلك الطاغية هراندة بن أذفونش واجتماع النصرانية على ابنه سانجة الخارج عليه فحركت همته إلى الجهاد ثم سرح ابنه الأمير يوسف ولي عهده بالعسكر إلى بلاد السوس لغزو العرب الذين بها وكف عاديتهم ومحو آثار الخوارج المنتزين على الدولة فأجفلوا أمامه واتبع آثارهم إلى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس فهلك أكثر العرب في تلك القفار جوعاً وعطشاً وقفل راجعاً لما بلغه من اعتلال والده السلطان يعقوب فوصل إلى مراكش وقد أبل من مرضه وعزم على الجهاد شكراً لله تعالى على نعمة العافية، وفي هذه السنة وصل ماء عين غبولة إلى قصبة رباط الفتح بأمر السلطان يعقوب وكان ذلك على يد المعلم المهندس أبي الحسن علي بن الحاج والله تعالى أعلم.

الجواز الرابع للسلطان يعقوب إلى الأندلس برسم الجهاد

لما اعتزم السلطان يعقوب على العبور إلى الأندلس عرض جنوده وحاشيته وأزاح عللهم وبعث في قبائل المغرب بالنفير ونهض من مراكش في جمادى الآخرة لثلاث وثمانين وستمائة واحتل برباط الفتح منتصف شعبان فقضى به صومه ونسكه ثم ارتحل إلى قصر المجاز وشرع في إجازة العساكر والحشود من المرتزقة والمتطوعة خاتم سنته، ثم أجاز البحر بنفسه غرة صفر من سنة أربع وثمانين بعدها واحتل بظاهر طريف، ثم سار إلى الجزيرة الخضراء فأراح بها أياماً ثم خرج غازياً حتى انتهى إلى وادي لك وسرح الخيول في بلاد العدو وبسائطه يحرق وينسف. فلما خرب بلاد النصرانية

ودمر أرضهم قصد مدينة شريش فنزل بساحتها وأناخ عليها في العشرين من صفر سنة أربع وثمانين المذكورة وبث السرايا والغارات في جميع نواحيها وبعث عن المسالح التي كانت بالثغور فتوافت لديه ولحقه حافده عمر بن عبد الواحد بجمع وافر من المجاهدين من أهل المغرب فرساناً ورجالاً ووافته حصة العزفي صاحب سبتة غزاة ناشبة تناهز خمسمائة وأوعز إلى ولي عهده الأمير يوسف باستنفار من بقي من أهل العدوة.

وكان السلطان رحمه الله لما أناخ على شريش بعث وزيره محمد بن عطوا ومحمد بن عمران عيوناً فوافوا حصن القناطر وروطة واستكشفوا ضعف الحامية واختلال الثغور وعادوا إلى السلطان فأخبروه، ثم عقد السلطان لحافده منصور بن عبد الواحد على ألف فارس من بني مرين والغز وعرب العاصم والخلط والأثبج وأعطاه الراية وبعثه لغزو إشبيلية وذلك في يوم الأحد التاسع والعشرين من صفر من السنة المذكورة فغنموا ومروا بقرمونة في منصرفهم فاستباحوها وأثخنوا بالقتل والأسر ورجعوا وقد امتلأت أيديهم من الغنائم، ثم عقد ثانية لحافده عمر بن عبد الواحد على مثلها من الفرسان في يوم الخميس الثالث من شهر ربيع الأول من السنة وأعطاه الراية وسرحه إلى بسائط وادي لك فرجعوا من الغنائم بما ملأ العساكر بعد أن أثخنوا فيها بالقتل والتخريب وتحريق الزروع واقتلاع الثمار وأبادوا عمرانها.

ثم سرح ثامن ربيع المذكور عسكراً من خمسمائة فارس للإغارة على حصن ركش فوافوه على غرة فاكتسحوا أموالهم وسبوا، ثم عقد تاسع ربيع أيضاً لابنه أبي معرف على ألف من الفرسان وسرحه لغزو إشبيلية فساروا حتى هجموا عليها يوم المولد الكريم وتحصنت منه حاميتها بالأسوار فخرب عمرانها وقطع أشجارها وامتلأت أيدي عسكره سبياً وأموالاً ورجع إلى محلة السلطان وهي نازلة على شريش كما قدمنا مملوء الحقائب.

ثم عقد ثالثة لحافده عمر منتصف ربيع المذكور لغزو حصن كان بالقرب

من معسكره كان أهله يقطعون الطريق على من خرج من المحلة مفرداً أو في قلة وسرح معه الرجل من الناشبة والفعلة بآلات من المساحي والفؤوس، وأمده بالرجل من المصامدة وغزاة سبتة فاقتحموه عنوة على أهله وقتلوا المقاتلة وسبوا النساء والذرية وألصقوا خده بالتراب ونسفوا آثاره نسفاً، ولسبعة عشر من الشهر ركب السلطان إلى حصن مرتقوط قريباً من معسكره فخربه وحرقه بالنار واستباحه وقتل المقاتلة وسبى الأهل، ولعشرين من شهره المذكور وصل ولي عهده الأمير يوسف من العدوة المغربية بنفير أهل المغرب وكافة القبائل في جيوش ضخمة وعساكر موفورة وركب السلطان للقائهم وبرور مقدمهم وعرض العساكر القادمة معه يومئذٍ فكانت ثلاثة عشر ألفاً من المصامدة وثمانية آلاف من برابرة المغرب كلهم متطوع بالجهاد فعقد السلطان لولي العهد على خمسة آلاف من المرتزقة وألفين من المتطوعة وثلاثة عشر ألفاً من الرجل وألفين من الناشبة وذلك في يوم الجمعة الخامس والعشرين من ربيع الأول المذكور وسرحه لغزو إشبيلية والإثخان في نواحيها فعبأ كتائبه ونهض لوجهه وبث الغارات بين يديه فأثخنوا وسبوا وقتلوا واقتحموا الحصون واكتسحوا الأموال وعاج ولي العهد على الشرف والغابة من بسيط إشبيلية فنسف قراها واقتحم بعض حصونها وقفل إلى معسكر السلطان وهو بمكانه من حصار شريش. وفي يوم الاثنين السادس من ربيع الثاني قدم أبو زيان منديل ابن السلطان يعقوب من المغرب في جيش كثيف فيهم خمسمائة فارس من عرب بني جابر أهل تادلا مع كبيرهم يوسف بن قيطون وفيهم من المتطوعة والناشبة عدد كثير فعقد له السلطان غداة وصوله وأمده بعسكر آخر وأغزاه قرمونة والوادي الكبير فأغار على قرمونة وطمعت حاميتها في المدافعة فبرزوا له وصدقهم القتال فانكشفوا حتى أدخلوهم البلد ثم أحاطوا ببرج كان قريباً من البلد فقاتلوه ساعة من نهار واقتحموه عنوة ولم يزل يتقرى المنازل والعمران حتى وقف بساحة إشبيلية فأغار واقتحم برجاً

كان هنالك عيناً على المسلمين وأضرمه ناراً وامتلأت أيدي عساكره وقفل إلى معسكر السلطان على شريش، ولثلاث عشرة ليلة من ربيع الثاني عقد السلطان لولي العهد الأمير يوسف لمنازلة جزيرة كبتور فصمد إليها وقاتلها واقتحمها عنوة، وفي ثاني جمادى الأولى عقد السلطان للحاج أبي الزبير طلحة بن يحيى بن محلى وكان بعد مداخلته أخاه عمر في شأن مالقة سنة خمس وسبعين خرج إلى الحج فقضى فرضه ورجع ومر في طريقه بتونس فاتهمه الدعي ابن أبي عمارة كان بها يومئذٍ فاعتقله سنة اثنتين وثمانين ثم سرحه ولحق بقومه بالمغرب ثم عبر إلى الأندلس غازياً مع السلطان يعقوب فعقد له في هذا اليوم على مائتين من الفرسان وسرحه إلى إشبيلية ليكون ربيئة للمعسكر وبعث معه لذلك عيوناً من اليهود والمعاهدين من النصارى يتعرفون له أخبار الطاغية سانجة، والسلطان يعقوب رحمه الله أثناء هذا كله يغادي شريش ويراوحها بالقتل والتخريب ونسف الآثار وبث السرايا كل يوم وليلة في بلاد العدو فلا يخلو يوم من تجهيز عسكر أو إغزاء جيش أو عقد راية أو بعث سرية حتى انتسف العمران في جميع بلاد النصرانية وخرب بسائط إشبيلية ولبلة وقرمونة وإستجة وجبال الشرف وجميع بسائط الفرنتيرة.

وأبلى في هذه الغزوات عياد بن أبي عياد العاصمي من شيوخ جشم والخضر الغزي من أمراء الأكراد بلاءً عظيماً وكان لهم فيها ذكر وصيت وكذلك غزاة سبتة وكذا سائر المجاهدين من عرب جشم وغيرهم مثل مهلهل بن يحيى الخلطي صهر السلطان ويوسف بن قيطون الجابري وغير هؤلاء ممن يطول ذكرهم.

فلما دمرها تدميراً وأوسعها تخريباً ونسفها نسفاً واكتسحها غارة ونهباً وهجم فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر اعتزم السلطان على القفول وأفرج عن شريش لآخر جمادى الأولى من السنة المذكورة بعد أن حاصرها نحواً من ثلاثة أشهر وعشرة أيام واتصل به أن العدو أوعز إلى أساطيله

باحتلال الزقاق والاعتراض دون الفراض فأوعز السلطان إلى جميع سواحله من سبتة وطنجة وبلاد الريف ورباط الفتح والمنكب والجزيرة وطريف بتوجيه أساطيلهم فتوافت منها ستة وثلاثون أسطولاً متكاملة في عدتها فأحجمت أساطيل العدو عنها وارتدت على أعقابها واحتل السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء وهي المسماة اليوم بخوزيرت غرة رمضان من سنة أربع وثمانين وستمائة ونزل بقصره من المدينة الجديدة التي بناها بإزائها فبرزت أساطيل المسلمين أمامه بالمرسى وهو جالس بمشور قصره فلعبوا بمرأى منه في البحر وتجاولوا وتناطحوا وتطاردوا كفعلهم ساعة الحرب فسر بذلك وأحسن إليهم وصرفهم إلى حال سبيلهم.

وفادة الطاغية على السلطان يعقوب بأحواز الجزيرة الخضراء وعقد الصلح بينهما والسبب في ذلك

قال ابن خلدون رحمه الله: لما نزل ببلاد النصرانية من السلطان يعقوب ما نزل من تدمير قراهم واكتساح أموالهم وسبي نسائهم وإبادة مقاتلتهم وتخريب معاقلهم وانتساف عمرانهم زاغت منهم الأبصار وبلغت القلوب الحناجر واستيقنوا أن لا عاصم لهم من أمير المسلمين فاجتمعوا إلى طاغيتهم سانجة خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة متوجعين مما أذاقهم جنود الله من سوء العذاب وأليم النكال وحملوه على الضراعة لأمير المسلمين في السلم وإيفاد الملأ من كبار النصرانية عليه في ذلك وإلا فلا تزال تصيبهم منه قارعة أو تحل قريباً من دارهم فأجاب إلى ما دعوه إليه من الخسف والهضيمة لدينه وأوفد على أمير المسلمين وهو بالجزيرة الخضراء وفداً من بطارقتهم وشمامستهم يخطبون السلم ويضرعون في المهادنة والإبقاء ووضع أوزار الحرب فردهم أمير المسلمين اعتزازاً عليهم، ثم أعادهم الطاغية بترديد الرغبة على أن يشترط ما شاء من عز دينه وقومه فأسعفهم أمير المسلمين وجنح إلى السلم لما تيقن من صاغيتهم إليه وذلهم لعز الإسلام وأجابهم إلى ما سألوه

واشترط عليهم ما تقبلوه من مسالمة المسلمين كافة من قومه وغير قومه والوقوف عند مرضاته في وِلاية جيرانه من الملوك أو عداوتهم ورفع الضريبة عن تجار المسلمين بدار الحرب من بلاده وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة، واستدعى السلطان الشيخ أبا محمد عبد الحق الترجمان وبعثه لاشتراط ذلك وإحكام عقده فسار عبد الحق إلى الطاغية سانجة وهو بإشبيلية فعقد معه الصلح واستبلغ وأكد في الوفاء بهذه الشروط، ووفدت رسل ابن الأحمر على الطاغية وهو عنده لعقد السلم معه على قومه وبلاده دون أمير المسلمين وأن يكون معه يداً واحدة عليه فأحضرهم الطاغية بمشهد عبد الحق وأسمعهم ما عقد مع أمير المسلمين على قومه وأهل ملته كافة، وقال لهم: «إنما أنتم عبيد آبائي فلستم معي في مقام السلم والحرب وهذا أمير المسلمين على الحقيقة ولست أطيق مقاومته ولا دفاعه عن نفسي فكيف عنكم» فانصرفوا ولما رأى عبد الحق ميله إلى رضا السلطان وسوس إليه بالوفادة عليه لتتمكن الألفة وتستحكم العقدة وأراه مغبة ذلك في سل السخيمة وتسكين الحفيظة فمال إلى موافقته وسأله لقي الأمير يوسف ولي عهد السلطان أولاً ليطمئن قلبه فوصل إليه ولقيه على فراسخ من شريش وباتا بمعسكر المسلمين هنالك ثم ارتحلا من الغد للقاء السلطان يعقوب وكان قد أمر الناس بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه وإظهار شعائر الإسلام وأبهته وأن لا يلبسوا إلا البياض، فاحتفلوا وتأهبوا وأظهروا عز الملة وشدة الشوكة ووفور الحامية.

وقدم الطاغية في جماعته سود اللباس خاضعين ذليلين فاجتمعوا بالأمير بحصن الصخرات على مقربة من وادي لك وذلك يوم الأحد العشرين من شعبان سنة أربع وثمانين وستمائة وتقدم الطاغية فلقيه أمير المسلمين بأحسن مبرة وأتم كرامة يلقى بها مثله من عظماء الملل وقدم الطاغية بين يديه هدية من طرف بلاده أتحف بها السلطان وولي عهده كان فيها زوج من الخيول

الوحشي المسمى بالفيل وحمارة من حمر الوحش إلى غير ذلك من الطرف فقبلها السلطان وابنه وأضعفوا له المكافأة وكمل عقد السلم وقبل الطاغية سائر الشروط ورضي بعز الإسلام عليه وانقلب إلى قومه بملء صدره من الرضى والمسرة وسأل منه السلطان أن يبعث إليه بكتب العلم التي بأيدي النصارى منذ استيلائهم على مدن الإسلام فبعث إليه منها ثلاثة عشر حملاً فيها جملة من مصاحف القرآن الكريم وتفاسيره كابن عطية والثعلبي ومن كتب الحديث وشروحاتها كالتهذيب والاستذكار ومن كتب الأصول والفروع واللغة والعربية والأدب وغير ذلك فأمر السلطان رحمه الله بحملها إلى فاس وتحبيسها على المدرسة التي أسسها بها لطلبة العلم وقفل السلطان فاحتل بقصره من الجزيرة لليلتين بقيتا من شعبان فقضى صومه ونسك عيده وجعل من قيام ليله جزأ لمحاضرة أهل العلم وأعد الشعراء كلمات أنشدوها يوم عيد الفطر بمشهد الملأ في مجلس السلطان، وكان من أسبقهم في ذلك الميدان شاعر الدولة أبو فارس عبد العزيز الملزوزي الأصل المكناسي الدار ويعرف بعزوز أتى بقصيدة طويلة من بحر الوافر على روي الباء المفتوحة المردوفة بالألف ذكر فيها سيرة السلطان وغزواته وغزوات بنيه وحفدته وامتدح قبائل مرين ورتبهم على منازلهم وذكر فضلهم وقيامهم بالجهاد وذكر قبائل العرب على اختلافها وأنشدت بمحضر السلطان والحاشية فأمر لمنشئها بألف دينار وخلعة ولمنشدها بمائتي دينار، ثم أعمل السلطان نظره في الثغور فرتب بها المسالح وبعث ولده الأمر أبا زيان منديلاً ليقف على الحد بين أرضه وأرض ابن الأحمر وعقد له على تلك الناحية وأنزله بحصن ذكوان قرب مالقة وأوصاه أن لا يحدث في بلاد ابن الأحمر حدثاً وعقد لعياد بن أبي عياد العاصمي على مسلحة أخرى وأنزله بأسطبونة وأجاز ابنه الأمير يوسف إلى المغرب لتفقد أحواله ومباشرة أموره وأمره أن يبني على قبر والده أبي الملوك عبد الحق بتافرطاست زاوية فاختط هنالك رباطاً حفيلاً وبنى على قبر الأمير

عبد الحق إدريس أسنمة من الرخام ونقشها بالكتابة ورتب عليها قراء لتلاوة القرآن ووقف على ذلك ضياعاً وأرضاً تسع حرث أربعين زوجاً رحم الله الجميع بمنّه.

وفاة السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

وفي آخر ذي القعدة من سنة أربع وثمانين وستمائة مرض السلطان يعقوب بن عبد الحق مرضه الذي توفي منه فلم يزل ألمه يشتد وحاله يضعف إلى أن توفي بقصره من الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس في ضحى يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرم فاتح سنة خمس وثمانين وستمائة وحمل إلى رباط الفتح من بلاد العدوة فدفن بمسجد شالة وقبره اليوم طامس الأعلام رحمه الله.

بقية أخبار السلطان يعقوب بن عبد الحق وسيرته

كان السلطان يعقوب رحمه الله أبيض اللون تام القد معتدل الجسم حسن الوجه واسع المنكبين كامل اللحية معتدلها أشيب نقي البياض حليماً متواضعاً جواداً مظفراً منصور الراية ميمون النقيبة لم يقصد جيشاً إلا هزمه ولا عدواً إلا قهره ولا بلداً إلا فتحه صواماً قواماً دائم الذكر كثير البر لا تزال سبحته في يده مقرباً للعلماء مكرماً للصلحاء صادراً في أكثر أموره عن رأيهم ولما استقام له الأمر بنى المرستانات للمرضى والمجانين ورتب لهم الأطباء لتفقد أحوالهم وأجرى على الكل المرتبات والنفقات من بيت المال وكذا فعل بالجذمى والعمي والفقراء رتب لهم مالاً معلوماً يقبضونه في كل شهر من جزية اليهود وبنى المدارس لطلبة العلم ووقف عليها الأوقاف وأجرى عليهم بها المرتبات كل ذلك ابتغاء ثواب الله تعالى نفعه الله بقصده.

الخبر عن دولة السلطان الناصر لدين الله
يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله تعالى

لما مرض السلطان يعقوب بقصره من الجزيرة الخضراء مرضه نساؤه وطيرن بالخبر إلى ولي عهده الأمير يوسف وكان يومئذٍ بالمغرب فاتصل به الخبر وهو بأحواز فاس فأسرع السير إلى طنجة وقد مات أبوه قبل وصوله فأخذ البيعة له الوزراء والأشياخ ولما عبر إليهم البحر واحتل بالجزيرة جددوا له البيعة غرة صفر سنة خمس وثمانين وستمائة وأخذوها له على الكافة فاستتب ملكه واستقام أمره ففرق الأموال وأجزل الصلات وسرح السجون ورفع عن الناس الأخذ بزكاة الفطر ووكلهم فيها إلى أمانتهم وكف أيدي الظلمة والعمال عن الناس وأزال المكوس ورفع الأنزال عن دور الرعية وصرف اعتناءه إلى إصلاح السابلة فأزال أكثر الرتب والقبالات التي كانت بالمغرب إلا ما كان منها في الأقطار الخالية والمفازات المخوفة فخضعت مرين تحت قهره وصلح أمر الناس في أيامه، وكان أول شيء أحدث من أمره أن بعث إلى ابن الأحمر وضرب له موعداً للاجتماع به فبادر إليه ولقيه بظاهر مربالة في العشر الأول من ربيع الأول من السنة المذكورة فلقاه السلطان مبرة وتكريماً وتجافى له عن جميع الثغور الأندلسية التي كانت في ملكة أبيه ونزل له عنها ما عدى الجزيرة ورندة وطريف وتفرقا من مكانهما على أكمل حالات المصافاة والوصلة ورجع السلطان يوسف إلى الجزيرة فقدم عليه بها وفد الطاغية سانجة مجددين عقد السلم الذي عقده لهم السلطان يعقوب رحمه الله.

ولما تمهد للسلطان يوسف أمر الأندلس عقد لأخيه أبي عطية العباس بن يعقوب على الثغور الغربية وأوصاه بضبطها وعقد للشيخ المجاهد أبي الحسن علي بن يوسف بن يزكاتن على مسلحتها وجعل إليه أمر الحرب وأعنة الخيل وأمده بثلاثة آلاف من بني مرين والعرب ثم عبر البحر إلى المغرب يوم

الاثنين سابع ربيع الآخر من السنة المذكورة فنزل بقصر المجاز ثم سار إلى حضرة فاس فدخلها ثاني عشر جمادى الأولى منها ولحين استقراره بها خرج عليه محمد بن إدريس بن عبد الحق في بنيه وإخوته ومن انضم إليه ولحق بجبال ورغة ودعا لنفسه فسرح إليه السلطان يوسف أخاه أبا معرف محمد بن يعقوب فبدا له في النزوع إليهم فلحق بهم وشايعهم على رأيهم من الخلاف فأغزاهم السلطان يوسف عساكره وردد إليهم البعوث والكتائب ثم تلطف في استنزال أخيه حتى نزل على الأمان وفر بنو إدريس إلى تلمسان فقبض عليهم أثناء طريقهم وجيء بهم في الحديد إلى تازا فبعث السلطان يوسف أخاه أبا زيان فقتلهم خارج باب الشريعة منها في رجب من السنة ورهب الأعياص من بني عبد الحق يومئذٍ وخافوا بادرة السلطان يوسف فلحقوا بغرناطة ملتفين على بني إدريس منهم ثم ارتحل السلطان في رمضان من السنة المذكورة إلى مراكش لتمهيد نواحيها وتثقيف أطرافها فدخلها في شوال وأقام بها إلى رمضان القابل من سنة ست وثمانين وستمائة فنهض من مراكش لغزو عرب معقل بصحراء درعة لأنهم كانوا قد أضروا بالرعايا وأفسدوا السابلة فسار إليهم في اثني عشر ألفاً من الخيل ومر على بلاد هسكورة معترضاً جبل درن وأدركهم نواجع بالقفر فأثخن فيهم بالقتل والسبي واستكثر من رؤوسهم فعلقت بشرفات مراكش وسجلماسة وفاس وقفل من غزوه آخر شوال من السنة المذكورة إلى مراكش فنكب محمد بن علي بن محلى عاملها القديم الولاية بها من لدن انقراض الدولة الموحدية لما وقع من الارتياب بأولاد محلى بكثرة خروجهم على الدولة وكانت نكبته غرة محرم سنة سبع وثمانين وستمائة وهلك في السجن في صفر الموالي له، وعقد السلطان يوسف على مراكش وأعمالها لمحمد بن عطوا الجاناتي من موالي دولتهم ولاء حلف وترك معه ابنه أبا عامر عبد بن يوسف ثم ارتحل السلطان يوسف إلى فاس فدخلها منتصف ربيع من السنة المذكورة.

قدوم بني اشقيلولة على السلطان يوسف بسلا وإقطاعه إياهم قصر كتامة والسبب في ذلك

قد تقدم لنا أن بني اشقيلولة كانوا من وجوه الأندلس وأهل الرياسة بها حتى صاهرهم ابن الأحمر بابنته وأخته وقاموا معه في إثبات قواعد ملكه ثم انحرفوا عنه إلى موالاة بني مرين ونزل محمد بن عبد الله بن أبي الحسن منهم إلى السلطان يعقوب عن مالقة وكان عمه أبو إسحاق بن أبي الحسن صاحب وادي آش وأعمالها واتصل ذلك في بنيه إلى أن بويع السلطان يوسف فقاموا بدعوته فيها ثم حصلت المصافاة وتأكدت المودة بين السلطان يوسف وابن الأحمر على ما أسلفناه آنفاً فطلب ابن الأحمر من السلطان يوسف أن ينزل له عن واد آش التي هي لبني اشقيلولة المتمسكين بدعوته كما نزل له عن غيرها من الثغور فأجابه السلطان إلى ذلك وكتب إلى أبي الحسن بن إسحاق بن اشقيلولة يأمره بالتخلي له عنها فتركها له وعبر هو وحاشيته البحر إلى السلطان يوسف سنة سبع وثمانين المذكورة فلقيه بمدينة سلا فأعطاه السلطان يوسف القصر الكبير وأعماله طعمة سوغه إياها فلم تزل ولايته متوارثة في بنيه حتى انقرضوا آخر دولة بني مرين واستمكن ابن الأحمر من وادي آش وحصونها ولم يبق له بالأندلس منازع من قرابته والله أعلم.

حدوث الفتنة بين السلطان يوسف وعثمان بن يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان

قد تقدم لنا أن يغمراسن لما حضرته الوفاة أوصى ابنه عثمان أن لا يحدث مع بني مرين حرباً ولا يواقفهم في زحف ما استطاع لاستغلاظ أمرهم عليه بملكهم المغرب الأقصى وأعماله وأن عثمان قد عمل على ذلك فأوفد أخاه محمد بن يغمراسن على السلطان يعقوب بالأندلس وعقد معه السلم

ورجع إلى أخيه كما تقدم ولما ولي السلطان يوسف وقفل من مراكش إلى فاس في هذه المرة بعد أن ترك ابنه أبا عامر عبد الله مع محمد بن عطوا عامل مراكش ثار أبو عامر المذكور بها وخلع طاعة أبيه ودعا إلى نفسه وشايعه ابن عطوا على ذلك واتصل الخبر بالسلطان يوسف وهو بفاس فأسرع السير إلى مراكش وبرز إليه ابنه أبو عامر فاقتتلوا ثم انهزم أبو عامر فعاد إلى مراكش واكتسح بيت المال بها وفر إلى تلمسان ومعه ابن عطوا المذكور فقدماها سنة ثمان وثمانين وستمائة فآواهم عثمان بن يغمراسن ومهد لهم المكان فلبثوا عنده ملياً.

ثم عطف السلطان على ابنه الرحم فرضي عنه وأعاده إلى مكانه وطالب عثمان بن يغمراسن أن يسلم إليه ابن عطوا الناجم في النفاق مع ابنه فأبى من إضاعة جواره وإخفار ذمته وأغلظ له الرسول في القول فسطا به عثمان واعتقله فثارت من السلطان يوسف الحفائظ الكامنة وتحركت منه الإحن القديمة والنزغات المتوارثة فاعتزم على غزو تلمسان ونهض إليها من مراكش في صفر من سنة تسع وثمانين وستمائة بعذ أن عقد عليها لابنه الأمير أبي عبد الرحمٰن يعقوب بن يوسف ثم نهض من فاس إليها آخر ربيع الآخر من سنته في عساكره وجنوده وحشد القبائل وكافة أهل المغرب وسار حتى نازل تلمسان فتحصن منه عثمان وقومه بأسوارها فحاصره السلطان يوسف وضيق عليه ونصب عليه المجانيق وكان حصاره إياها في رمضان من السنة المذكورة ثم سار في نواحيها ينسف الآثار ويخرب القرى ويحطم الزروع ثم نزل بذراع الصابون من ناحيتها ثم انتقل منه إلى تامت وحاصرها أربعين يوماً وقطع أشجارها وأباد خضراءها ولما امتنعت عليه أفرج عنها وانكفأ راجعاً إلى المغرب وقضى نسك الفطر بعين الصفا من بلاد بني يزناسن ونسك الأضحى وقربانه بتازا وتلبث بها أياماً ثم نهض منها إلى الأندلس بقصد الجهاد على ما نذكره.

انتقاض الطاغية سانجة وإجازة السلطان يوسف إليه

لما رجع السلطان يوسف من غزو تلمسان وافاه الخبر وهو بتازا أن الطاغية سانجة قد انتقض ونبذ العهد وتجاوز التخوم وأغار على الثغور، فأوعز السلطان إلى قائد المسالح بالأندلس علي بن يوسف بن يزكاتن بالدخول إلى دار الحرب ومنازلة شريش وشن الغارات على بلاد الطاغية، فنهض لذلك في ربيع الآخر من سنة تسعين وستمائة وجاس خلالها وتوغل في أقطارها وأبلغ في النكاية.

ثم فصل السلطان يوسف من تازا غازياً أثره في جمادى الأولى من السنة المذكورة واحتل قصر مصمودة وهو قصر المجاز واستنفر أهل المغرب وقبائله فنفروا وشرع في إجازتهم البحر، فبعث الطاغية أساطيله إلى الزقاق حجزاً لهم دون الإجازة فأوعز السلطان يوسف إلى قواد أساطيله بالسواحل بعمارتها لمقابلة أساطيل العدو ففعلوا، وقدست فالتقت مع أساطيل العدو ببحر الزقاق في شعبان من السنة فاقتتلوا وانكشف المسلمون ومحصهم الله وقتل قواد الأساطيل، فأمر السلطان يوسف باستئناف العمارة ثم أغزاهم ثانية فخامت أساطيل العدو عن اللقاء وصاعدوا عن الزقاق فملكته أساطيل السلطان، فأجاز أخريات رمضان من السنة واحتل بطريف ثم دخل دار الحرب غازياً فنازل حصن بجير ثلاثة أشهر وضيق عليهم وبث السرايا في أرض العدو، وردد الغارات على شريش وإشبيلية ونواحيها إلى أن بلغ في النكاية والإثخان غرضه وقضى من الجهاد وطره، وهجم عليه فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر فأفرج عن الحصن ورجع إلى الجزيرة الخضراء ثم عبر إلى المغرب فاتح سنة إحدى وتسعين وستمائة، فتظاهر ابن الأحمر والطاغية على منعه من الجواز مرة أخرى كما نذكره الآن.

حدوث الفتنة بين السلطان يوسف وابن الأحمر واستيلاء الطاغية على طريف بمظاهرة ابن الأحمر له عليها

لما قفل السلطان يوسف من الأندلس وقد أبلغ في نكاية العدو كما قلنا عظم على الطاغية أمره وثقلت عليه وطأته فشرع في إعمال الحيلة في الإفساد بينه وبين ابن الأحمر، وكان ابن الأحمر يتخوف من السلطان يوسف أن يغلبه على بلاده فخلص مع الطاغية نجيا وتفاوضا في أمر السلطان يوسف وأن تمكنه من الإجازة إليهم إنما هو لقرب مسافة بحر الزقاق وانتظام ثغور المسلمين حفافيه وتصرف شوانيهم وسفنهم فيه متى أرادوا فضلاً عن الأساطيل الجهادية وأن أم تلك الثغور هي طريف وأنهم إذا استمكنوا منها منعوا السلطان من العبور وكانت عيناً لهم على الزقاق وكان أسطولهم بمرفئها رصداً لأساطيل صاحب المغرب الخائضة لجة ذلك البحر، فاعتزم الطاغية على منازلة طريف وبها يومئذٍ مسلحة بني مرين وتكفل له ابن الأحمر بمظاهرته على ذلك والتزم له بالمدد والميرة للعسكر أيام منازلتها على أن تكون له إن خلصت للطاغية، وتعاهدوا على ذلك وأناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف وألح عليها بالقتال ونصب الآلات من المجانيق والعرادات وأحاط بها براً وبحراً، وانقطع المدد والميرة عن أهلها وحالت أساطيل العدو بينهم وبين صريخ السلطان واضطرب ابن الأحمر معسكره بمالقة قريباً من عسكر الطاغية وسرب إليه المدد من الرجال والسلاح والميرة وأصناف الأقوات، وبعث عسكراً لمنازلة حصن إسطبونة فتغلب عليه بعد مدة من الحصار، واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب أهل طريف الجهد ونال منهم الحصار فراسلوا الطاغية في الصلح والنزول عن البلد، فصالحهم واستنزلهم وتملكها آخر يوم من شوال سنة إحدى وتسعين وستمائة ووفى لهم بما عاهدهم عليه واستشرف ابن الأحمر إلى تجافي الطاغية له عنها حسبما تعاهدا عليه فأعرض عن ذلك واستأثر بها بعد أن كان نزل له عن ستة من الحصون عوضاً عنها فخرج من يده الجميع ولم

يحصل على طائل فكانت حاله في ذلك كحال صاحبة النعامة المضروب بها المثل عند العرب وبالله تعالى التوفيق.

ثورة عمر بن يحيى بن الوزير الوطاسي بحصن تازوطا

اعلم أن بني وطاس فخذ من بني مرين لكنهم ليسوا من بني عبد الحق وكانت الرياسة فيهم لبني الوزير منهم، وبنو الوزير يزعمون أن نسبهم دخيل في مرين وأنهم من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمتوني لحقوا بالبادية ونزلوا على بني وطاس فالتحموا بهم ولبسوا جلدتهم وحازوا رياستهم، ولما دخل بنو مرين المغرب واقتسموا أعماله كما قدمنا بقيت بلاد الريف خالصة لبني وطاس هؤلاء فكانت ضواحيها لنزولهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم وكان حصن تازوطا بها من أمنع معاقل المغرب، ولما غلب الأمير أبو بكر بن عبد الحق على مكناسة وأقام فيها دعوة الحفصيين ونهض السعيد بن المأمون الموحدي من مراكش لغزوه فر أمامه إلى حصن تازوطا هذا ونزل به على بني الوزير هؤلاء لاجئاً إليهم ومستجيراً بهم فأرادوا الفتك به غيرة منه وحسداً له فشعر بهم وتحول عنهم إلى عين الصفا من بلاد بني يزناسن حسبما تقدم ذلك كله.

ولما انقرض أمر بني عبد المؤمن واستقام ملك المغرب لبني مرين صرفوا عنايتهم إلى هذا الحصن فكانوا ينزلون به من الحامية من يثقون بغنائه واضطلاعه ليكون آخذاً بناصية هؤلاء الرهط من بني وطاس لما يعلمون من سموهم إلى الرياسة وتطلعهم إليها، وكان السلطان يوسف رحمه الله قد عقد على هذا الحصن لابن أخيه منصور بن عبد الواحد بن يعقوب، وكان عمر وعامر ابنا يحيى ابن الوزير رئيسين على بني وطاس لذلك العهد فاستهونوا أمر السلطان يوسف بعد موت والده وحدثوا أنفسهم بالثورة في ذلك الحصن والاستبداد بتلك الناحية، فوثب عمر بن يحيى منهم بمنصور بن عبد الواحد في شعبان من سنة إحدى وتسعين

وستمائة وفتك بحاشيته ورجاله وأزعجه عن الحصن وغلبه على ما كان بقصره من مال وسلاح ومتاع وأعشار للروم كانت مختزنة هنالك وضبط الحصن وشحنه برجاله ووجوه قومه ولحق منصور بن عبد الواحد بعمه السلطان يوسف فهلك لليال أسفاً على ما أصابه.

وسرح السلطان يوسف وزيره الناصح أبا عمر بن السعود بن خرباش الحشمي بالحاء المهملة في العساكر لمنازلة حصن تازوطا فأناخ عليه بكلكله ثم تبعه السلطان يوسف على أثره وفي صحبته عامر بن يحيى بن الوزير أخو عمر الثائر، فإنه كان قد نزع إليه فأحاط السلطان بالحصن وضيق عليه حتى أشفق عمر لشدة الحصار ويئس من الخلاص وظن أنه قد أحيط به فدس إلى أخيه عامر في كشف ما نزل به، فضمن عامر للسلطان يوسف نزول أخيه إن هو تركه يصعد إليه حتى يجتمع به فأذن له السلطان يوسف في ذلك فصعد إليه وتفاوضا في أمرهما وآخر الأمر أن عمر احتمل الذخيرة وفر ليلاً إلى تلمسان وبدا لعامر في النزول عندما صار في الحصن فامتنع به قيل لأنه بلغه أن السلطان يوسف عزم على قتله أخذاً بثار ابن أخيه منصور ولإفلاته أخاه من يده.

واستمر على ذلك إلى أن قدم على السلطان يوسف وفد الأندلس وفيهم الرئيس أبو سعيد فرج بن إسماعيل بن الأحمر صاحب مالقة راغباً في الصلح مع ابن عمه ومعتذراً عنه فأرسى أساطيله بمرسى غساسة ونزل إلى السلطان وقدم بين يده هدية تناسب الحال فسمع بهم عامر الوطاسي وهو في الحصن فبعث إليهم يسألهم الشفاعة له عند السلطان يوسف لوجاهتهم لديه فشفع له الرئيس أبو سعيد فقبل السلطان يوسف شفاعته بشرط أن ينتقل بحاشيته إلى الأندلس وكره عامر ذلك فأظهر الرضا وقدم بين يديه جماعة من حاشيته إلى المرسى وركب أكثرهم الأسطول وتأخر عامر إلى جوف الليل فنزل من الحصن وخاض الفلاة إلى تلمسان فتبعت الخيل أثره ففاتهم وأدركوا ولده أبا الخيل فجيء به إلى السلطان يوسف فبعث به إلى فاس فضربت عنقه وصلب

هنالك، وأنزل السلطان يوسف بقية الحاشية من الأسطول فأمر بهم فاستلحموا مع من كان بالحصن من أتباعهم وقرابتهم وذرياتهم، وتملك السلطان يوسف حصن تازوطا وأنزل به عماله ومسلحته وقفل إلى حضرته بفاس آخر جمادى الأولى من سنة اثنتين وتسعين وستمائة.

ولما كان السلطان نازلاً على تازوطا قدم عليه رجل من فرنج جنوة بهدية جليلة فيها شجرة مموهة بالذهب عليها أطيار تصوت بحركات هندسية مثل ما صنع للمتوكل العباسي، وفي هذه المدة سعي عند السلطان يوسف بأولاد الأمير أبي بكر بن عبد الحق وأنهم أرادوا الخروج عليه فحقد عليهم لذلك وأحسوا بالشر ففروا إلى تلسمان وأقاموا هنالك إلى أن بعث السلطان يوسف إليهم بالأمان فأقبلوا حتى إذا كانوا بصبرة من ناحية ملوية اعترضهم الأمير أبو عامر عبد الله ابن السلطان يوسف فاستلحمهم أجمعين وهو يرى أنه قد أرضى أباه بذلك الفعل، واتصل الخبر بالسلطان يوسف فسخطه وأقصاه وتبرأ منه فلم يزل طريداً ببلاد الريف وجبال غمارة إلى أن هلك ببني سعيد منهم آخر سنة ثمان وتسعين وستمائة وحمل إلى فاس فدفن بالزاوية التي داخل باب الفتوح وخلف ثلاثة أولاد عامر وسليمان وداود فكفلهم جدهم السلطان يوسف إلى إن هلك فولي الأمر بعده حافده عامر وبعد عامر سليمان وسيأتي ذكرهما إن شاء الله.

انعقاد الصلح بين السلطان يوسف وابن الأحمر ووفادته عليه بطنجة

لما استولى الطاغية على طريف بمظاهرة ابن الأحمر له عليها ونقض الطاغية عهد ابن الأحمر في النزول له عنها سقط في يد ابن الأحمر وندم على فعله ورجع إلى التمسك بالسلطان يوسف، فأوفد عليه ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن إسماعيل ووزيره أبا سلطان عزيز الداني في وفد من أهل حضرته لتجديد العهد وتأكيد المودة وتقرير المعذرة عن شأن طريف، فوافوه

بمكانه من حصار تازوطا كما قدمنا فأبرموا العقد وأحكموا الصلح وانصرفوا إلى ابن الأحمر سنة اثنتين وتسعين وستمائة بإسعاف غرضه من المؤاخاة واتصال اليد، فوقع ذلك منه أجمل موقع وطار سروراً من أعواده، وأجمع الرحلة إلى السلطان لإحكام العقد والاستبلاغ في العذر عن واقعة طريف والرغبة إليه في نصرة بلاد الأندلس وإغاثة المسلمين الذين بها، فتهيأ لذلك وعبر البحر في ذي القعدة من سنة اثنتين وتسعين وستمائة واحتل بجبل بيونش من ناحية سبتة، ثم ارتحل إلى طنجة فلقيه بها الأميران أبو عامر عبد الله وأبو عبد الرحمٰن يعقوب ابنا السلطان يوسف وكان أبو عامر لا زال يومئذٍ من أبيه بعين الرضا.

ولما علم السلطان يوسف بقدومه خرج من فاس للقائه وبرور مقدمه فوافاه بطنجة فقدم ابن الأحمر بين يدي نجواه هدية أتحف بها السلطان يوسف كان من أحسنها موقعاً لديه المصحف الكبير الذي يقال إنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه كان بنو أمية يتوارثونه بقرطبة ثم خلص إلى ابن الأحمر فأتحف به السلطان يوسف في هذه المرة، فقبل السلطان ذلك وكافأه بأضعافه وبالغ في تكرمته وأسعفه بجميع مطالبه وأراد ابن الأحمر أن يبسط العذر عن شأن طريف فتجافى السلطان يوسف عن سماع ذلك وأضرب عن ذكره صفحاً وبر وأحفى ووصل وأجزل، ونزل[1] لابن الأحمر عن الجزيرة ورندة والغربية وعشرين حصناً من ثغور الأندلس كانت قبل في ملكته وملكة أبيه، وعاد ابن الأحمر إلى أندلسه آخر سنة اثنتين وتسعين وستمائة محبواً محبوراً وعبرت معه عساكر السلطان يوسف لحصار طريف ومنازلته وعقد على حربها لوزيره الشهير الذكر عمر بن السعود بن خرباش الحشمي فنازلها مدة فامتنعت عليه وأفرج عنها.

وفي سنة ثلاث وتسعين بعدها فرغ السلطان يوسف من بناء جامع تازا

---

(1) في النسخة الصحيحة من ابن خلدون طبع الجزائر أن النازل عن هذه الثغور هو ابن الأحمر للسلطان يوسف هو ما يقتضيه الحال.

وعلقت به الثريا الكبرى من النحاس الخالص وزنها اثنان وثلاثون قنطاراً وعدد كؤوسها خمسمائة كأس وأربعة عشر كأساً، وأنفق السلطان في بناء الجامع وعمل الثريا المذكورة ثمانية آلاف دينار ذهباً.

وفي سنة أربع وتسعين بعدها خرج السلطان يوسف لغزو تلمسان فوصل إلى تاوريرت وكانت تخماً لعمل بني مرين وبني عبد الواد، فنصفها للسلطان يوسف ونصفها لعثمان بن يغمراسن ولكل واحد منهما بها عامل من ناحيته فطرد السلطان يوسف عامل ابن يغمراسن وشرع في بناء الحصن الذي هنالك فأدار سوره وشيده وركب أبوابه مصفحة بالجديد وكان يقف على بنائه بنفسه من صلاة الغداة إلى المساء لا يغيب عن العملة إلا في أوقات الضرورة، وفرغ من بنائه وتحصينه في رمضان من السنة المذكورة ولما تم شحنه بالعسكر والسلاح وعقد عليه لأخيه أبي بكر بن يعقوب ويكنى أبا يحيى وانكفأ راجعاً إلى الحضرة، ثم خرج من فاس سنة خمس وتسعين بعدها بقصد تلمسان فسار حتى نزل على ندرومة فحاصرها وشدد في قتالها ورماها بالمنجنيق أربعين يوماً فامتنعت عليه فأفرج عنه ثاني عيد الفطر من السنة المذكورة، ثم دخلت سنة ست وتسعين وستمائة فسار إلى تلمسان وبرز عثمان بن يغمراسن لمدافعته فانهزم وتحصن بالأسوار وتقدم السلطان يوسف حتى نزل على تلمسان وقتل من أهلها خلقاً ثم أقلع عنها ورجع إلى المغرب فقضى نسك الأضحى من السنة المذكورة برباط تازا وأمر ببناء القصر بها، وسار إلى فاس فدخلها فاتح سنة سبع وتسعين وستمائة ثم ارتحل إلى مكناسة فقضى بها بعض الوطر ثم عاد إلى فاس، ثم خرج منها في جمادى الأولى من السنة المذكورة غازياً تلمسان ومر في طريقه بمدينة وجدة فأمر ببنائها وكان أبوه السلطان يعقوب قد هدمها كما مر فبناها السلطان يوسف في هذه المرة وحصن أسوارها وبنى بها قصبة وداراً لسكناه وحماماً ومسجداً ثم سار إلى تلمسان فنزل بساحتها وأحاطت عساكره بها إحاطة الهالة بالقمر ونصب عليها القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار اخترعها المهندسون والصناع وتقربوا إلى السلطان

بعملها فأعجبته وكانت تحمل على أحد عشر بغلاً ولما امتنعت تلمسان عليه أفرج عنها فاتح سنة ثمان وتسعين وستمائة ومر في عوده إلى المغرب بوجدة فأنزل بها الحامية من بني عسكر بن محمد لنظر أخيه الأمير أبي بكر بن يعقوب كما كانوا بتاوريرت وأمرهم بشن الغارات على أعمال تلمسان مع الساعات والأحيان ففعلوا واستولى الأمير أبو بكر بذلك على أكثر تلك الجهات والله تعالى أعلم.

فتكة ابن الملياني بشيوخ المصامدة وتزويره الكتاب بهم والسبب في ذلك

قد تقدم لنا عند الكلام على فتح جبل تنيملل أن أبا علي الملياني كان قد سعى في نبش قبور بني عبد المؤمن والعبث بأشلائهم وأن الناس قد غاظهم ذلك لا سيما المصامدة منهم، ولما هلك السلطان يعقوب وولي بعده ابنه يوسف استعمل أبا علي الملياني على جباية المصامدة فباشرها مدة ثم سعى به شيوخ المصامدة عند السلطان بأنه احتجن المال لنفسه، فأمر السلطان بمحاسبته فحوسب وظهرت مخايل صدقهم عليه فنكبه السلطان يوسف أولاً ثم قتله ثانياً، واصطنع ابن أخيه أبا العباس[1] أحمد بن علي الملياني واستعمله في كتابته وأقامه ببابه في جملة كتابه، وكان السلطان يوسف قد سخط على بعض شيوخ المصامدة منهم علي بن محمد كبير هنتاتة وعبد الكريم بن عيسى كبير قدميوة وأوعز إلى ابنه الأمير علي بن يوسف بمراكش باعتقالهما فاعتقلهما فيمن لهما من الولد والحاشية، وأحس بذلك أحمد بن الملياني فاستعجل الثأر الذي كان يعتده عليهم في عمه أبي علي.

وكانت العلامة السلطانية يومئذٍ موكولة إلى كتاب الدولة لم تختص بواحد منهم لما كانوا كلهم ثقات أمناء وكانوا عند السلطان كأسنان المشط فكتب أحمد بن الملياني إلى الأمير أبي علي كتاباً على لسان والده يأمره فيه أمراً جزماً

(1) انظر ترجمته في الإحاطة ج1/ 149.

بقتل مشيخة المصامدة ولا يمهلهم طرفة عين ووضع عليه العلامة التي تنفذ بها الأوامر السلطانية وختم الكتاب وبعث به مع البريد، قال ابن الخطيب: «ولما أكد على حامله في العجل وضايقه في تقدير الأجل تأنى حتى إذا علم أنه قد وصل وأن غرضه قد حصل فر إلى تلمسان وهي بحال حصارها فاتصل بأنصارها حالاً بين أنوفها وأبصارها وتعجب الناس من فراره وسوء اغتراره ورجمت الظنون في آثاره ثم وصلت الأخبار بتمام الحيلة واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة فتركها شنعاء على الأيام وعاراً في الأقاليم على حملة الأقلام» اهـ ولما وصل الكتاب إلى ولد السلطان أخرج أولئك الرهط المعتقلين إلى مصارعهم وحكم السيف في رقاب جميعهم فقتل علي بن محمد الهنتاتي وولده وعبد الكريم بن عيسى القدميوي وبنوه الثلاثة عيسى وعلي ومنصور وابن أخيه عبد العزيز بن محمد، وطير الأمير علي بالإعلام إلى والده مع بعض وزرائه وهو يرى أنه قد امتثل الأمر واستوجب الشكر.

فلما وصل الرسول بالخبر إلى السلطان يوسف بطش به فقتله غيظاً عليه وأنفذ البريد في الحال باعتقال ولده وقام وقعد لذلك ومن ذلك الوقت قصر السلطان علامته على من يختاره من ثقات الكتاب وعدولهم، وجعلها يومئذٍ للفقيه الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مدين وكان من الكفاة المضطلعين بأمور الدولة المتحملين للكثير من أعبائها، وأما ابن الملياني فإنه فر إلى تلمسان والسلطان يوسف محاصر لها ولما وقع الإفراج عنها بعد حين انتقل إلى الأندلس فبقي هنالك إلى أن توفي بغرناطة سنة خمس عشرة وسبعمائة ومن شعره يفخر بهذه الفعلة وغيرها قوله:

العز ما ضربت عليه قبابي ... والفضل ما اشتملت عليه ثيابي
والزهر ما أهداه غصن يراعتي ... والمسك ما أبداه نقس كتابي
فالمجد يمنع أن يزاحم موردي ... والعزم يأبى أن يضام جنابي
فإذا بلوت صنيعة جازيتها ... بجميل شكري أو جزيل ثوابي
وإذا عقدت مودة أجريتها ... مجرى طعامي من دمي وشرابي
وإذا طلبت من الفراقد والسهى ... ثاراً فأوشك أن أنال طلابي

الحصار الطويل وما تخلل ذلك من الأحداث على تلمسان

تقدم لنا أن السلطان يوسف لما رجع من محاصرة تلمسان فاتح سنة ثمان وتسعين وستمائة مر في طريقه بوجدة فأنزل بها الحامية من بني عسكر إلى نظر أخيه الأمير أبي بكر وأمره بشن الغارات على أعمال بني زيان فامتثل الأمير أبو بكر أمره وألح على النواحي بالغارات وإفساد السابلة، فضاق أهل ندرومة بذلك ذرعاً وأوفدوا وفداً منهم على الأمير أبي بكر يسألونه الأمان لهم ولمن وراءهم من قومهم على أن يمكنوه من قياد بلدهم ويدينوا بطاعة السلطان يوسف فبذل لهم من ذلك ما أرضاهم، ونهض إلى البلد فدخله بعسكره وتبعهم على ذلك أهل تاونت فأوفد الأمير أبو بكر جماعة من أهل البلدين على أخيه السلطان يوسف فقدموا عليه منتصف رجب من سنة ثمان وتسعين المذكورة فأدوا طاعتهم فقبلها، ورغبوا إليه في الحركة إلى بلادهم ليريحهم من ملكة عدوه وعدوهم عثمان بن يغمراسن ووصفوا له من عسفه وجوره وضعفه عن الحماية ما أكد عزمه على النهوض، فنهض لحينه من فاس في رجب المذكور بعد أن استكمل حشده ونادى في قومه وعرض عسكره وأجزل أعطياتهم وأزاح عللهم، وسار في التعبية حتى نزل بساحة تلمسان ثاني شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة فأناخ عليها بكلكله وربض قبالتها على ترائبه وأنزل محلته بفنائها وأحاط بجميع جهاتها، وتحصن يغمراسن وقومه بالجدران وعولوا على الحصار.

ولما رأى السلطان يوسف ذلك أدار سوراً عظيماً جعله سياجاً على تلمسان وما اتصل بها من العمران وصيرها في وسطه، ثم أردف ذلك السور من ورائه بحفير بعيد المهوى وفتح فيه مداخل لحربها ورتب على أبواب تلك المداخل مسالح تحرسه، وأوعد بالعقاب من يختلف إلى تلمسان برفق أو يتسلل إليها بقوت وأخذ بمخنقها من بين يديها ومن خلفها حتى لم يخلص

إليها الطير لا بل الطيف، واستمر مقيماً عليها كذلك مائة شهر، ولما دخلت سنة اثنتين وسبعمائة اختط إلى جانب ذلك السور بمكان فسطاطه وقبابه قصراً لسكانه واتخذ به مسجداً لصلاته وأدار عليهما سوراً يحرزهما، ثم أمر الناس بالبناء حول ذلك فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الأنيقة واتخذوا البساتين وأجروا المياه، وأمر السلطان باتخاذ الحمامات والفنادق والمارستان، وابتنى مسجداً جامعاً أقامه على الصهريج الكبير وشيد له مناراً رفيعاً وجعل على رأسه تفافيح من ذهب صير عليها سبعمائة دينار ثم أدار السور على ذلك كله فصارت مدينة عظيمة استبحر عمرانها ونفقت أسواقها ورحل إليها التجار بالبضائع من جميع الآفاق وسماها المنصورة، فكانت من أعظم أمصار المغرب وأحفلها إلى أن خربها آل يغمراسن عند مهلك السلطان يوسف وارتحال جيوشه عنها، ولما تمكن السلطان يوسف من حصار تلمسان سرح كتائبه وسراياه في أعمالها وحصونها فاستولى في مدة قريبة على ندرومة وهنين ووهران وتالموت وتامزردكت ومستغانم وتنس وشرشال وبرشك والبطحاء ومازونة ووانشريس ومليانة والقصبات ولمدية وتافرجينت، وجميع بلاد بني عبد الواد وبلاد بني توجين وبلاد مغراوة وبايعه ابن علان صاحب الجزائر وأخذ رعبه بملوك النواحي، وكانت دولة بني أبي حفص يومئذٍ قد انقسمت بقسمين فصار كرسي منها بتونس وآخر ببجاية فتنافس صاحب تونس وصاحب بجاية في مصانعة السلطان يوسف والتقرب إليه بالهدايا والتحف وصار السلطان يوسف في ذلك الوقت ملك المغرب على الحقيقة والإطلاق والله غالب على أمره.

نكبة بني وقاصة من يهود فاس

كان بنو وقاصة هؤلاء من يهود ملاح فاس وكانوا مداخلين للسلطان يوسف من صغره إلى كبره، وكانوا يتولون قهرمة داره ويقضون أموره الخاصة

به ويخلصون إلى الكثير من باطن أمره، قد التحموا به التحاماً وامتزجوا به امتزاجاً يجالسونه في خلواته وينادمونه في أنسه، فعظم جاههم عند الحاشية لإقبال السلطان عليهم واستتبعوا الوزراء فمن دونهم من رجال الدولة، وتعددت فيهم الرؤساء والقهارمة فكان منهم خليفة بن وقاصة وأخوه إبراهيم وصهره موسى بن السبتي وابن عمه خليفة الأصغر وغيرهم واستمروا على ذلك برهة من الدهر، ثم إن السلطان يوسف استفاق استفاقة والتفت إليهم التفاتة وراجع بصيرته في شأنهم فأهمه أمرهم وشعر كاتبه بذلك القائم بأمور دولته أبو محمد عبد الله بن أبي مدين، فسعى عنده فيهم وأوجده السبيل عليهم فسطا بهم سطوة منكرة واعتقلوا في شعبان من سنة إحدى وسبعمائة بمعسكره من حصار تلمسان وقتل خليفة الكبير وأخوه إبراهيم وموسى بن السبتي وإخوته بعد أن امتحنوا ومثل بهم وأتت النكبة على حاشيتهم وأقاربهم فلم تبق منهم باقية، إلا أن السلطان استبقى منهم خليفة الأصغر احتقاراً لشأنه حتى كان من قتله بعد ما نذكره، وعبث بسائرهم وطهرت الدولة من رجسهم وأزيل منها معرة رياستهم والأمور بيد الله سبحانه.

ثم لما كانت سنة ثلاث وسبعمائة توفي عثمان بن يغمراسن في الحصار عقب شربة لبن يقال إنه جعل فيها سماً وشربه فعل ذلك بنفسه تفادياً من معرة غلبة عدوه عليه، فاجتمع بنو عبد الواد لحينهم وبايعوا ابنه محمد بن عثمان واجتمعوا عليه ثم برزوا إلى قتال عدوهم على العادة حتى كأن عثمان لم يمت وبلغ الخبر إلى السلطان يوسف فتفجع على عثمان وعجب من صرامة قومه من بعده.

انتقاض ابن الأحمر واستيلاء الرئيس أبي سعيد على سبتة

كان محمد بن الأحمر المعروف بالفقيه قد هلك سنة إحدى وسبعمائة، وولي الأمر بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع واستبد عليه كاتبه أبو عبد الله محمد بن الحكيم الرندي، وكان من أول ما فعله محمد المخلوع بعد استقلاله بالأمر المبادرة إلى أحكام عقد الموالاة بينه وبين السلطان يوسف فأوفد عليه وزير أبيه أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الداني ووزيره الكاتب أبا عبد الله بن الحكيم، فوصلا إلى السلطان يوسف بمعسكره من حصار تلمسان فتلقاهما بالقبول والمبرة وجددت لهما أحكام الود والولاية وانقلبا إلى مرساهما خير منقلب وطلب السلطان منهما أن يمدوه بالرجل من عسكر الأندلس وناشبتهم المعودين منازلة الحصون والمثاغرة بالرباط فأسعفوه، ثم فسد ما بينهما لمنافسات جرت إلى ذلك فانتقض ابن الأحمر وعاد لسنة سلفه من موالاة الطاغية وممالاته على المسلمين أهل المغرب وأحكم العهد مع هراندة بن سانجة من بني أذفونش ملوك قشتالة خذلهم الله.

ثم أوعز ابن الأحمر إلى ابن عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل صاحب مالقة في إعمال الحيلة في الغدر بأهل سبتة ففعل، وداخل في ذلك بعض عمال بني العزفي بها فأمكنه من البلد فاقتحمها بأساطيله وجنده على حين غفلة من أهلها وتقبض على بني العزفي وعلى حاشيتهم وأركبهم الأسطول وبعث بهم إلى مالقة ثم منها إلى غرناطة فتلقاهم ابن الأحمر واحتفل لهم وأنزلهم بقصوره وأجرى عليهم النفقة واستقروا بالأندلس برهة من الدهر ثم عادوا إلى المغرب كما نذكر وأسند الرئيس أبو سعيد بأمر سبتة وثقف أطرافها وسد ثغورها وبلغ الخبر بذلك إلى السلطان يوسف فحمى أنفه وعظم عليه الأمر فبعث ولده الأمير أبا سالم إبراهيم في جيش كثيف إلى حصارها وحشد إليها قبائل الريف وقبائل تازا فلم يغن شيئاً ورجع مهزوماً فسخطه السلطان لذلك وأهمله وبقي على ذلك إلى وفاة السلطان رحمه الله وكان انتقاض ابن الأحمر سنة ثلاث وسبعمائة.

ثورة عثمان بن أبي العلاء بجبال غمارة

كان عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الحق من أعياص الملك المريني وكان قد قدم من الأندلس في صحبة الرئيس أبي سعيد عند استيلائه على سبتة ثم ثار بعد ذلك ببلاد غمارة ودعا لنفسه وبقي متنقلاً هنالك مدة، فتغلب على تكساس وآصيلا والعرايش وانتهى إلى قصر كتامة وخب في الفتنة ووضع إلى أن لحق بالأندلس لأول دولة السلطان أبي الربيع فولي بها مشيخة الغُزاة وكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء كما سيأتي إن شاء الله.

وفي سنة ثلاث وسبعمائة بعث السلطان يوسف وهو محاصر لتلمسان ركب الحاج المغربي إلى الحرمين الشريفين، واعتنى بشأن هذا الركب فبعث معهم حامية من زناتة تناهز خمسمائة فارس من الأبطال، وخاطب صاحب الديار المصرية لعهده وهو الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي من مماليك بني أيوب المعروفين بالبحرية، واستوصاه بحاج أهل المغرب وأتحفه بهدية استكثر فيها من الخيل العراب والمطايا الفارهة يقال كان عدد الخيل والمطايا أربعمائة إلى غير ذلك مما يناسب من طرف المغرب وماعونه وبعث معهم إلى حرم مكة مصحفاً ضخماً اعتنى به واستكتبه وجعل له غشاء مكللاً بنفيس الدر وشريف الياقوت ورفيع الأحجار، ونهج السلطان يوسف رحمه الله بهذا الركب والهدية السبيل لحاج المغرب فأجمعوا الحج سنة أربع بعدها فاجتمع منهم عدد وافر وركب ضخم فعقد السلطان يوسف على دلالتهم لأبي زيد الغفاري وفصلوا من تلمسان في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وفي شهر ربيع الآخر بعده قدم حاج الركب الأول الذين حملوا المصحف والهدية ووفد معهم على السلطان يوسف شريف مكة السيد لبيدة بن أبي نمي نازعاً عن سلطان الترك صاحب مصر لما كان قد قبض

على أخويه حميضة ورميثة بعد مهلك أبيهم أبي نمي صاحب مكة، فاستبلغ السلطان يوسف من إكرامه والتنويه بقدره وسرحه إلى المغرب ليجول في أقطاره ويطوف على معالم الملك وقصوره، وأوعز إلى العمال بالبرور به وإتحافه على ما يناسب قدره، ورجع هذا الشريف إلى حضرة السلطان من تلمسان سنة خمس وسبعمائة ثم فصل منها إلى مشرقه، وفي شعبان من هذه السنة قدم أبو زيد الغفاري دليل ركب الحاج الثاني ومعه بيعة الشرفاء أهل مكة للسلطان يوسف لما كان صاحب مصر قد آسفهم بالتقبض على إخوانهم وكان ذلك شأنهم متى غاظهم السلطان وأهدوا إلى السلطان يوسف ثوباً من كسوة الكعبة أعجب به فاتخذ منه ثوباً للبوسه في الجمع والأعياد كان يستبطنه بين ثيابه تبركاً به.

وأما الملك الناصر صاحب مصر فإنه كافأ السلطان يوسف على هديته بأن جمع من طرف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله من الثياب والحيوانات ونحو ذلك مثل الفيل والزرافة ونحوهما وأوفد به مع عظماء دولته وفصلوا من القاهرة آخر سنة خمس وسبعمائة فوصلوا إلى السلطان يوسف وهو بالمنصورة في جمادى الآخرة سنة ست بعدها واهتز لقدومهم وأركب الناس للقيهم وأكرم وفادتهم وبعثهم إلى المغرب للتطوف به على العادة في مبرة أمثالهم، وهلك السلطان يوسف أثناء ذلك وأفضى الأمر إلى حافده أبي ثابت فأحسن منقلبهم وملأ حقائبهم وفصلوا من المغرب إلى بلادهم في ذي الحجة من سنة سبع وسبعمائة، ولما انتهوا إلى بلاد بني حسن في ربيع من سنة ثمان بعدها اعترضتهم الأعراب بالقفر فانتهبوهم وخلصوا إلى مصر بجريعة الذقن فلم يعاودوا بعدها إلى المغرب سفراً ولا لفتوا إليه وجهاً وطالما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يوبه له ويهادونهم ويكافئون ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيئاً.

وفاة السلطان يوسف رحمه الله

كان السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله قد اتخذ في جملة حاشيته ومماليكه خصياً اسمه سعادة وكان هذا الخصي قد تصير إليه من جهة أبي علي الملياني أيام كان عاملاً له على مراكش وكان السلطان يوسف في ابتداء أمره يخلط الخصيان بأهله ولا يحجبهم عن حرمه وعياله ثم حدثت للسلطان ريبة في بعض الخصيان فأعتق جملة منهم كان فيهم عنبر الكبير عريفهم، وحجب سائرهم فارتاعوا لذلك وفسدت نياتهم فسولت لهذا الخصي الخبيث نفسه الشيطانية الفتك بالسلطان فعمد إليه وهو في بعض حجر قصره فاستأذن عليه فأذن له فألفاه مستلقياً على فراشه مختضباً بحناء فوثب عليه وطعنه طعنات قطع بها أمعاءه وخرج هارباً وانطلق بعض الأولياء في أثره فأدركه من العشي بناحية تاسلت فقبض عليه وجيء به إلى القصر فقتلته العبيد والحاشية وصابر السلطان يوسف منيته إلى آخر النهار ثم قضى رحمه الله يوم الأربعاء سابع ذي القعدة من سنة ست وسبعمائة[1] وقبر هنالك ثم نقل بعد ما سكنت الهيعة إلى مقبرتهم بشالة فدفن بها مع سلفه وأطلال ضريحه لا زالت ماثلة إلى الآن.

وبموت السلطان يوسف انقضت مدة الحصار عن آل يغمراسن وقومهم من بني عبد الواد وسائر أهل تلمسان وكانت المدة في ذلك مائة شهر كما قلنا نالهم فيها من الجهد والشدة ما لم ينل أمة من الأمم واضطروا إلى أكل الجيف والقطوط والفيران، حتى أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس وخربوا السقوف للوقود وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما

---

(1) وزعم التونسي أن رجلاً ممن يشار لهم بالصلاح من أهل أغمات جاء إلى السلطان يوسف وهو تحت أسوار تلمسان ورغب منه أن يرفع الحصار عن بني زيان فرفض السلطان طلبه فتأثر الرجل من ذلك وانصرف وهو يقول: «سيحدث بعد حادث يكون فيه ما طلبت» ثم ساق ذكر فتك الخصي بعد بالسلطان يوسف رحمه الله.

تجاوز حد العادة وعجز وجدهم عنها فكان ثمن مكيال القمح ومقداره اثنا عشر رطلاً ونصف مثقالين ونصفاً من الذهب العين وثمن الشخص الواحد من البقر ستين مثقالاً ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصفاً وأثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال ومن الخيل بعشر المثقال والرطل من الجلد البقري ميتة أو مذكى بثلاثين درهماً والهر الداجي بمثقال ونصف والكلب بمثله والفأر بعشرة دراهم والحية بمثل ذلك والدجاجة بثلاثين درهماً والبيض واحدة بستة دراهم والعصافير كذلك والأوقية من الزيت باثني عشر درهماً ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين درهماً ومن الملح بعشرة دراهم ومن الحطب كذلك والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال ومن الخس بعشرين درهماً ومن اللفت بخمسة عشر درهماً والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهماً والخيار بثلاثة أثمان الدينار والبطيخ بثلاثين درهماً والحبة من التين والإجاص بدرهمين، واستهلك الناس أموالهم وموجودهم وضاقت أحوالهم وهلكت حاميتهم فاعتزموا على الإلقاء باليد والخروج للاستماتة فهيأ الله لهم الصنع الغريب ونفس عن مخنقهم بمهلك السلطان يوسف على يد الخصي المريب وأذهب الله العناء عن آل زيان وقومهم وخرجوا كأنما نشروا من القبور وكتبوا بعد هذه الحادثة في سكتهم: «ما أقرب فرج الله» استغراباً لها[1].

قال ابن خلدون: حدثني شيخنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الابلي قال: جلس السلطان أبو زيان بن عثمان بن يغمراسن صبيحة يوم الفرج وهو يوم الأربعاء سابع ذي القعدة في زاوية من زوايا قصره يفكر واستدعى ابن جحاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الأهراء والمطامير المختومة فقال له: إنما بقي عولة اليوم وغد فاستوصاه بكتمان ذلك وبينما هم يتذاكرون في ذلك دخل عليهم أخوه أبو حمو فأخبروه بذلك فوجم وجلسوا سكوتاً لا ينطقون

(1) ذكر صاحب بغية الرواة أنه بلغ في هذا الحصار عدد موتى أهل تلمسان قتلاً وجوعاً زهاء مائة ألف وعشرين ألفاً ص125 طبع الجزائر سنة 1321 ـ 1903.

وإذا بدعد قهرمانة القصر وكانت وصيفة من وصائف بنت السلطان أبي إسحاق حظية أبيهم قد خرجت من القصر إليهم وحيتهم وقالت لهم: «تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم: «ما لنا وللبقاء وقد أحيط بكم وأسف عدوكم لالتهامكم ولم يبق الأفواق ناقة لمصارعكم فأريحونا من معرة السبي وقربونا إلى مصارعنا وأريحوا أنفسكم فينا فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم» فالتفت أبو حمو إلى أخيه أبي زيان وكان من الشفقة بمكان فقال: «قد صدقتك الخبر فما تنتظر بهن» فقال: «يا موسى أرجئني ثلاثاً لعل الله يجعل بعد عسر يسراً ولا تشاورني بعدها فيهن بل سرح اليهود والنصارى إلى قتلهن وتعالى إليّ نخرج مع قومنا إلى عدونا فنستميت ويقضي الله ما شاء» فغضب أبو حمو وأنكر عليه التأخير في ذلك وقال: «إنما نحن والله نتربص المعرة بهن وبأنفسنا» وقام عنه مغضباً وجهش السلطان أبو زيان بالبكاء قال ابن جحاف: «وأنا بمكاني بين يديه لا أملك متأخراً ولا متقدماً إلى أن غلب عليه النوم فما راعني إلا حرسي بالباب يشير إليّ أن أعلم السلطان بمكان رسول جاء من محلة بني مرين وها هو بسدة القصر» قال ابن جحاف: «فلم أطق رد جوابه إلا بالإشارة» وانتبه السلطان من همسنا فزعاً فأعلمته فاستدعاه للحين فلما وقف بين يديه قال: «إن السلطان يوسف بن يعقوب هلك الساعة وأنا رسول حافده أبي ثابت إليكم» فاستبشر السلطان أبو زيان واستدعى أخاه وقومه حتى بلغ الرسول المذكور رسالته بمسمع منهم فكانت إحدى المغربات في الأيام وكان من خبر هذه الرسالة أن السلطان يوسف لما هلك تطاول للأمر بعده القرابة من إخوته وولده وحفدته وتحيز حافده أبو ثابت إلى بني ورتاجن لخؤلة كانت له فيهم فاستجاش بهم واعصوصبوا عليه وبعث إلى بني زيان أن يعطوه آلة الحرب ويكونوا مفزعاً له إن أخفق مسعاه على أنه إن تم أمره قوض عنهم معسكر بني مرين وأفرج عنهم، فعاقدوه على ذلك فوفى لهم لما تم أمره ونزل لهم عن جميع الأعمال التي كان السلطان يوسف غلب عليها من بلادهم ورحلوا إلى مغربهم والله غالب على أمره.

بقية أخبار السلطان يوسف وسيرته

كان السلطان يوسف رحمه الله أبيض حسن القد مليح الوجه أقنى الأنف مهيباً لا يكاد أحد يبدأه بالكلام جواداً مشفقاً على الرعية متفقداً لأحوالها شجاعاً شهماً ذا عزيمة.

إذا هم ألقى بين عينيه همه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

وهو أول من هذب ملك بني مرين وأكسبه رونق الحضارة وبهاء الملك وكان غليظ الحجاب لا يكاد يوصل إليه إلا بعد الجهد، ومن أعيان كتابه الكاتب أبو محمد عبد الله بن أبي مدين العثماني، ومن أعيان شعرائه أبو الحكم مالك بن المرحل السبتي وأبو فارس عبد العزيز الملزوزي المكناسي وغيرهما والله تعالى أعلم.

ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث ففي سنة ست وخمسين وستمائة وهي السنة التي بويع فيها السلطان يعقوب بن عبد الحق كان الرخاء المفرط بالمغرب بحيث كان الدقيق يباع بفاس وغيرها ربع منه بدرهم والقمح ستة دراهم للصحفة والشعير ثلاثة دراهم للصحفة، وأما القطاني فلم يكن لها ثمن والعسل ثلاثة أرطال بدرهم والزيت أربعون أوقية بدرهم والزبيب درهم ونصف للربع والتمر ثمانية أرطال بدرهم واللوز صاع بدرهم والشابل الطري فردة بقيراط والملح حمل بدرهم ولحم البقر مائة أوقية بدرهم ولحم الضأن سبعون أوقية بدرهم والكبش بخمسة دراهم وهكذا.

وفي سنة إحدى وستين وستمائة ظهر النجم أبو الذوائب وكان ابتداء ظهوره ليلة الثلاثاء الثاني عشر من شعبان من السنة المذكورة وبقي يطلع كل ليلة وقت السحر نحواً من عشرين يوماً.

وفي سنة أربع وستين وستمائة كان دخول الشريف المولى حسن بن قاسم الحسني من أرض ينبع الحجاز إلى سجلماسة وهذا الشريف هو جد الأشراف العلويين السجلماسيين ملوك المغرب الأقصى في عصرنا هذا أعلى

الله تعالى قدرهم وخلد مجدهم وفخرهم، وعند الكلام على دولتهم السعيدة نذكر كيفية دخول هذا الشريف إلى المغرب والسبب فيه إن شاء الله.

وفي سنة ست وستين وستمائة سرق من بيت المال بقصبة فاس اثنا عشر ألف دينار وثلاث قلائد يساوين أكثر من ذلك.

وفي حدود السبعين وستمائة كان ظهور البارود على ما مر من أن السلطان يعقوب بن عبد الحق فتح به سجلماسة في هذه المدة والله تعالى أعلم.

وفي سنة سبع وسبعين وستمائة بني المسجد الجامع بفاس الجديد، وفي سنة تسع وسبعين وستمائة علقت به ثرياه وذلك يوم السبت السابع والعشرين من ربيع الأول منها ووزن هذه الثريا سبعة قناطير وخمسة عشر رطلاً وعدد كؤوسها مائتا كأس بالتثنية وسبع وثمانون كأساً وفيها كان الجراد العام بالمغرب أكل الجسر والزرع ولم يترك خضراء على وجه الأرض وبلغ القمح عشرة دراهم للصاع.

وفي سنة ثمانين وستمائة بنيت قنطرة وادي النجاة وقنطرة ماريج.

وفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة كان بالمغرب قحط شديد لم ير الناس قطرة ماء حتى كان اليوم السابع والعشرون من رمضان وهو اليوم الذي توفيت فيه الحرة أم العز بنت محمد بن حازم العلوية من بني علي بن عسكر وهي أم السلطان يوسف فغاث الله العباد وأحيى برحمته البلاد.

وفي سنة خمس وثمانين وستمائة بنيت قصبة تطاوين وفيها ركبت الناعورة الكبرى على وادي فاس شرع في عملها في رجب من السنة المذكورة ودارت في صفر من السنة بعدها.

وفي سنة ست وثمانين وستمائة بني سور قصر المجاز وركبت أبوابه وفيها غرس بستان المصارة بفاس الجديد وبنيت الدار البيضاء بها أيضاً.

وفي سنة تسع وثمانين وستمائة كانت الريح الشرقية المتوالية الهبوب ونشأ عنها القحط الشديد واستمر ذلك إلى آخر سنة تسعين بعدها فرحم الله

بلاده وعباده وفيها توفي الشيخ الصالح أبو يعقوب الأشقر بالكندرتين من بلاد بني بهلول من أحواز فاس ولعل أبا يعقوب هذا هو الذي تنسب إليه الحمة التي قدمنا الكلام عليها في أخبار المنصور الموحدي والله أعلم وفيها بني المسجد الجامع بمدينة تازا وبنيت قبة مكناسة الزيتون ورباعها.

وفي سنة إحدى وتسعين وستمائة أمر السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بعمل المولد النبوي وتعظيمه والاحتفال له[1] وصيره عيداً من الأعياد في جميع بلاده وذلك في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وكان الأمر به قد صدر عنه وهو بصبرة من بلاد الريف في آخر صفر من السنة فوصل برسم إقامته بحضرة فاس الفقيه أبو يحيى بن أبي الصبر واعلم أنه قد كان سبق السلطان يوسف إلى هذه المنقبة المولدية بنو العزفي أصحاب سبتة فهم أول من أحدث عمل المولد الكريم بالمغرب والله تعالى أعلم.

وفي سنة ثلاث وتسعين وستمائة كان كسوف الشمس وذلك قرب زوال يوم الأحد التاسع والعشرين من رجب من السنة المذكورة كسف منها نحو الثلثين وصلى بالناس صلاة الكسوف بجامع القرويين من فاس الخطيب أبو عبد الله بن أبي الصبر حتى انجلت فخرج من المحراب ووقف بإزائه فوعظ الناس وذكرهم وفي هذه السنة رفعت أيدي الموثقين من الشهادة بفاس[2] ولم يبق بها منهم سوى خمسة عشر رجلاً من أهل العدالة والمعرفة وكانوا قبل ذلك أربعة وتسعين وكان ذلك يوم الاثنين الحادي عشر من شوال من السنة المذكورة وفيها كانت الجماعة الشديدة والوباء العظيم عم ذلك بلاد المغرب وإفريقية ومصر فكانت الموتى تحمل اثنين وثلاثة وأربعة على المغتسل وبلغ القمح عشرة دراهم للمد والدقيق ست أواق بدرهم وأمر السلطان يوسف

(1) يعني بالمغرب وأما بالمشرق فأول من أحدثه الملك المظفر صاحب إربل في أواخر المائة السادسة انظر ترجمته في حرف الكاف من وفيات الأعيان.

(2) وذكر في الفائق أن السلطان أبا عنان المريني الآتي أمر بالاقتصار على عشرة من الشهود بمدينة مكناسة انظر تمام كلامه.

بتبديل الصيعان وجعلها على مد النبي ﷺ وكان ذلك بالحضرة على يد الفقيه أبي فارس عبد العزيز الملزوزي الشاعر المشهور.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وستمائة فيها صلح أمر الناس وانجبرت أحوالهم ورخصت الأسعار في جميع الأمصار فبيع القمح بعشرين درهماً للصحفة وفي هذه السنة كسفت الشمس أيضاً الكسوف الكلي بحيث غاب قرص الشمس كله وصار النهار ليلاً كالحالة التي تكون ما بين العشاءين وظهرت النجوم وماج الناس وضاقت نفوسهم ولولا أن الله سبحانه تداركهم بسرعة انجلائها لهلكوا جزعاً وكان ذلك بعد صلاة ظهر الثلاثاء الثامن والعشرين من ذي الحجة من سنة أربع وتسعين المذكورة.

وفي سنة سبعمائة أسس السلطان يوسف بن يعقوب مدينته المنصورة بإزاء تلمسان وهو محاصر لها الحصار الطويل حسبما مر الخبر على ذلك مستوفى وبالله تعالى التوفيق.

الخبر عن دولة السلطان أبي ثابت عامر بن عبد الله ابن يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

قد تقدم لنا أن أبا عامر عبد الله ابن السلطان يوسف كان قد انتبذ عن أبيه وبقي متنقلاً في جهات الريف وبلاد غمارة إلى أن هلك في بلاد بني سعيد منهم، وأنه خلف ثلاثة أولاد أحدهم أبو ثابت عامر بن عبد الله هذا الذي ولي الأمر بعد جده، وذلك أنه لما هلك السلطان يوسف رحمه الله بالمنصورة كما تقدم كان حافده أبو ثابت هذا في جملته وكان له في بني ورتاجن من أهل تلك البلاد خؤلة فلحق بهم ودعا لنفسه فبايعوه وقاموا معه في أمره، وبايعه معهم أشياخ بني مرين والعرب بظاهر المنصورة يوم الخميس ثاني يوم وفاة جده يوسف وبادر الحاشية والوزراء ومن شايعهم بداخل المنصورة إلى بيعة الأمير أبي سالم بن السلطان يوسف وكاد أمر بني

مرين يفسد وكلمتهم تتفرق فبعث السلطان أبو ثابت لحينه وكان شهماً مقداماً إلى صاحبي تلمسان أبي زيان وأبي حمو ابني عثمان بن يغمراسن فعقد لهما عهداً على أن يرحل عنهم بجموعه وأن يمدوه بالآلة ويرفعوا له كسر بيتهم ويضموه إليهم إن خاب أمله ولم يتم له أمر فأجابوه إلى ذلك، وحضر العقد أبو حمو فأحكمه وشرط عليه السلطان أبو ثابت أن لا يتعرضوا لمدينة جده المنصورة بسوء وأن يتعاهدوا مساجدها وقصورها بالإصلاح وأن من أراد الإقامة بها من أهلها فما لأحد عليه من سبيل لأن الناس كانوا قد استوطنوها وألفوها وطاب مقامهم بها وتأثلوا بها الأثاث والمتاع والخرثي وسائر الماعون مما يثبط المرتحل ويثقل جناح الناهض فقبل أبو حمو ذلك كله.

وتفرغ السلطان أبو ثابت لشأنه وجمع كلمة قومه واختل أمر أبي سالم فلم يتم وكتب السلطان أبو ثابت إلى حامية بني مرين وحصصها التي كانت متفرقة في الثغور الشرقية التي استولى عليها السلطان يوسف أيام حياته فأقبلوا إليه ينسلون من كل حدث وأسلموا البلاد إلى أهلها من بني عبد الواد وقتل السلطان أبو ثابت عمه أبا سالم بن يوسف ثم أتبعه بعم أبيه أبي بكر بن يعقوب في آخرين من القرابة وغيرهم ممن يتوقع منه الشر، وفر بقية القرابة خشية على أنفسهم من سطوة أبي ثابت فلحقوا بعثمان بن أبي العلاء الثائر بجبال غمارة من عهد السلطان يوسف فشايعوه على أمره وتقوى بهم على ما نذكره ثم ارتحل السلطان أبو ثابت قاصداً حضرة فاس في جموع لا تحصى وأمم لا تستقصى فعيد عيد الأضحى من سنة ست وسبعمائة في طريقه بن تلمسان ووجدة ثم نهض إلى فاس فدخلها فاتح سنة سبع وسبعمائة ثم نهض بعد ذلك إلى مراكش على ما نذكره، ولما علم بنو يغمراسن أن أبا ثابت قد أبعد عنهم وأنه توغل في البلاد المراكشية واشتغل بحروب الثائرين بها عمدوا إلى المنصورة فجعلوا عاليها سافلها وطمسوا معالمها ومحوا آثارها فأصبحت كأن لم تغن بالأمس.

ثورة يوسف بن محمد بن أبي عياد ابن عبد الحق وما كان من أمره

كان السلطان أبو ثابت لما فصل من تلمسان قدم بين يديه ابن عمه الحسن بن عامر بن عبد الله بن يعقوب وأمره بالنظر في أحوال فاس والمغرب، وأمره بضبطها وتسريح سجونها ورد مظالمها وتفريق الأموال على الخاصة والعامة ففعل، ولما قدم حضرة فاس عقد لابن عمه يوسف بن محمد بن أبي عياد بن عبد الحق على مراكش ونواحيها وعهد إليه بالنظر في أحوالها وضبطها فصمد إليها واحتل بها وتمكن منها، ثم حدثته نفسه بالانتزاء فاستلحق واستركب واتخذ الآلة وجاهر بالخلعان وتقبض على الوالي بمراكش الحاج المسعود فقتله من تحت السياط في جمادى الآخرة سنة سبع وسبعمائة ودعا لنفسه، واتصل الخبر بالسلطان أبي ثابت وهو بفاس فسرح إليه وزيره يوسف بن عيسى بن السعود بن خرباش الحشمي بالحاء المهملة ويعقوب بن آصناك في خمسة آلاف فارس فساروا إلى مراكش، وبرز يوسف بن محمد بن أبي عياد إلى حربهم وعبر إليهم وادي أم الربيع فالتقوا معه على ضفته الشرقية فهزموه وعاد إلى مراكش، واتبعه الوزير ودخل ابن أبي عياد مراكش فقتل جماعة من جند الفرنج الذين بها وسبى ذراريهم وخرج منها إلى أغمات فلم يستقر بها، ثم فر إلى جبال هسكورة فنزل على كبيرها مخلوف بن هنو الهسكوري ولحق به موسى بن سعيد الصبيحي من أغمات تدلى من سورها فلحق به.

ودخل السلطان أبوثابت مراكش منتصف رجب من سنة سبع وسبعمائة وأمر بقتل أوربة المداخلين لابن أبي عياد في انتزائه فاستلحموا جميعاً، ولما لحق ابن أبي عياد بمخلوف بن هنو الهسكوري واستجار به فلم يجره على السلطان أبي ثابت بل قبض عليه مع ثمانية من كبار أصحابه وبعثهم في

الحديد إليه وهو بمراكش فقتلوا في مصرع واحد بعد أن مثل بهم بالسياط، وبعث برأس ابن أبي عياد إلى فاس فطيف به ونصب على سورها ثم أثخن أبو ثابت في كل من كان على رأي ابن أبي عياد وخاض معه في الفتنة فاستلحم منهم بمراكش ما ينيف على الستمائة وصلبهم على سورها من باب الرب أحد أبواب مراكش إلى برج دار الحرة عزونه، وقتل في أغمات منهم مثل ذلك وخرج منتصف شعبان إلى منازلة السكسيوي وتدويخ جهات مراكش فنزل بتامزوارت وتلقاه السكسيوي بالبيعة والهدية والضيافة فقبل السلطان أبو ثابت ذلك منه، ثم بعث قائده يعقوب بن آصناك في جيش من ثلاثة آلاف فارس إلى بلاد حاحة برسم غزو قبائل زكنة ففروا بين يديه حتى دخلوا بلاد القبلة وانقطع أثرهم ورجع إلى معسكر السلطان بتامزوارت وأخبره بسكون البلاد وأمنها، فانكفأ السلطان أبو ثابت راجعاً إلى مراكش فدخلها غرة رمضان من سنة سبع وسبعمائة. ثم خرج منها في منتصفه قاصداً رباط الفتح فاجتاز على بلاد صنهاجة وعبر وادي أم الربيع من مشرع كتامة في القوارب لزيادة الماء يومئذٍ، ثم ارتحل فاجتاز ببلاد تامسنا فتلقاه بها عرب جشم من قبائل الخلط وسفيان وبني جابر والعاصم فاستصحبهم معه إلى مدينة آنفى بعد أن استأذنوه في الرجوع فلم يأذن لهم، ولما احتل بآنفى دعا بأشياخهم فحضروا عنده فقبض على ستين منهم أودعهم سجن آنفى وضرب أعناق عشرين من فسادهم القاطعين للسبل وصلبهم على سور آنفى، ثم نهض إلى رباط الفتح فدخله في السابع والعشرين من رمضان فعيد هنالك عيد الفطر وقتل به ثلاثين من فتاك لعرب المتهمين بالحرابة وقطع الطريق وصلبهم على أسوار العدوتين، ثم ارتحل منتصف شوال لغزو عرب رياح الموطنين بأبي طويل وفحص آزغار وبلاد الهبط، فغزاهم وأخذهم بالإحن القديمة فقتل منهم خلقاً وسبى ذراريهم وانتهب أموالهم ونهض إلى فاس فاحتل بها منتصف ذي القعدة وعيد بها عيد الأضحى ثم نهض إلى سبتة على ما نذكره.

غزو السلطان أبي ثابت بلاد غمارة وسبتة ومحاصرته لعثمان بن أبي العلاء

قد تقدم لنا أن عثمان بن أبي العلاء كان قد ورد من الأندلس صحبة الرئيس أبي سعيد بن الأحمر المتغلب على سبتة أيام السلطان يوسف وأنه ثار بجبال غمارة ودعا لنفسه واستحوذ عليها وكان السلطان يوسف بلغه خبره وأهمه شأنه إلا أنه كان يرجو أن يفتح تلمسان عن قريب ثم ينهض إليه فعاجله الحمام دون ذلك ولما أفضى الأمر إلى السلطان أبي ثابت وقدم حضرة فاس شغله عن عثمان بن أبي العلاء ما كان من ثورة يوسف بن محمد بن أبي عياد بمراكش كما قدمناه فعقد على حرب عثمان بن أبي العلاء لابن عمه عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق فزحف إليه ونهض عثمان بن أبي العلاء إلى لقائه منتصف ذي الحجة سنة سبع وسبعمائة فهزمه عثمان بن أبي العلاء واستلحم من كان معه من جند الفرنج وهلك في تلك الوقعة عبد الواحد الفودودي من رجالات الدولة المرشحين للوزارة، وسار عثمان بن أبي العلاء إلى قصر كتامة فدخله واستولى على جهاته وكان بطلاً من الأبطال وعلى أثر ذلك كان رجوع السلطان أبي ثابت من غزاة مراكش وقد حسم الداء ومحى أثر النفاق فاعتزم على النهوض إلى بلاد غمارة ليمحو منها أثر دعوة ابن أبي العلاء التي كادت تلج عليه دار ملكه ويستخلص سبتة من يد ابن الأحمر المتغلب عليها لأنها صارت ركاباً لمن يروم الخروج على السلطان من القرابة المستقرين وراء البحر غزاة في سبيل الله.

فنهض السلطان أبو ثابت من فاس عقب عيد الأضحى من سنة سبع وسبعمائة حتى انتهى إلى قصر كتامة فتلوم به ثلاثاً حتى تلاحق به قبائل مرين والعرب والرماة من سائر البلاد فعرض جيشه وارتحل قاصداً جبال غمارة، وكان عثمان بن أبي العلاء قد فر أمامه إلى ناحية سبتة فسار السلطان أبو ثابت في اتباعه حتى نازل حصن علودان واقتحمه عنوة واستلحم به زهاء أربعمائة، ثم نازل بلد الدمنة على شاطىء البحر فقتل الرجال وسبى النساء والذرية

وانتهب الأموال وكانوا قد تمسكوا بطاعة ابن أبي العلاء وأجازوه إلى القصر في وسط بلادهم وبالغوا في تضييفه وإكرامه ودخلوا معه القصر وآصيلا ونهبوا كثيراً من مال أهلهما، ثم ارتحل السلطان أبو ثابت إلى طنجة فدخلها فاتح سنة ثمان وسبعمائة وتحصن ابن أبي العلاء بسبتة مع أوليائه من ابن الأحمر وسرح السلطان أبو ثابت عسكره فتفرقت في نواحي سبتة بالغارات واكتساح الأموال.

بناء مدينة تطاوين

ثم أمر السلطان باختطاط مدينة تطاوين لنزول عسكره وللأخذ بمخنق سبتة هكذا عند ابن أبي زرع وابن خلدون. واعلم أن تطاوين هذه هي تطاوين القديمة وقد تقدم لنا أن قصبتها بنيت في سنة خمس وثمانين وستمائة وذلك لأول دولة السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، ثم بنى السلطان أبو ثابت هذه المدينة عليها في هذا التاريخ الذي هو فاتح سنة ثمان وسبعمائة وكان بناؤها خفيفاً شبه القرية عدا قصبتها فإن بناءها كان محكماً وثيقاً، واستمرت هذه المدينة عامرة إلى صدر المائة التاسعة فخربت ثم جدد بناؤها بعد نحو تسعين سنة حسبما يأتي الخبر عن ذلك مستوفى إن شاء الله تعالى، قالوا: ولفظ تطاوين مركب من كلمتين تيط ومعناها في لسان البربر العين ووين وهي كناية عن المخاطب نحو يا فلان وما أشبه ذلك، قالوا: والسبب في تسميتها بذلك أنهم في وقت اختطاطهم لها كانوا يضعون الحرس على أسوارها مخافة فجأة العدو فكان الحرس ينادون بالليل أو بالنهار تطاوين تطاوين، أي يا فلان افتح عينك لأن عادة الحارس أن يقول ذلك فصار هذا اللفظ علماً عليها ويظهر أن هذا من كلام العامة ولا أصل له، وكذا قول بعضهم تيط معناها العين ووين معناها المقلة ومعنى مجموع الكلمتين مقلة العين والإضافة مقلوبة كما هي في لسان بعض الأمم العجمية فإنه لا مستند له والله تعالى أعلم.

ولما شرع السلطان أبو ثابت في بناء مدينة تطاوين أوفد كبير الفقهاء بمجلسه أبا يحيى بن أبي الصبر إلى ابن الأحمر صاحب سبتة في شأن النزول له عن البلد وأقام هو بقصبة طنجة ينتظر الجواب بماذا يكون، وفي أثناء ذلك مرض مرض موته وتوفي[1] يوم الأحد الثامن من شهر صفر سنة ثمان وسبعمائة ودفن بظاهر طنجة ثم حمل شلوه بعد أيام إلى مدفن آبائه بشالة فووري هنالك رحمة الله عليه وعليهم.

الخبر عن دولة السلطان أبي الربيع سليمان بن أبي عامر عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

لما هلك السلطان أبو ثابت تصدى للقيام بالأمر عمه علي بن يوسف المعروف بابن زريقاء وهي أمه، وعلى هذا هو الذي قتل شيوخ المصامدة بكتاب ابن الملياني كما تقدم وخلص الملأ من بني مرين أهل الحل والعقد إلى أبي الربيع المذكور أخي أبي ثابت فبايعوه واستتب أمره فتقبض على عمه علي بن زريقاء وسجنه بطنجة فبقي مسجوناً بها إلى أن هلك سنة عشر وسبعمائة وبث السلطان أبو الربيع العطاء في الناس وأجزل الصلات فأرضى الخاصة والعامة وصفا له الأمر، ثم ارتحل نحو فاس واستدعى من كان بمحلة تطاوين من الجند فأقبلوا إليه وأرضاهم بالمال كذلك، ولما فصل من طنجة تبعه عثمان بن أبي العلاء من سبتة في جيش كثيف ليضرب في محلته ليلاً فنذر به عسكر السلطان أبي الربيع فأسهروا ليلتهم وباتوا على صهوات خيولهم فوافاهم عثمان بساحة علودان وهم على ذلك فناجزهم الحرب فهزموه وتقبض على ولده وكثير من عسكره وقتل آخرون وكان للسلطان أبي الربيع الظهور الذي لا كفاء له ووصل أبو يحيى بن أبي الصبر من الأندلس وقد أحكم عقدة الصلح مع ابن الأحمر صاحب غرناطة.

(1) ذكر في روضة النسرين في دولة بني مرين لابن الأحمر أنه توفي مسموماً.

ولما رأى عثمان بن أبي العلاء ذلك سقط في يده وأيس من المغرب فعبر البحر فيمن معه من القرابة إلى الأندلس وولي مشيخة الغزاة بها فكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء وعلا أمره بالأندلس وزاحم بني الأحمر ملوكها في رياستهم وجبايتهم حتى كاد يستولي على الأمر من أيديهم وشرقوا بدائه ومارسهم ومارسوه مدة طويلة، وعدلوا في أمره إلى المصانعة والمجاملة في أخبار ليس جلبها من غرضنا إلى أن توفي، لكنا نذكر من ذلك أنموذجاً يستدل به الواقف عليه على ما وراءه، فنقول: «لما توفي عثمان بن أبي العلاء رحمه الله كتب على قبره ما صورته: «هذا قبر شيخ الحماة وصدر الأبطال والكماة، واحد الجلالة ليث الإقدام والبسالة علم الأعلام حامي ذمار الإسلام، صاحب الكتائب المنصورة والأفعال المشهورة والمغازي المسطورة وإمام الصفوف، القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف سيف الجهاد، وقاصم الأعاد وأسد الآساد العالي الهمم الثابت القدم الهمام الماجد الأرضى البطل الباسل الأمضى المقدس المرحوم أبي سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير الأصيل الشهير المقدس المرحوم أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق».

كان عمره ثمانياً وثمانين سنة أنفقه ما بين روحة في سبيل الله وغدوة حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة وقطع عمره مجاهداً مجتهداً في طاعة الرب محتسباً في إدارة الحرب ماضي العزائم في جهاد الكفار، مصادماً بين جموعهم تدفق التيار وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار ما سار ذكره في الأقطار أشهر من المثل السيار حتى توفي رحمه الله وغبار الجهاد طي أثوابه، وهو مراقب لطاغية الكفار وأحزابه فمات على ما عاش عليه وفي ملحمة الجهاد قبضه الله إليه واستأثر به سعيداً مرتضى وسيفه على رأس ملك الروم منتضى مقدمة قبول وإسعاد ونتيجة جهاد وجلاد ودليلاً على نيته الصالحة وتجارته الرابحة فارتجت الأندلس لبعده أتحفه الله برحمة من عنده توفي يوم الأحد الثاني لذي الحجة من سنة ثلاثين وسبعمائة رحمه الله.

وأما السلطان أبو الربيع فإنه لما سار عن طنجة دخل حضرة فاس حادي عشر ربيع الأول من سنة ثمان وسبعمائة فأقام بها سنة المولد الكريم وفرق الأموال واستقامت الأمور وتمهد الملك وعقد السلم مع صاحب تلمسان أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن وأقام وادعاً بحضرته مجتنياً ثمرة ملكه، وكان في أيامه غلاء إلا أن الناس انفتحت لهم فيها أبواب المعاش والترف حتى تغالوا في أثمان العقار فبلغت قيمتها فوق المعتاد حتى لقد بيع كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين، وتنافس الناس في البناء فاتخذوا القصور المشيدة وتأنقوا فيها بالزليج والرخام وأنواع النقوش، وتناغوا في لبس الحرير وركوب الفاره وأكل الطيب واقتناء الحلى من الذهب والفضة واستبحر العمران وظهرت الزينة والأمور كلها بيد الله تعالى.

نكبة الفقيه الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مدين واستئصال بني وقاصة اليهوديين بعد ذلك

كان الفقيه الكاتب أبو محمد عبد الله بن أبي مدين شعيب بن مخلوف من بني أبي عثمان إحدى قبائل كتامة المجاورين للقصر الكبير، وكان بيته بيت العلم والدين واتصلوا بخدمة بني مرين أيام دخولهم المغرب واستيلائهم عليه وكان أبو محمد هذا من خاصة السلطان يوسف بن يعقوب وجعل بيده وضع العلامة على الرسائل وفوض إليه في حسبان الخراج والضرب على أيدي العمال وتنفيذ الأوامر بالقبض والبسط فيهم واستخلصه لمناجاته والإفضاء إليه بسره، ولما هلك السلطان يوسف وولي بعده السلطان أبو ثابت ضاعف رتبة هذا الرجل وشفع لديه حظه ومنصبه ورفع على الأقدار قدره، ثم ولي بعده أخوه أبو الربيع فسلك فيه مذهب سلفه واضطلع أبو محمد بن أبي مدين بأمور دولته، وكان بنو وقاصة اليهود حين نكبوا أيام السلطان يوسف يرون أن نكبتهم كانت بسعاية أبي محمد فيهم، وكان خليفة الأصغر منهم قد أفلت من تلك النكبة كما ذكرناه.

فلما أفضى الأمر إلى السلطان أبي الربيع استعمل خليفة هذا بداره في بعض المهن فباشر الأمور وترقى فيها حتى اتصل بالسلطان فجعل غاية قصده السعاية بأبي محمد بن أبي مدين، وكان يؤثر عن السلطان أبي الربيع أنه يختلي مع حرم حاشيته وتعرف خليفة ذلك من مقالات الناس فدس إلى السلطان «بأن ابن أبي مدين يعرض باتهامك في ابنته وأن صدره قد وغر لذلك وأنه مترصد بالدولة ومتربص بها الدوائر» فتمكنت سعايته من السلطان وظن أنه صادق وكان يخشى غائلة ابن أبي مدين بما كان له من الوجاهة في الدولة ومداخلة القبيل فاستعجل السلطان أبو الربيع دفع غائلته ودس إلى قائد جند الفرنج بقتله، فسار إليه ولقيه بمقبرة الشيخ أبي بكر بن العربي فرصده وأتاه من خلفه فطعنه طعنة كبته على ذقنه واحتز رأسه وألقاه بين يدي السلطان أبي الربيع، ودخل الوزير سليمان بن يرزيكن فوجد الرأس بين يديه فذهبت نفسه عليه وعلى مكانه من الدولة حسرة وأسفاً، وأيقظ السلطان لمكر اليهودي وأطلعه على خبثه وأخرج له براءة كان بعث بها ابن أبي مدين معه إلى السلطان يتنصل فيها ويحلف على كذب ما رمي به عنده، فتنبه السلطان لمكر اليهودي وعلم أنه قد خدعه وندم حيث لم ينفعه الندم، وفتك لحينه بخليفة بن وقاصة وحاشيته من اليهود المتصدين للخدمة وسطا بهم سطوة الهلكة فأصبحوا مثلاً للآخرين.

انتقاض أهل سبتة على بني الأحمر ومراجعتهم طاعة بني مرين

كان أهل سبتة قد سئموا ملكة أهل الأندلس وثقلت عليهم ولايتهم لا سيما حين رحل عنهم عثمان بن أبي العلاء وعبر البحر بقصد الجهاد كما مر واتصل خبر ذلك بالسلطان أبي الربيع فانتهز الفرصة فيهم وعقد لثقته تاشفين بن يعقوب الوطاسي أخي وزيره عبد الرحمٰن بن يعقوب على عسكر ضخم من بني مرين وسائر طبقات الجند وبعثه إلى سبتة فأغذ السير إليها ونزل بساحتها ولما أحس به أهل البلد تمشت رجالاتهم فيما بينهم وتنادوا

بشعار بني مرين وثاروا على من كان بسبتة من حامية ابن الأحمر فأخرجوهم منها، واقتحم تاشفين بن يعقوب البلد عاشر صفر من سنة تسع وسبعمائة وتقبض على قائد القصبة أبي زكرياء يحيى بن مليلة وعلى قائد البحر أبي الحسن بن كماشة وعلى قائد الحرب بها من القرابة عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق، وطير تاشفين بالخبر إلى السلطان أبي الربيع فعم السرور وعظم الفرح واتصل ذلك بابن الأحمر فضاق ذرعه وخشي عادية بني مرين وجيوش المغرب حين انتهوا إلى الفرضة وملكوها، فقلب رأيه ورأى أن يجنح إلى السلم مع السلطان أبي الربيع لشدة شوكته ولكلب الطاغية عليه في أرضه لولا أن غزاة بني مرين يكفون من غربه فبادر السلطان ابن الأحمر وهو أبو الجيوش نصر بن محمد أخو المخلوع الذي كان قبله، وأوفد رسله على السلطان أبي الربيع راغبين في السلم خاطبين للولاية وتبرع بالنزول عن الجزيرة ورندة وحصونها ترغيباً للسلطان أبي الربيع في الجهاد فقبل منه ذلك وعقد له الصلح على ما أراد، وخطب منه أخته فأنكحه ابن الأحمر إياها وبعث السلطان أبو الربيع إليه بالمدد للجهاد أموالاً وخيولاً جنائب مع ثقته عثمان بن عيسى اليريناني أخي وزيره إبراهيم بن عيسى واتصلت بينهما الولاية إلى أن توفي السلطان أبو الربيع رحمه الله.

انتقاض الوزير عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي على السلطان أبي الربيع ومبايعته لعبد الحق بن عثمان والسبب في ذلك

لما انعقد الصلح بين السلطان أبي الربيع وابن الأحمر وحصلت المصاهرة بينهما والمودة كانت رسل ابن الأحمر لا تزال تتردد إلى حضرة السلطان بفاس فقدم منهم ذات يوم بعض المنهمكين في اللهو المدمنين للشرب والقصف، فكشف صفحة وجهه في معاقرة الخمر وتجاهر بذلك بين الناس، وكان السلطان أبو الربيع قد عزل قاضي فاس أبا غالب المغيلي وولى القضاء مكانه الشيخ الفقيه أبا الحسن الزرويلي المعروف بالصغير صاحب

التقييد على المدونة وكان رحمه الله قد شدد على أهل الفسوق والمناكر، فسيق إليه ذات يوم هذا الأندلسي وهو سكران فأمر العدول فاستروحوه واشتموا منه رائحة الخمر وأدوا شهادتهم على ذلك، فأمضى القاضي حكم الله فيه وجلده الحد فاضطرم الأندلسي غيظاً وتعرض للوزير عبد الرحمٰن بن يعقوب الوطاسي ويقال له رحو باللسان الزناتي فكشف له عن ظهره يريه أثر السياط وينعي عليه سوء هذا الفعل مع رسل الدول، فضجر الوزير من ذلك وأخذته العزة بالإثم ولعله كان في قلبه شيء على القاضي فأمر وزعته بإحضاره على أسوأ الحالات وعزم على البطش به فتبادروا إليه، واعتصم القاضي بالمسجد الجامع ونادى في المسلمين فثارت العامة بهم ومرج أمر الناس وقامت الفتنة على ساق، واتصل الخبر بالسلطان فتلافى الأمر وأحضر أصحاب الوزير فضرب أعناقهم وشرد بهم من خلفهم جزاه الله خيراً، فأسرها الوزير في نفسه وداخل الحسن بن علي بن أبي الطلاق من بني عسكر بن محمد وكان من شيوخ بني مرين وأهل الشورى فيهم، وداخل قائد الفرنج غنصالو المنفرد برياسة العسكر وشوكة الجند وكان لهؤلاء الفرنج بالوزير اختصاص بحيث آثروه على السلطان، فدعاهم لخلع طاعة السلطان أبي الربيع وبيعة عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق كبير القرابة وأسد الأعياص فأجابوه وبايعوا له وتم أمرهم، ولما كان يوم السبت الثالث والعشرون من ربيع الآخر من سنة عشر وسبعمائة فر الوزير المذكور وقائده الفرنجي ومن شايعهم على رأيهم فخرجوا إلى ظاهر البلد الجديدة وجاهروا بالخلعان وأقاموا الآلة والرسم وبايعوا سلطانهم عبد الحق على عيون الملأ وعسكروا بالعدوة القصوى من سبو، ثم ساروا إلى ناحية تازا ولما استقروا برباطها أخذوا في جمع الجيوش ومكاتبة الخاصة من بني مرين والعرب يدعونهم إلى بيعة سلطانهم والمشايعة لهم على رأيهم وأوفدوا على أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان يدعونه إلى المظاهرة على أمرهم واتصال اليد والمدد بالعسكر والمال، فتوقف أبو حمو ولم يقدم ولم يحجم وبقي ينتظر عماذا ينجلي أمرهم، واتصل خبر ذلك كله بالسلطان أبي

الربيع فنهض إليهم وقدم بين يديه يوسف بن عيسى الحشمي وعمر بن موسى الفودودي في جيش كثيف من بني مرين، وسار هو في ساقتهم واتصل خبر خروجه بعبد الحق بن عثمان ووزيره فانكشفوا عن تازا ولحقوا بتلمسان، وكانوا يظنون أن السلطان لا يخرج إليهم وحمد أبو حمو عاقبة توقفه عن نصرهم ويئسوا من صريخه إياهم، ولما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت أجاز عبد الحق بن عثمان ووزيره إلى الأندلس ورجع الحسن بن علي ومن معه إلى السلطان أبي الربيع بعد أن أخذ منه الأمان وهلك رحو بن يعقوب بالأندلس لمدة قريبة، ولما احتل السلطان أبو الربيع بتازا حسم الداء ومحا أثر الشقاق وأثخن في حاشية الخوارج وشيعتهم بالقتل والسبي، ثم اعتل أياماً أثناء ذلك فتوفي بتازا بين العشاءين ليلة الأربعاء منسلخ جمادى الأخيرة من سنة عشر وسبعمائة ودفن من ليلته تلك بصحن الجامع الأعظم من تازا رحمه الله.

الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد عثمان ابن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

كان هذا السلطان من أهل العلم والحلم والعفاف جواداً متواضعاً متوقفاً في سفك الدماء لقبه: السعيد بفضل الله وأمه حرة اسمها عائشة بنت الأمير أبي عطية مهلهل بن يحيى الخلطي، ولما هلك السلطان أبو الربيع بتازا في التاريخ المتقدم تطاول للأمر عمه أبو سعيد الأصغر وهو عثمان بن السلطان يوسف وخب في ذلك ووضع وأسدى وألحم فلم يحصل على شيء.

واجتمع الوزراء والمشيخة بالقصر بعد هدأة من الليل وتفاوضوا في أمرهم حتى وقع اختيارهم على أبي سعيد الأكبر وهو عثمان ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق فاستدعوه فحضر فبايعوه ليلتئذٍ، وتم أمره وأنفذ كتبه إلى النواحي والجهات باقتضاء البيعة وسرح ابنه الأكبر الأمير أبا الحسن علي بن عثمان إلى فاس فدخلها غرة رجب من سنة عشر وسبعمائة وملك قصر الخلافة بالحضرة واحتوى على أمواله وذخيرته، وفي غد ليلته أخذت

البيعة للسلطان أبي سعيد بظاهر تازا على بني مرين وسائر زناتة والعرب والعسكر والحاشية والموالي والصنائع والعلماء والصلحاء ونقباء الناس وعرفائهم والخاصة والدهماء، فقام بالأمر واستوسق له الملك وفرق الأعطيات وأسنى الجوائز وتفقد الدواوين ورفع الظلامات وحط المغارم والمكوس وسرح السجون ورفع عن أهل فاس ما كان يلزم رباعهم من الوظائف المخزنية في كل سنة فصلح حال الناس في أيامه.

ثم ارتحل لعشرين من رجب من السنة فدخل حضرة فاس فاستقر بها وقدم عليه وفود التهنئة من جميع بلاد المغرب، ثم خرج في ذي القعدة إلى رباط الفتح لتفقد الأحوال والنظر في أمور الرعية وإنشاء الأساطيل الجهادية فعيد هنالك عيد الأضحى وباشر أمور الناس وأمر بإنشاء الأساطيل بدار الصناعة من سلا برسم جهاد الفرنج، ثم رجع إلى فاس فعقد سنة إحدى عشرة وسبعمائة لأخيه الأمير أبي البقاء يعيش على ثغور الأندلس الجزيرة ورندة وما إليهما من الحصون، ثم نهض سنة ثلاث عشرة وسبعمائة إلى ناحية مراكش لما كان بها من اختلال الأحوال وخروج عدي بن هنو الهسكوري ونقضه للطاعة فنازله السلطان أبو سعيد وحاصره مدة ثم اقتحم عليه حصنه عنوة وقبض عليه وبعثه موثقاً في الحديد إلى فاس فأودعه المطبق وقفل راجعاً إلى حضرته فاحتل بها مؤيداً منصوراً والله تعالى أعلم.

غزو السلطان أبي سعيد ناحية تلمسان

كان بنو مرين قد حقدوا على أبي حمو صاحب تلمسان من أجل توقفه في أمر عبد الحق بن عثمان ووزيره رحو بن يعقوب الوطاسي وتسهيله الطريق لهم إلى الأندلس ومداهنته في ذلك، وكان مقتضى الصلح المنعقد بينه وبين السلطان أبي الربيع أن يقبض عليهم ويبعث بهم إليه حالاً فحقد بنو مرين على أبي حمو ووجدوا في أنفسهم عليه، ولما أفضى الأمر إلى السلطان أبي سعيد واستوسق ملكه ودوخ الجهات المراكشية وفرغ من شأن

المغرب اعتزم على غزو تلمسان فنهض إليها سنة أربع عشرة، ولما انتهى إلى وادي ملوية قدم ابنيه الأميرين أبا الحسين وأبا علي في عسكرين عظيمين في الجناحين وسار هو في ساقتهما فدخل بلاد بني عبد الواد على هذه التعبية فاكتسح نواحيها واصطلم نعمتها ثم نازل وجدة فقاتلها قتالاً شديداً فامتنعت عليه، ثم نهض إلى تلمسان فنزل بالملعب من ساحتها وتحصن أبو حمو بالأسوار وغلب السلطان أبو سعيد على معاقلها وسائر ضواحيها فحطمها حطماً ونسفها نسفاً ودوخ جبال بني يزناسن وأثخن فيهم، وانتهى في قفوله إلى وجدة ففر أخوه أبو البقاء يعيش وكان في معسكره من أجل استرابة لحقته من السلطان وسار إلى تلمسان فنزل على أبي حمو ورجع السلطان أبو سعيد على التعبية فانتهى إلى تازا فأقام بها وبعث ابنه الأمير أبا علي إلى فاس فكان من خروجه عليه ما نذكره.

خروج الأمير أبي علي على أبيه السلطان أبي سعيد والسبب في ذلك

كان للسلطان أبي سعيد ولدان أحدهما وهو الأكبر من أمته الحبشية وهو أبو الحسن علي بن عثمان، وثانيهما وهو الأصغر من علجة من سبي الفرنج وهو أبو علي عمر بن عثمان وكان هذا الأصغر أعلق بقلب السلطان وأحبهما إليه، ولما استولى على ملك المغرب رشحه لولاية العهد وهو شاب لم يطر شاربه ووضع له ألقاب الإمارة وصير معه الجلساء والخاصة والكتاب وأمره باتخاذ العلامة في كتبه ولم يدخر عنه شيئاً من مراسم الرياسة والملك وعقد على وزارته لإبراهيم بن عيسى اليريناني من كبار الدولة ووجوهها، وكان أخوه الأكبر أبو الحسن شديد البرور بأبيه فلما رأى إقبال أبيه على أخيه علي انحاش هو أيضاً إليه وصار في جملته وخلط نفسه بحاشيته طاعة لأبيه ومسارعة في هواه واستمرت حال الأمير أبي علي على هذا وخاطبه ملوك النواحي وخاطبهم وهادوه وهاداهم وعقد الرايات وأثبت في الديوان ومحا وزاد في العطاء ونقص وكاد يستبد بالأمر كله.

ولما قفل السلطان أبو سعيد من تلمسان أواخر سنة أربع عشرة وسبعمائة أقام بتازا وبعث ولديه إلى فاس فلما استقر الأمير أبو علي بها حدثته نفسه بالقيام على أبيه وخلع طاعته، فراوده المداخلون له على التربص حتى يمكر بأبيه ويقبض عليه باليد فأبى واستعجل الأمر وركب الخلاف وجاهر بالخلعان، ودعا لنفسه فأطاعه الناس ولم يتوقفوا عنه لما كان أبوه جعله إليه من أمرهم، وعسكر بساحة البلد الجديد يريد غزو أبيه، فبرز السلطان أبو سعيد من تازا في عسكره يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ثم بدا للأمير أبي علي في وزيره إبراهيم بن عيسى وعزم على القبض عليه لأنه بلغه أنه يكاتب أباه فبعث للقبض عليه عمر بن يخلف الفودودي، وتفطن الوزير لما أراده من المكر به فقبض هو على الفودودي ونزع إلى السلطان أبي سعيد فتقبله ورضي عنه، وكان الأمير أبو الحسن قد لحق بأبيه قبل ذلك نازعاً عن جملة أخيه فقوي جناح السلطان بهما وارتحل إلى لقاء ابنه أبي علي، ولما تراءى الجمعان بالمقرمدة ما بين فاس وتازا اختل مصاف السلطان وانهزم جريحاً إلى تازا فتبعه ابنه أبو علي وحاصره بها، ويقال إن أبا الحسن إنما لحق بأبيه بعد المحنة ثم سعى الخواص بين السلطان وابنه أبي علي بالصلح على أن يخرج له السلطان عن الأمر ويقتصر على تازا وجهاتها فقط، فرضي السلطان بذلك وشهد الملأ من مشيخة العرب وزناتة وأهل الأمصار واستحكم العقد بينهما وانكفأ الأمير أبو علي راجعاً إلى حضرة فاس مملكاً على المغرب وتوافت إليه بيعات الأمصار ووفودهم واستوسق أمره.

ثم تدارك الله السلطان أبا سعيد بلطفه ورد عليه حقه من حيث لا يحتسب وذلك أن الأمير أبا علي اعتل عقب وصوله إلى فاس واشتد وجعه حتى أشرف على الهلاك وخشي الناس على أنفسهم اختلال الأمر بموته فتسايلوا إلى والده السلطان أبي سعيد بتازا ولحق به سائر خواص الدولة وحملوه على تلافي الأمر وانتهاز الفرصة، فنهض من تازا واجتمع إليه كافة بني مرين والجند وعسكر على البلد الجديد وأقام محاصراً له وابتنى داراً لسكناه وجعل لابنه الأمير أبي الحسن ما كان لأخيه أبي علي من ولاية العهد

وتفويض الأمر ولما تبين للأمير أبي علي اختلاف أمره بعث إلى أبيه في الصلح على أن يعوض سجلماسة وما والاها فأجيب إلى ذلك ووفى له السطان بما اشترط وارتحل إلى سجلماسة سنة خمس عشرة وسبعمائة فأقام بها دولة فخيمة واستولى على بلاد القبلة ودون الدواوين واستلحق واستركب واستخدم ظواعن العرب من بني معقل وافتتح معاقل الصحراء وقصور توات وتيكرارين وتامنطيت وغير ذلك.

وأما السلطان أبو سعيد فإنه دخل إلى فاس الجديد ونزل بقصره وأصلح شؤون ملكه وأنزل ابنه الأمير أبا الحسن بالدار البيضاء من قصوره وفوض إليه في سلطانه تفويض الاستقلال وأذن له في اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة على كتبه وسائر ما كان لأخيه ووفدت عليه بيعات الأمصار بالمغرب ورجعوا إلى طاعته، وفي سنة خمس عشرة وسبعمائة أمر السلطان أبو سعيد ببناء الباب أمام القنطرة من الجزيرة الخضراء ثم بعد ذلك أدار الستارة بالمدينة المذكورة وفيها سار إلى مراكش فأقام بها أياماً حتى أصلح شؤونها وعاد إلى الحضرة.

وفي سنة ثمان عشرة وسبعمائة نكب السلطان أبو سعيد كاتبه منديل بن محمد الكناني وكان السبب في ذلك أنه لما ثار الأمير أبو علي على أبيه وخلعه انحاش إليه منديل هذا ثم لما اختل أمر أبي على عاد منديل إلى السلطان أبي سعيد وترتب في منزلته التي كان عليها قبل وكان الأمير أبو الحسن يحقد عليه لأجل انحياشه إلى أخيه لما كان بينهما من المنافسة وكان هو كثيراً ما يوغر صدر أبي الحسن بإيجاب حق أخيه عليه وامتهانه في خدمته، فطوى له أبو الحسن على البث حتى إذا فصل أبو علي إلى سجلماسة وانفرد أبو الحسن بمجلس أبيه وخلاله وجهه أحكم السعاية في منديل عند أبيه وكان منديل كثيراً ما يغضب السلطان في المحاورة والخطاب دالة عليه وكبراً، فاعتد السلطان عليه بشيء من ذلك مع ما كان ابنه أبو الحسن يغريه به فسخطه سنة ثمان عشرة وسبعمائة، وأذن لابنه أبي الحسن في نكبته فاعتقله واستصفى أمواله وطوى ديوانه وامتحنه أياماً ثم قتله بمحبسه

خنقاً وقيل جوعاً وذهب في الذاهبين، وأبوه أبو عبد الله محمد الكناني هو الذي بعثه السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى المستنصر الحفصي عند فتح مراكش وعاد إليه منه بالهدية صحبة وفد أهل تونس وتلطف أبو عبد الله الكناني حتى ذكر المستنصر في الخطبة على منبر مراكش وفرح الوفد بذلك حسبما تقدم الخبر عنه مستوفى، ونشأ ابنه منديل هذا في ظل الدولة المرينية فكان من أمره ما قصصناه عليك.

وفادة أهل الأندلس على السلطان أبي سعيد واستصراخهم إياه على الطاغية وما نشأ عن ذلك

كان الملوك من بني مرين قد انقطع غزوهم عن الأندلس برهة من الدهر منذ دولة السلطان يوسف بن يعقوب لاشتغاله في آخر أمره بحصار تلمسان واشتغال حفدته من بعده بأمر المغرب مع قصر مدتهم فتطاول العدو وراء البحر على المسلمين بسبب هذه الفترة واشتد كلبه على ثغورها مع أن القرابة من بني مرين كانوا شجى في صدره وقذى في عينيه في تلك البلاد حسبما ألمعنا إليه غير مرة، ولما أفضى الأمر إلى السلطان أبي سعيد اشتغل في صدر دولته بأمر ابنه أبي علي وخروجه عليه، فاهتبل الطاغية الغرة في الأندلس وزحف في جموعه إلى غرناطة سنة ثمان عشرة وسبعمائة، وكان من خبر هذه الوقعة أن الطاغية بطرة بن سانجة ويقال دون بطرة وقد نبهنا على لفظة دون فيما سبق ذهب إلى طليطلة ودخل على مرجعهم الذي يقال له البابا وسجد له وتضرع بين يديه وطلب منه استئصال ما بقيَ من المسلمين بأرض الأندلس وأكد عزمه وتأهب لذلك غاية الأهبة، فوصلت أثقاله ومجانيقه وآلات الحصار والأقوات في المراكب وتقدم في جموعه حتى نزل بأحواز غرناطة وكان رديفه في ذلك الجند علجاً آخر يقال له جوان وانضم إليهم ملوك آخرون من ملوك الأطراف قيل سبعة وقيل أكثر وامتلأت الأرض بهم وعزموا على استئصال بقية المسلمين بالأندلس، وكان جيشهم فيما قيل يشتمل على خمسة وثلاثين ألفاً من الفرسان وعلى نحو مائة ألف من الرجالة المقاتلة.

ولما رأى أهل الأندلس ذلك بعثوا صريخهم إلى السلطان أبي سعيد فقدم عليه وفدهم بحضرته من فاس وفيهم من وجوه الأندلس وصلحائها الشيخ أبو عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي والشيخ أبو إسحاق بن أبي العاص وغيرهم فاعتذر إليهم السلطان أبو سعيد بمكان عثمان بن أبي العلاء من دولتهم ومحله من دار ملكهم، وكان عثمان بن أبي العلاء يتولى يومئذٍ مشيخة الغزاة بالأندلس لأن وفاته تأخرت إلى سنة ثلاثين وسبعمائة حسبما مر فشرط عليهم السلطان أبو سعيد أن يمكنوه منه ليتأتى له العبور إلى تلك البلاد وجهاد العدو بها من غير تشويش، وقال ادفعوه إلينا برمته حتى يتم أمر الجهاد ثم نرده عليكم حياطة على المسلمين وخشية من تفريق كلمتهم، فاستصعب أهل الأندلس هذا الشرط لما يعلمونه من صرامة عثمان بن أبي العلاء وإدلاله ببأسه وبأس عشيرته فأخفق سعيهم ورجعوا منكسرين، وأطالت الفرنج المقام على غرناطة وطمعوا في التهامها.

ثم إن الله تعالى نفس عن مخنقهم ودافع بقدرته عنهم وهيأ لعثمان بن أبي العلاء في الفرنج واقعة كانت من أغرب الوقائع، وذلك أنه لما كان يوم المهرجان وهو الخامس من جمادى الأولى من سنة تسع عشرة وسبعمائة عمد عثمان بن أبي العلاء إلى جماعة جنده واختار من أنجاد بني مرين منهم نحو المائتين وقيل أكثر وتقدم بهم نحو جيش الفرنج فظن النصارى أنهم إنما خرجوا لأمر غير القتال من مفاوضة أو إبلاغ رسالة أو نحو ذلك حتى إذا سامتوا موقف الطاغية ورديفه جوان صمموا نحوهما حتى خالطوهما في مراكزهما فصرعوهما في جملة من الحاشية وانهزم ذلك الجمع من حينه وولوا الأدبار واعترضهم من ورائهم مسارب الماء للشرب على نهر شنيل فتطارحوا فيها وهلك أكثرهم واكتسحت أموالهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام وخرج أهل غرناطة لجمع الأموال وأخذ الأسرى فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب فيما قيل ثلاثة وأربعون قنطاراً ومن الفضة مائة وأربعون قنطاراً ومن السبي سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك بعض الغرناطيين إلى الديار المصرية وكان من جملة الأسارى امرأة الطاغية وأولاده

فبذلت في نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصناً فيما حكى بعض المؤرخين فلم يقبل المسلمون ذلك، قلت: «هذا خطأ في الرأي وضعف في السياسة» قالوا: وزادت عدة القتلى في هذه الغزوة على خمسين ألفاً» ويقال: «إنه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد لعدم معرفتهم بالطريق» وأما الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون وقتل الملوك السبعة جميعهم، وقيل خمسة وعشرون واستمر البيع في الأسرى والسبي والدواب ستة أشهر، ووردت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد، ومن العجب أنه لم يقتل من المسلمين سوى ثلاثة عشر نفساً وقيل عشرة أنفس وسلخ الطاغية بطرة وحشى جلده قطناً وعلق على باب غرناطة وبقي معلقاً سنين وطلبت النصارى الهدنة فعقدت لهم والله تعالى أعلم.

انتقاض الأمير أبي علي على أبيه السلطان أبي سعيد وما نشأ عن ذلك

لما كانت سنة عشرين وسبعمائة انتقض الأمير أبو علي صاحب سجلماسة والصحراء على أبيه السلطان أبي سعيد وتغلب على درعة وسما إلى طلب مراكش فعقد السلطان أبو سعيد على حربه لأخيه الأمير أبي الحسن وأغزاه إياه، ثم نهض على أثره فاحتل بمراكش وثقف أطرافها وحسم عللها وعقد عليها لكندوز بن عثمان من صنائع دولتهم وقفل إلى الحضرة، ثم لما كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة نهض الأمير أبو علي في جموعه من سجلماسة وأغذ السير إلى مراكش فاقتحمها بعساكره قبل أن يجتمع لكندوز أمره وتقبض عليه وضرب عنقه ورفعه على القناة وملك مراكش وسائر ضواحيها.

وبلغ الخبر إلى السلطان أبي سعيد فخرج من حضرته في عساكره بعد أن احتشد وأزاح العلل واستوفى الأعطيات وقدم بين يديه ابنه الأمير أبا الحسن

ولي عهده وجاء هو على ساقته وساروا على هذه التعبية، ولما انتهوا إلى وادي ملوية اتصل بهم الخبر أن أبا علي يريد أن يبيتهم فأسهروا ليلتهم وباتوا على ظهور خيلهم وبعد مضي جزء من الليل طرقهم أبو علي في جموعه فكانت الدبرة عليه وفل عسكره وارتحلوا من الغد في أثره وكان قد سلك جبل درن فافترقت جنوده في أوعاره ولحقهم من المشاق ما يفوت الوصف حتى ترجل الأمير أبو علي عن فرسه وسعى على قدميه وخلص من ورطة ذلك الجبل بعد عصب الريق ولحق بسجلماسة ومهد السلطان أبو سعيد نواحي مراكش وعقد عليها لموسى بن علي الهنتاتي فعظم غناؤه في ذلك واضطلاعه وامتدت أيام ولايته، وارتحل السلطان إلى سجلماسة فدافعه الأمير أبو علي بالخضوع ورغب إليه في الصفح والرضا والعود إلى السلم فأجابه السلطان إلى ذلك لما كان قد شغفه من حبه فقد كان يوثر عنه من ذلك غرائب ورجع إلى الحضرة وأقام الأمير أبو علي بمكانه من مملكه القبلة إلى أن هلك السلطان أبو سعيد وتغلب عليه أخوه السلطان أبو الحسن كما نذكره إن شاء الله.

بناء مدارس العلم بحضرة فاس حرسها الله

قد تقدم لنا أن السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله كان قد بنى مدرسته التي بفاس مع غيرها مما سبق التنبيه عليه، ووقف عليها كتب العلم التي بعث بها إليه الطاغية سانجة عند عقد الصلح معه ووقف عليها غير ذلك، واقتفى أثره في هذه المنقبة الشريفة بنوه من بعده فاستكثروا من بناء المدارس العلمية والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة وأجروا على الطلبة بها الجرايات الكافية، فأمسكوا بسبب ذلك من رمق العلم وأحيوا مراسمه وأخذوا بضبعيه جزاهم الله عن نيتهم الصالحة خيراً.

ولما كانت سنة عشرين وسبعمائة أمر السلطان أبو سعيد رحمه الله ببناء المدرسة التي بفاس الجديد فبنيت أتقن بناء وأحسنه ورتب فيها الطلبة لقراءة

القرآن والفقهاء لتدريس العلم وأجرى عليهم المرتبات والمؤن في كل شهر، وحبس عليها الرباع والضياع ابتغاء ثواب الله ورغبة فيما عنده.

وفي سنة إحدى وعشرين بعدها بنى ولي عهده الأمير أبو الحسن المدرسة التي بغربي جامع الأندلس من حضرة فاس فجاءت على أكمل الهيئات وأعجبها وبنى حولها سقاية ودار الوضوء وفندقاً لسكنى طلبة العلم وجلب الماء إلى ذلك كله من عين خارج باب الجديد أحد أبواب فاس وأنفق على ذلك أموالاً جليلة تزيد على مائة ألف دينار، وشحنها بطلبة العلم وقرّاء القرآن وحبس عليها رباعاً كثيرة ورتب فيها الفقهاء للتدريس وأجرى عليهم الإنفاق والكسوة نفعه الله بقصده.

وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة في فاتح شعبان منها أمر السلطان أبو سعيد أيضاً ببناء المدرسة العظمى بإزاء جامع القرويين بفاس وهي المعروفة اليوم بمدرسة العطارين، فبنيت على يد الشيخ أبي محمد عبد الله بن قاسم المزوار وحضر السلطان أبو سعيد بنفسه في جماعة من الفقهاء وأهل الخير حتى أسست وشرع في بنائها بمحضره، فجاءت هذه المدرسة من أعجب مصانع الدول بحيث لم يبن ملك قبله مثلها، وأجرى بها ماء معيناً من بعض العيون هنالك وشحنها بالطلبة ورتب فيها إماماً ومؤذنين وقومة يقومون بأمرها ورتب فيها الفقهاء لتدريس العلم وأجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية، واشترى عدة أملاك ووقفها عليها احتساباً بالله تعالى، وسيأتي التنبيه على ما بناه ابنه أبو الحسن من ذلك أيام ولايته وحافده أبو عنان وغيرهما إن شاء الله، وبالجملة، فقد كان لبني مرين جنوح إلى الخير ومحبة في العلم وأهله تشهد بذلك آثارهم الباقية إلى الآن في مدارسهم العلمية وغيرها، وفي مثل ذلك يحسن أن ينشد:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها   من بعدهم فبألسن البنيان
إن البناء إذا تعاظم شأنه   أضحى يدل على عظيم الشان

أخبار بني العزفي أصحاب سبتة

قد تقدم لنا أن الرئيس أبا سعيد فرج بن إسماعيل بن الأحمر صاحب مالقة كان قد غدر بأهل سبتة وقبض على رؤسائها من بني العزفي، وغربهم إلى غرناطة سنة خمس وسبعمائة فاستقروا هنالك في إيالة السلطان ابن الأحمر المعروف بالمخلوع مدة ولما استولى السلطان أبو الربيع المريني على سبتة ونفى بني الأحمر عنها استأذنه بنو العزفي في الرجوع إلى المغرب والقدوم عليه فأذن لهم واستقروا بفاس وكان أبو زكرياء يحيى وأبو زيد عبد الرحمٰن ابنا أبي طالب عبد الله بن أبي القاسم محمد بن أبي العباس أحمد العزفي من سرواتهم وأهل المروءة والدين فيهم وكانوا يغشون مجالس العلم بمسجد القرويين من فاس لما كانوا عليه من انتحاله، وكان السلطان أبو سعيد أيام ولاية بني أبيه من قبله يحضر مجلس الشيخ الفقيه أبي الحسن الصغير وكان أبو زكرياء يحيى بن أبي طالب يلازمه ويتودد إليه فاتصل به وصارت له بذلك وسيلة عنده، فلما أفضى الأمر إلى السلطان أبي سعيد رعى لبني العزفي تلك الوسيلة فأنعم عليهم وعقد لأبي زكرياء منهم على سبتة وردهم إلى موطن سلفهم ومقر رياستهم فقدموها سنة عشر وسبعمائة، وأقاموا فيها دعوة السلطان أبي سعيد والتزموا طاعته.

ولما فوض السلطان أبو سعيد إلى ابنه أبي عليّ الأمر وجعل له الإبرام والنقض عقد أبو علي على سبتة لأبي زكرياء حيون بن أبي العلاء القرشي وعزل أبا زكرياء يحيى بن أبي طالب منها واستقدمه إلى فاس فقدمها هو وأبوه أبو طالب وعمه أبو حاتم واستقروا في جملة السلطان وهلك أبو طالب بفاس أثناء تلك المدة[1] ثم كان من خروج الأمير أبي علي على أبيه وانتقاضه عليه ما قدمناه فلحق أبو زكرياء بن أبي طالب وأخوه أبو زيد بالسلطان أبي

(1) في شعبان عام ثلاثة عشر وسبعمائة كما في الجذوة.

سعيد نازعين إليه ومفارقين لابنه الثائر عليه واستمروا في جملته إلى أن مرض الأمير أبو علي وزحف أبوه إليه وحاصره بفاس حسبما مر، فحينئذٍ عقد السلطان أبو سعيد لأبي زكرياء على سبتة ثانياً وبعثه إليها ليقيم دعوته في تلك الجهات وترك ابنه محمد بن أبي زكرياء تحت يده رهناً على الطاعة فاستقل أبو زكرياء بإمارتها وأقام دعوة السلطان أبي سعيد بها واتصل ذلك منه نحو سنتين، ثم هلك عمه أبو حاتم بسبتة سنة ست عشرة وسبعمائة وانتقض أبو زكرياء بن أبي طالب على السلطان أبي سعيد ورجع إلى حال سلفه من الاستبداد وإقامة الشورى بالبلد واستقدم من الأندلس عبد الحق بن عثمان الذي كان خرج على السلطان أبي الربيع مع الوزير عبد الرحمٰن الوطاسي فقدم عليه وعقد له على الحرب ليفرق به كلمة بني مرين بالمغرب ويوهن بأسهم فتخف عليه وطأتهم.

واتصل ذلك كله بالسلطان أبي سعيد فقام وقعد وجهز إلى سبتة العساكر من بني مرين وعقد على حربها للوزير إبراهيم بن عيسى اليريناني فزحف إليها وحاصرها فاعتذر إليه أبو زكرياء بحبس ابنه عنه ومفارقته له وأنه إذا رجع إليه ابنه بذل الطاعة وراجع الدعوة فأعلم الوزير السلطان بذلك فبعث إليه بالولد ليسلمه إلى أبيه بعد أن يقتضي منه موجبات الطاعة وأسبابها وجاء الخبر إلى أبي زكرياء بأن ابنه قد قدم وأنه كائن بفسطاط الوزير بساحل البحر بحيث تتأتى الفرصة في أخذه فبعث أبو زكرياء إلى عبد الحق بن عثمان قائد الحرب وأعلمه بمكان ابنه فواطأه عبد الحق على انتزاعه منهم، ثم هجم ليلاً في جماعة من حاشيته على فسطاط الوزير فاحتمل الولد وأصبح به عند أبيه وسمع أهل عسكر الوزير بالهيعة فركبوا وتبعوا الأثر فلم يقفوا على خبر وتفقد الوزير الولد الذي كان عنده فلم يجده واتهم الجيش الوزير بأنه مالأ شيعة أبيه على أخذه وإلا فلا يقدم أحد هذا الإقدام بدون مداخلة من بعض الجيش فتقبضوا على الوزير وحملوه إلى السلطان إبلاء في الطاعة وإبلاغاً في العذر فشكر لهم ذلك وأطلق الوزير لعلمه ببراءته ونصحه.

ثم رغب أبو زكرياء بعدها في رضا السلطان وطاعته وولايته فنهض

السلطان أبو سعيد رحمه الله سنة ست عشرة إلى طنجة لاختبار طاعة أبي زكرياء فبان له صدقه وعقد له على سبتة واشترط هو على نفسه حمل الجباية إلى السلطان وإسناء الهدية في كل سنة واستمر الحال على ذلك إلى أن هلك أبو زكرياء سنة عشرين وسبعمائة وقام بالأمر بعده ابنه محمد بن أبي زكرياء إلى نظر ابن عمه محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم شيخ قرابتهم، وكان قائد الأساطيل بسبتة وولي النظر فيها بعد أن نزع القائد يحيى الرنداحي إلى الأندلس وتغلب محمد بن علي هذا بسبتة واختلفت كلمة الغوغاء واضطرب الأمر على بني العزفي بها.

فانتهز السلطان أبو سعيد الفرصة فيها وأجمع النهوض إليها فنهض سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ونزل عليها فبادر أهل سبتة بإيتاء طاعتهم وعجز محمد بن أبي زكرياء عن المناهضة وظنها محمد بن علي من نفسه فتعرض للأمر في أوغاد من لفيفها اجتمعوا إليه فدافعهم الملأ من أهل سبتة عن ذلك وحملوهم على الطاعة واقتادوا بني العزفي إلى السلطان أبي سعيد فانقادوا إليه واحتل السلطان بقصبة سبتة وثقف جهاتها، ورم منثلمها وأصلح خللها واستعمل كبار رجالاته وخواص مجلسه في أعمالها، فعقد لحاجبه عامر بن فتح الله السدراتي على حاميتها وعقد لأبي القاسم بن أبي مدين العثماني على جبايتها والنظر في مبانيها وإخراج الأموال للنفقات فيها، وأسنى جوائز الملأ من مشيختها ووفر إقطاعاتهم وجراياتهم وأوعز ببناء البلد المسمى أفراك على سبتة فشرعوا في بنائها سنة تسع وعشرين وسبعمائة وانكفأ راجعاً إلى حضرته، وقد ذكر ابن الخطيب في كتاب الإكليل محمد بن أبي زكرياء هذا فقال فيه ما صورته: «فرع تأود من الرياسة في دوحة وتردد بين غدوة في المجد وروحة نشأ والرياسة العزفية تعله وتنهله والدهر ييسر أمله الأقصى ويسهله حتى اتسقت أسباب سعده وانتهت إليه رياسة سلفه من بعده فألقت إليه رحالها وحطت ومتعته بقربها بعد ما شطت ثم كلح له الدهر بعد ما تبسم وعاد زعزعاً نسيمه الذي كان تنسم وعاق هلاله عن تمه ما كان من تغلب ابن عمه واستقر بهذه البلاد نازح الدار بحكم الأقدار وإن كان نبيه المكانة

والمقدار وجرت عليه جراية واسعة ورعاية متتابعة». إلى آخر كلامه ويعني بقوله هذه البلاد بلاد الأندلس والله أعلم.

المصاهرة بين السلطان أبي سعيد في ابنه أبي الحسن وبين أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي والسبب في ذلك

كان أبو تاشفين عبد الرحمٰن بن أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان قد ضايق بني أبي حفص أصحاب تونس وإفريقية في بلادهم واستولى على كثير من ثغورهم وردد البعوث والسرايا إلى أطراف ممالكهم وفي سنة تسع وعشرين وسبعمائة جهز أبو تاشفين إليهم جيشاً كثيفاً وعقد عليه ليحيى بن موسى من صنائع دولته، ونصب مع ذلك لملك تونس وإفريقية بعض أعقاب الحفصيين وهو محمد بن أبي عمران كان لجأ إليه في بعض الفتن التي كانت له مع بني عمه، وتقدم هذا الجيش إلى أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي فهزموه واقتحموا مدينة تونس فاستولوا عليها ونصبوا لملكها والولاية عليها محمد بن أبي عمران المذكور، ليس له من الملك إلا الاسم، والأمر كله بيد يحيى بن موسى قائد الجيش، وخلص السلطان أبو بكر بن أبي زكرياء الحفصي إلى بونة جريحاً مطروداً عن كرسي ملكه ودار عزه فعزم حينئذٍ على الوفادة على السلطان أبي سعيد المريني ليأخذ له حقه من آل يغمراسن المتغلبين عليه وأراد مع ذلك تجديد الوصلة التي كانت لسلفه مع بني مرين فأشار عليه حاجبه محمد بن سيد الناس بإنفاذ ابنه الأمير أبي زكرياء صاحب الثغر استنكافاً له عن مثلها فقبل إشارته وأركب ابنه المذكور البحر وبعث معه وزيره أبا محمد عبد الله بن تافراجين نافضاً أمامه طرق المقاصد والمحاورات ونزلوا بمرسى غساسة من ساحل المغرب وقدموا على السلطان أبي سعيد بحضرته فأبلغوه رسالة أبي بكر الحفصي فاهتز لذلك هو وابنه الأمير أبو الحسن وقال لوفد الحفصيين:

«والله لأبذلن في مظاهرتكم مالي وقومي ونفسي ولأسيرن بعساكري إلى

تلمسان فأنازلها» وكان فيما شرط عليهم السلطان أبو سعيد مسير أبي بكر الحفصي بعساكره إلى منازلة تلمسان معه فقبلوا وانصرفوا إلى منازلهم مسرورين.

ونهض السلطان أبو سعيد إلى تلمسان سنة ثلاثين وسبعمائة ولما انتهى إلى وادي ملوية وعسكر بصبرة جاءه الخبر اليقين بعود أبي بكر الحفصي إلى تونس وجلوسه على كرسيه بها فاستدعى السلطان أبو سعيد ابنه أبا زكرياء ووزيره أبا محمد بن تافراجين وأعلمهما الخبر وأسنى جوائزهم وأمرهم بالانصراف إلى صاحبهم فركبوا أساطيلهم من غساسة.

وبعث معهم إبراهيم بن أبي حاتم العزفي والقاضي بحضرته أبا عبد الله بن عبد الرزاق يخطبون بنت السلطان أبي بكر الحفصي لابنه الأمير أبي الحسن فوصلوا إلى الحفصي وأدوا الرسالة وانعقد الصهر بينهم في ابنته فاطمة شقيقة الأمير أبي زكرياء وزفها إليهم في أساطيله مع مشيخة الموحدين وكبيرهم أبي القاسم بن عتو، فوصلوا إلى مرسى غساسة سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة فقام بنو مرين لها على أقدام البر والكرامة وبعثوا بالظهر إلى غساسة لركوبها وحمل أثقالها، وصيغت حكمات الذهب والفضة ومدت ولايا الحرير المغشاة بالذهب واحتفل السلطان أبو سعيد رحمه الله لوفدها وأعراسها بما لم يسمع بمثله في دولتهم وتحدث الناس به دهراً وهلك السلطان أبو سعيد بين يدي موصلها كما نذكر.

وفاة السلطان أبي سعيد بن يعقوب رحمه الله

كان السلطان أبو سعيد رحمه الله لما بلغه الخبر بوصول العروس فاطمة بنت السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة ارتحل بنفسه إلى تازا ليشارف أحوالها كرامة لها ولأبيها وسروراً بعرس ابنه فاعتل هنالك وازداد مرضه حتى إذا أشفا على الهلكة ارتحل به ولي العهد الأمير أبو الحسن إلى الحضرة، وحمله في فراشه على أكتاد الحاشية والجند

حتى نزل بوادي سبو، ثم أدخله كذلك ليلاً إلى قصره فأدركته المنية في طريقه فتوفي ليلة الجمعة الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، وكان مرضه بعلة النقرس فوضعوه بمكانه من بيته واستدعى ابنه أبو الحسن الصالحين لمواراته فدفن[1] ببعض قبابه رحمه الله وكانت أيامه أعياداً ومواسم، ومن أكابر كتابه الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي.

الخبر عن دولة السلطان المنصور بالله أبي الحسن علي ابن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

هذا السلطان هو أفخم ملوك بني مرين دولة وأضخمهم ملكاً وأبعدهم صيتاً وأعظمهم أبهة وأكثرهم آثاراً بالمغربين والأندلس، ويعرف عند العامة بالسلطان الأكحل لأن أمه كانت حبشية[2] فكان أسمر اللون والعامة تسمي الأسمر والأسود أكحل وإنما الأكحل في لسان العرب أكحل العينين فقط، وكان أخوه أبو علي لمملوكة من سبي النصارى فكان أبيض وانضاف لذلك أن كان أبو الحسن ملكاً على الحضرة وأبو علي ملكاً على بلاد القبلة فكانا أخوين ملكين في عصر واحد أحدهما أسمر والآخر أبيض فعرف هذا بالأكحل والآخر بالأبيض للمقابلة.

ولما هلك السلطان أبو سعيد رحمه الله اجتمع الخاصة من المشيخة ورجالات الدولة على ولي عهده أبي الحسن المذكور وعقدوا له على أنفسهم وآتوه طاعتهم فأمر للحين بنقل معسكره من ناحية سبو إلى الزيتون من ناحية فاس، ولما فرغ من دفن أبيه خرج إلى معسكره بالمحل المذكور واجتمع الناس إليه على طبقاتهم لأداء البيعة بفسطاطة، وتولى أخذ البيعة له يومئذٍ على الناس الشيخ أبو محمد عبد الله بن قاسم المزوار والمزوار في لسان

---

(1) الذي في كتاب روضة النسرين في دولة بني مرين أنه دفن بشالة.

(2) تسمى العنبر.

زناتة معناه الرئيس وكان هذا الرجل رئيس الوزعة والمتصرفين وحاجب الباب السلطاني قديم الولاية في ذلك منذ عهد السلطان يوسف بن يعقوب، ثم زفت على السلطان أبي الحسن زوجته الحفصية فبنى بها بمكانه من المعسكر المذكور وأجمع رأيه على الانتقام لأبيها من عدوه أبي تاشفين الزياني على ما نذكره.

حدوث الفتنة بين الأخوين أبي الحسن وأبي علي ثم مقتل أبي علي والسبب في ذلك

كان السلطان أبو سعيد رحمه الله لما عهد بالأمر لابنه أبي الحسن وتحقق مصيره إليه كثيراً ما يستوصيه بأخيه أبي علي لكلفه به وشفقته عليه فلما خلص الأمر إلى أبي الحسن وكان موثراً رضا أبيه جهده اعتزم على الحركة إلى سجلماسة لمشارفة أحوال أخيه واختبار أمره وما هو عليه من سلم أو حرب ليعمل على مقتضى ذلك، فارتحل من معسكره بالزيتون قاصداً سجلماسة فتلقته وفود أخيه أبي علي أثناء الطريق مؤدياً حقه وموجباً مبرته ومهنئاً له بما آتاه الله من الملك ويعلمه مع ذلك بأنه متجاف عن المنازعة له قانع من تراث أبيه بما في يده طالب منه أن يعقد له بذلك، فأجابه السلطان أبو الحسن إلى ما سأل وعقد له على سجلماسة وما والاها من بلاد القبلة كما كان لعهد أبيه وأشهد على ذلك الملأ من بني مرين وسائر زناتة والعرب، وانكفأ السلطان أبو الحسن راجعاً إلى تلمسان عازماً على الانتقام من أبي تاشفين الزياني فسار حتى انتهى إلى تلمسان ثم تجاوزها إلى جهة الشرق حتى نزل بتاسالت منتظراً لقدوم صهره السلطان أبي بكر الحفصي عليه وفاء بالعهد الذي كان انعقد له مع السلطان أبي سعيد أيام وفادة ابنه أبي زكرياء عليه من أنهما يكونان يداً واحدة على حصار تلمسان حتى يحكم الله بينهما وبين صاحبها فعسكر أبو الحسن بتاسالت ثم بعث بحصة من جنده في البحر إلى صهره الحفصي مدداً له وهو يومئذٍ ببجاية يقاتل جيش بن زيان عليها.

ولما اتصل الخبر بأبي تاشفين صاحب تلمسان فكر في أمر أبي الحسن

وأعمل الحيلة بأن دس إلى أخيه الأمير أبي علي صاحب سجلماسة في اتصال اليد به والاتفاق معه على أخيه أبي الحسن وأن يأخذ كل واحد منهما بحجزته عن صاحبه ويشغله عنه حتى يتمكنا منه ووعده أبو تاشفين ومناه ولم يزل به حتى انتقض على أخيه ونهض من سجلماسة إلى درعة فقتل عاملها وولى عليها عاملاً من قبله، ثم سرح العساكر إلى جهة مراكش وأجلب عليها بخيله ورجله.

واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن وهو بمعسكره من تاسالت ينتظر قدوم الحفصي عليه فانكفأ راجعاً إلى الحضرة مجمعاً الانتقام من أخيه، ولما انتهى في طريقه إلى حصن تاوريرت شحنه بالعسكر وعقد عليه لابنه تاشفين بن أبي الحسن ووقف أمره على نظر منديل بن حمامة شيخ بني تيربعين ثم أغذ السير إلى سجلماسة فنزل عليها وأخذ بمخنقها وحشر الفعلة والصناع لصنع الآلات والبناء بساحتها وأقام عليها يغاديها بالقتال ويرواحها حولاً كاملاً ونهض أبو تاشفين في عساكره من تلمسان يريد الغارة على أطراف المغرب كي يشغل أبا الحسن عن أخيه بذلك فانتهى إلى تاوريرت فبرز إليه تاشفين بن أبي الحسن في عساكر مرين فهزموه وردوه على عقبه إلى تلسمان، ثم بعث بحصة من جنده مدداً للأمير أبي علي فتسربوا إلى سجلماسة جماعات وأفذاذاً حتى تكاملوا لديه فلم يغنوا شيئاً وطاولهم السلطان أبو الحسن الحصار أنزل بهم أنواع النكال حتى اقتحم البلد عنوة تاسع عشر محرم سنة أربع وثلاثين وسبعمائة وتقبض على الأمير أبي علي عند باب قصره وجيء به إلى أخيه أبي الحسن وقد خامره الجزع فلما مثل بين يديه تضرع إليه وقبل حافر فرسه فأمر أبو الحسن بتثقيفه وحمله على بغل إلى فاس وانكفأ هو راجعاً إلى الحضرة فلما دخلها اعتقل أخاه ببعض حجر القصر أشهراً ثم قتله فصداً وخنقاً وكانت سن أبي علي يومئذٍ سبعاً وثلاثين سنة وكانت دولته بسجلماسة تسع عشرة سنة وأشهراً وكان رقيق الحاشية ينتمي إلى الأدب وهو الذي استقدم أبا محمد عبد المهيمن الحضرمي من سبتة واستكتبه أيام أبيه ومن شعر الأمير أبي علي يخاطب أخاه أبا الحسن أيام حصاره له بسجلماسة وقد أيقن بزوال أمره:

فلا يغرنك الدهر الخؤون فكم ... أباد من كان قبلي يا أبا الحسن
الدهر مذ كان لا يبقى على صفة ... لا بد من فرح فيه ومن حزن
أين الملوك التي كانت تهابهم ... أسد العرين ثووا في اللحد والكفن
بعد الأسرة والتيجان قد محيت ... رسومها وعفت عن كل ذي حسن
فاعمل لأخرى وكن بالله مؤتمراً ... واستغن بالله في سر وفي علن
واختر لنفسك أمراً أنت آمره ... كأنني لم أكن يوماً ولم تكن

وفادة السلطان ابن الأحمر على السلطان أبي الحسن بحضرة فاس وفتح جبل طارق

لما هلك السلطان أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس أبي سعيد فرج بن الأحمر المتغلب على ملك الأندلس من يد ابن عمه أبي الجيوش، قام بالأمر بعده ابنه محمد طفلاً صغيراً واستبد عليه وزيره محمد بن المحروق فقتله بعدما شب وعقل وكان الطاغية قد استولى على جبل الفتح وهو جبل طارق سنة تسع وسبعمائة وزاحم الفرنج به ثغور المسلمين وصار شجى في صدر الدولتين المرينية والأحمرية واستمر الحال على ذلك إلى أن بويع الأمير السلطان أبو الحسن وكان له رغبة في الجهاد اقتداء بمذهب جده يعقوب بن عبد الحق فبادر السلطان محمد بن إسماعيل بن الأحمر إلى الوفادة عليه لإحكام عقد المودة معه وللمفاوضة في أمر الجهاد وغير ذلك مما فيه صلاح لدولته فقدم عليه بدار ملكه بفاس سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة فأكبر السلطان أبو الحسن موصله وأركب الناس للقائه وأنزله بروض المصارة لصق داره واستبلغ في إكرامه، وفاوضه ابن الأحمر في شأن المسلمين وراء البحر وما أهمهم من عدوهم وشكى إليه حال الجبل واعتراضه شجى في صدور الثغور قبل وشكى إليه أمر بني عثمان بن أبي العلاء لأنهم كانوا قد استطالوا عليه في أرضه فأشكاه أبو الحسن وعامل الله تعالى في أسباب الجهاد، وكان يومئذٍ مشغولاً بفتنة أخيه أبي علي ومع ذلك فقد أمده بالجند وعقد لابنه أبي مالك

على خمسة آلاف من آنجاد بني مرين وأنفذهم مع ابن الأحمر لمنازلة جبل الفتح فاحتل أبو مالك بالجزيرة الخضراء وتتابعت إليه الأساطيل بالمدد، وأرسل ابن الأحمر في الأندلس حاشرين فتسايل الناس إليه من كل جهة وزحفوا جميعاً إلى الجبل وأحاطوا به وأبلوا في منازلته البلاء الحسن إلى أن فتحوه سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واقتحمه المسلمون عنوة ونفلهم الله من كان به من النصارى بما معهم، وشرع المسلمون في شحنه بالأقوات ينقلونها من الجزيرة الخضراء على خيولهم خوفاً من كرة العدو وباشر نقلها الأميران أبو مالك وابن الأحمر بأنفسهما ونقلها الناس عامة وتحيز الأمير أبو مالك إلى الجزيرة الخضراء وترك بالجبل يحيى بن طلحة بن محلي من وزراء أبيه، ووصل الطاغية بعد ثلاث من فتحه فأناخ عليه وحاصره وبرز أبو مالك بعساكره من الجزيرة فنزل بإزائه وزحف ابن الأحمر فنزل بإزائه أيضاً ثم خاف ابن الأحمر عادية العدو لقرب العهد بارتجاع الجبل وخفة من به من الحامية والسلاح، فبادر إلى لقاء الطاغية وسبق الناس إلى فسطاطه عجلاً بائعاً نفسه من الله في رضا المسلمين وسد خلتهم فتلقاه الطاغية راجلاً حاسراً إعظاماً له وأجابه إلى ما سأل من الإفراج عن هذا المعقل وأتحفه بذخائر مما لديه وارتحل من فوره وشرع الأمير أبو مالك في تحصين ذلك الثغر وسد فروجه.

وقال أبو العباس المقري في النفح: ارتجع السلطان أبو الحسن جبل طارق بعد أن أنفق عليه الأموال وصرف إليه الجنود والحشود ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيقوا به إلى أن استرجعوه ليد المسلمين، واهتم ببنائه وتحصينه وأنفق عليه أحمال المال في بنائه وحصنه وسوره وبنى أبراجه وجامعه ودوره ومحاربيه ولما كاد يتم ذلك نازله العدو براً وبحراً فصبر المسلمون وخيب الله سعي الكافرين فأراد السلطان المذكور أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدو في منازلته ولا يجد سبيلاً للتضييق عليه بمحاصرته، ورأى الناس ذلك من المحال فأنفق الأموال وأنصف العمال فأحاط بمجموعه إحاطة الهالة بالهلال، وكان بقاء هذا الجبل بيد العدو نيفاً وعشرين سنة وحاصره السلطان أبو الحسن ستة

أشهر وزاد في تحصينه ابنه السلطان أبو عنان رحمهما الله تعالى.

وأما ابن الأحمر فإن أولاد عثمان بن أبي العلاء شيوخ الغزو بالأندلس لما رأوا ما حصل بينه وبين السلطان أبي الحسن من الوفاق واتصال اليد خافوا أن تعود موافقتهم بالضرر عليهم إذ كانوا أعداء للدولتين معاً أما دولة المغرب فبخروجهم عليهم ومنابذتهم إياهم غير مرة، وأما دولة الأندلس فباستحواذهم على أهلها ومزاحمتهم إياهم في رياستها فتشاوروا فيما بينهم وفتكوا بابن الأحمر يوم رحيله عن الجبل إلى غرناطة فتقاصفوه بالرماح وقدموا أخاه أبا الحجاج يوسف بن إسماعيل مكانه فقام بالأمر بعده وشمر للأخذ بثار أخيه فاحتال على بني أبي العلاء حتى قبض عليهم وأودعهم المطبق ثم غربهم إلى تونس إلى أن كان من أمرهم ما نذكره.

فتح تلمسان ومقتل صاحبها أبي تاشفين وانقراض الدولة الأولى لبني زيان بمهلكه

لما استقام ملك المغرب للسلطان أبي الحسن بمقتل أخيه أبي علي صاحب سجلماسة ونصر الله جنده على الطاغية بالأندلس تفرغ لشأن تلمسان والانتقام من صاحبها أبي تاشفين الذي ضايق أصهاره من بني أبي حفص في أرضهم ونازعهم في ملكهم، وكان السلطان أبو الحسن قد بعث لأول بيعته شفعاء إلى أبي تاشفين في أن يتخلى عن عمل الموحدين ويرجع إلى تخوم أعماله التي ورثها عن سلفه وقال له في جملة ذلك: «كف عنهم ولو سنة واحدة ليسمع الناس أني نافحت عن صهري ويقدروا قدري» فاستنكف أبو تاشفين من ذلك وأغلظ للرسل في القول وأفحش بعض السفهاء من عبيده في الرد عليهم بمجلسه ونالوا من السلطان أبي الحسن بمحضره فعادت الرسل إليه وأعلموه بالقضية على وجهها فحمي لذلك وغضب وتأكد عزمه على النهوض إلى تلمسان فكان من نهوضه أولاً وانتقاض أخيه عليه وعوده إليه من تاسالت ما قصصناه قبل مستوفى.

ثم عاود السلطان النهوض إلى تلمسان في هذه المرة فعسكر بظاهر فاس الجديد وبعث وزراءه ووجوه دولته إلى قاصية البلاد المراكشية لحشد القبائل والجموع ثم تعجل وعرض جنوده وأزاح عللهم وعبى مواكبه وفصل في التعبية من فاس أواسط خمس وثلاثين وسبعمائة فسار يجر الشوك والمدر من أمم المغرب وجنوده، ومر بوجدة فجمر عليها الكتائب للحصار ثم مر بندرومة فقاتلها بعض يوم ثم اقتحمها عنوة فاستولى عليها وقتل حاميتها، ثم سار على التعبية حتى أناخ على تلمسان ثم بلغه الخبر بتغلب عسكره على وجدة سنة ست وثلاثين وسبعمائة فأوعز إليهم بتخريب أسوارها فأضرعوها بالأرض وتوافت لديه أمداد النواحي وحشودها، ووفدت عليه قبائل مغراوة وبني توجين فأتوه طاعتهم وسرح كتائبه إلى القاصية فتغلب على وهران وهنين ثم على مليانة وتنس والجزائر وغيرها واستولى على الضواحي ونزع إليه يحيى بن موسى كبير قواد أبي تاشفين وصاحب الثغور الشرقية من أعماله فلقاه مبرة وكرامة ورفع بساطه ونظمه في طبقات وزرائه وجلسائه، وعقد على فتح البلاد الشرقية ليحيى بن سليمان العسكري شيخ بني عسكر بن محمد وصهر السلطان على ابنته فسار في الألوية والجنود فطوع ضاحية الشرق وافتتح أمصاره حتى انتهى إلى لمدية ونظم البلاد في طاعة السلطان أبي الحسن واحتشد جموعها فلحقوا بمعسكره واستعمل السلطان أبو الحسن عماله على الجهات.

واختط بغربي تلمسان البلد الجديد لسكناه ونزول عساكره، وأحيا معالم المنصورة التي كان اختطها عمه يوسف بن يعقوب وخربها بنو زيان من بعده فأدار عليها سياجاً من السور ونطاقاً من الخندق ونصب المجانيق وآلات من وراء خندقه وجعلت رماته تنضح رماة العدو بالنبل ويشغلونهم بأنفسهم حتى شيد برجاً آخر يقرب منهم وترتفع شرفاته فوق خندقهم وتماصع المقاتلة بالسيوف من أعاليه ورتب المجانيق لرجمها وأحكم عملها لدكها فنالت من ذلك فوق الغاية، وعظم أثرها في القصور العظيمة والقباب الرفيعة التي تأنق أبو تاشفين في تشييدها، وكان السلطان أبو الحسن يصبح المقاتلة كل يوم

ويطوف على البلد من جميع جهاته لتفقد رؤساء العسكر في مراكزهم وربما انفرد في طوافه فطاف في بعض الأيام منتبذاً عن الحاشية، فاهتبل بنو عبد الواد غرته حتى إذا سلك ما بين الجبل والبلد فتحوا أبوابها وأرسلوا عليه عقبان جنودهم يحسبونها فرصة كالتي كانت ليغمراسن بن زيان في السعيد الموحدي، واضطروه إلى سفح الجبل حتى لحق بأوعاره وكاد ينزل عن فرسه هو ووليه عريف بن يحيى أمير عرب سويد، وأحس أهل المعسكر بذلك فركبوا زرافات ووحداناً وركب ابناه الأميران أبو عبد الرحمٰن وأبو مالك وهما جناحا عسكره وعقابا جحافله وتهاوت إليهم صقور بني مرين من كل جو فانكشفت عساكر بني عبد الواد وولوا الأدبار منهزمين لا يلوي أحد منهم على أحد، واعترضهم مهوى الخندق فتطارحوا فيه وتهافتوا على ردمه فكان الهالك يومئذٍ فيه أكثر من الهالك بالسلاح، وهلك من بني توجين يومئذٍ عمر بن عثمان كبير الحشم وعامل جبل وانشريس ومحمد بن سلامة بن علي كبير بني يدللتن وصاحب قلعة تاوغزوت وهما ما هما في زناتة إلى أشباه لهما استلحموا في هذه الوقعة فحص هذا اليوم من جناح دولة بني زيان وحطم منها، واتصل الحصار مدة من ثلاث سنين حتى إذا كان السابع والعشرون من رمضان من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة اقتحم السلطان أبو الحسن مدينة تلمسان عنوة، ووقف أبو تاشفين رحمه الله عند باب قصره في جماعة من أصحابه منهم ولداه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن علي ووليه عبد الحق بن عثمان وهو الذي كان خرج على السلطان أبي الربيع وبايعه عبد الرحمٰن بن يعقوب الوطاسي حسبما مر، فإنه لحق به بعد تلك الوقعة بتلمسان ثم منها إلى الأندلس ثم حضر انتقاض العزفي بسبتة سنة ست عشرة كما مر ثم لحق بأبي بكر الحفصي ثم نزع عنه إلى أبي تاشفين واستمر عنده إلى هذا اليوم فشهده في جماعة من بنيه وبنى أخيه وكانوا أحلاس حرب وفتيان كريهة فمانعوا دون القصر واستماتوا عليه إلى أن استلحموا ورفعت رؤوسهم على عصا الرماح فطيف بها وغصت سكك البلد من داخلها وخارجها بالعساكر وكظت أبوابها بالزحام حتى لقد كب الناس على أذقانهم

وتواقعوا على مساربهم، فوطئوا بالحوافر وتراكمت أشلاؤهم ما بين البابين حتى ضاق المسلك ما بين السقف ورحبة الباب وانطلقت الأيدي على المنازل نهباً واكتساحاً.

وأما أبو تاشفين فإنه قاتل حتى قتل ابناه عثمان ومسعود أمامه وخلصت إليه جراحات فأثخنته وتقبض عليه بعض الفرسان فساقه إلى السلطان فلقيه ابنه الأمير أبو عبد الرحمٰن فأمر به فقتل في الحين واحتز رأسه وسخط السلطان ذلك من فعله لأنه كان حريصاً على توبيخه وتقريعه، وقال ابن الخطيب: وقف أبو تاشفين وبنوه بإزاء القصر مدافعين عن أنفسهم وقاموا مقام الصبر والاستجماع وصدقوا عن أنفسهم الدفاع إلى أن كوثروا وأعجلتهم ميتة العز عن شد الوثاق وإمكان الشمات فكان في شأنهم عبرة رحمهم الله.

وخلص السلطان أبو الحسن إلى المسجد الجامع بحاشيته واستدعى شيوخ الفتيا بتلمسان وهما الإمامان الشهيران أبو زيد عبد الرحمٰن وأبو موسى عيسى ابنا الإمام فخلصوا إليه بعد الجهد ووعظوه وذكروه بما نال الناس من النهب والعيث فركب لذلك بنفسه وسكن الناس وقبض أيدي الجند عن الفساد وعاد إلى معسكره بالبلد الجديد وقد كمل الفتح وعز النصر واستولى السلطان أبو الحسن على تلك الإمارة المؤثلة بما اشتملت عليه من نفيس الحلى وثمين الذخيرة وفاخر المتاع وخطير العدة وبديعة الآلة وصامت المال وضروب الرقيق وصنوف الأثاث والماعون، ورفع القتل عن بني عبد الواد أعدائه وشفا نفسه بقتل سلطانهم وعفا عنهم وأثبتهم في الديوان وفرض لهم العطاء واستتبعهم على راياتهم ومراكزهم وجمع كلمة بني واسين من بني مرين وبني عبد الواد وبني توجين وسائر زناتة وصاروا عصباً تحت لوائه وسد بكل طائفة منهم ثغراً من أعماله، فأنزل منهم بقاصية السوس وبلاد غمارة وأجاز منهم إلى ثغور عمله بالأندلس حامية ومرابطين واندرجوا في جملته واتسع نطاق مملكته، وأصبح أبو الحسن ملك زناتة بعد أن كان ملك بني مرين وسلطان العدوتين بعد أن كان سلطان المغرب فقط ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128].

مراسلة السلطان أبي الحسن لسلطان مصر وبعثه المصاحف من خطه إلى المساجد الثلاثة شرفها الله

كان للسلطان أبي الحسن مذهب ورأى في ولاية ملوك المشرق والمكلف بالمعاهد الشريفة اقتداء في ذلك بعمه يوسف بن يعقوب وغيره من سلفه وضاعف ذلك لديه متين ديانته ورفيع همته، ولما قضى من أمر تلمسان ما قضى واستولى على المغربين خاطب لحينه صاحب مصر والشام والحجاز الملك الناصر محمد بن قلاوون وعرفه بالفتح وارتفاع العوائق عن ركب الحاج في سابلتهم، وكان سفيره في ذلك فارس بن ميمون بن وردار وعاد بجواب الكتاب وتقرير المودة بين الخلف كما كانت بين السلف، فأجمع السلطان أبو الحسن حينئذٍ على كتب نسخة عتيقة من المصحف الكريم بخط يده ليوقفها بالحرم الشريف حرم مكة قربة إلى الله تعالى وابتغاء للمثوبة فانتسخها بيده وجمع الوراقين لتنميقها وتذهيبها والقراء لضبطها وتهذيبها، وصنع لها وعاء مؤلفاً من الآبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة وغشي بصفائح الذهب ورصع بالجوهر والياقوت واتخذ له أصونة الجلد المحكمة الصنعة المرقوم أديمها بخطوط الذهب ومن فوقها غلائف الحرير والديباج وأغشية الكتان وأخرج من خزائنه أموالاً عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على القراء فيها، وأوفد على الملك الناصر خواص مجلسه وكبار أهل دولته مثل عريف بن يحيى أمير بني زغبة من عرب بني هلال ومثل السابق المقدم في بساطه على كل خالصة عطية بن مهلهل بن يحيى كبير أخواله من عرب الخلط وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وعريف الوزعة ببابه الشيخ أبا محمد عبد الله بن قاسم المزوار.

واحتفل في الهدية للسلطان صاحب مصر احتفالاً تحدث الناس به دهراً قال ابن خلدون: «وقفت على برنامج الهدية بخط أبي الفضل بن أبي مدين الرسول المذكور ووعيته ثم أنسيته وذكر لي بعض قهارمة الدار أنه كان فيها خمسمائة من

عتاق الخيل المقربات بسروج الذهب والفضة ولجمها خالصاً ومغشى ومموهاً وخمسمائة حمل من متاع المغرب وماعونه وأسلحته ومن نسج الصوف المحكم ثياباً وأكسية وبرانس وعمائم وإزراً معلمة وغير معلمة ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملوناً وغير ملون وساذجاً ومنمقاً ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة الدبغ المنسوبة إلى اللمط ومن خرثي المغرب وماعونه ما تستطرف صناعته بالمشرق حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت واعتزمت حظية من حظايا أبيه على الحج في ذلك الركب فأذن لها واستبلغ في تكرمتها واستوصى بها وفده وسلطان مصر في كتابه، وفصلوا من تلمسان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ووصلوا إلى مصر في الثاني والعشرين من رمضان من السنة المذكورة وأدوا رسالتهم إلى الملك الناصر وقدموا هديتهم إليه فقبلها وحسن موقعها لديه وكان يوم وفادتهم عليه بمصر يوماً مشهوداً تحدث الناس به دهراً ولقاهم سلطان مصر في طريقهم أنواع البر والكرامة حتى قضوا فرضهم ووضعوا المصحف الكريم حيث أمرهم صاحبه، وأسنى الملك الناصر هدية السلطان من الفساطيط المشرقية الغريبة الشكل والصنعة بالمغرب ومن ثياب الإسكندرية البديعة النسج المرقومة بالذهب، ورجعهم بها إلى مرسلهم وقد استبلغ في تكرمتهم وصلتهم وبقي حديث هذه الهدية مذكوراً بين الناس لهذا العهد» اهـ كلام ابن خلدون ببعض إيضاح.

وقد ذكر الإمام الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق في كتابه «المسند الصحيح الحسن من أخبار السلطان أبي الحسن» هذه الهدية وفصل منها بعض ما أجمله ابن خلدون فقال: أرسل السلطان أبو الحسن للناصر بن قلاوون صاحب الديار المصرية من أحجار الياقوت العظيم القدر والثمن ثمانمائة وخمسة وعشرين ومن الزمرذ مائة وثمانية وعشرين ومن الزبرجد مائة وثمانية وعشرين ومن الجوهر النفيس الملوكي ثلاثمائة وأربعة وستين وأرسل حللاً كثيرة منها مذهبة ثلاثة عشر ومن الأنان عشرين مذهبة ومن الخلادي ستة وأربعين ومن القنوع ستة وعشرين مذهبة ومن المحررات المختمة ثمانمائة ومن الرصان عشرين شقة ومن الأكسية المحررة أربعة وعشرين ومن

البرانس المحررة ثمانية عشر ومن المشقفات مائة وخمسين ومن أحارم الصوف المحررة عشرين ومن شقق الملف الرفيع ستة عشر ومن الفضالى المنوعة والفرش والمخاد المنبوق والحلل ثمانمائة ومن أوجه اللحف المذهبة عشرين وحائطين حلة وحنابل مائة واثنى عشر كلها حرير وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة ومن السيوف المحلات بالذهب المنظم بالجوهر عشرة والسروج عشرة بركب الذهب كذلك ومهاميز الذهب وثلاثة ركب فضة وستة مزججة ومذهبة ومضمتان من ذهب مما يليق بالملوك وشاشية حديد بذهب مكلل بالجوهر ومن لزمات الفضة عشرة وسروج مخروزة بالفضة عشرة وعشر علامات مغشاة مذهبة وعشر رايات مذهبة وعشر براقع مذهبة وعشر أمثلة مرقومة وثلاثون جلداً شرك وأربعة آلاف درقة لمط منها مائتان بنهود الذهب وثمانمائة بنهود الفضة وخباء قبة كبيرة من مائة بنيقة لها أربعة أبواب وقبة أخرى مضربة من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بحلة مذهبية وهي من حرير أبيض ومرابطها حرير ملون وعمودها عاج وآبنوس وأكبارها من فضة مذهبة ومن البزات الأحرار المنتقات أربعة وثلاثين ومن عتاق الخيل العراب ثلاثمائة وخمساً وثلاثين ومن البغال الذكور والإناث مائة وعشرين ومن الجمال سبعمائة، وتوجهت مع هذه الهدية أمم برسم الحج مع الربعة المكرمة يعني ربعة المصحف الكريم، وأعطى السلطان الحرة أم أخته أم ولد أبيه مريم ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهباً ولقاضي الركب ثلاثمائة وكسوة ولقائد الركب أربعمائة وكساوى متعددة وبغلات وللرسول المعين للهدية ألفاً، ولشيخ الركب أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح خمسمائة ولجماعة الضعفاء من الحجاج ستمائة، وبرسم العطاء للعرب ثلاثة آلاف وثمانمائة ولشراء الرباع ستة عشر ألفاً وخمسمائة ذهباً اهـ، وذكر في الكتاب المذكور أن السلطان أبا الحسن أهدى هدايا غير هذه لكثير من الملوك منها لصاحب الأندلس صلة وصدقة وهدية في مرات، ومنها لملوك النصارى بعد هداياهم، ومنها لسلاطين السودان كصاحب مالي، ومنها لصاحب إفريقية ومنها لصاحب تلمسان اهـ، وقال العلامة المقريزي مؤرخ مصر في «كتاب السلوك» ما نصه:

«وفي ثاني وعشرين من رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة قدمت الحرة من عند السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني صاحب فاس تريد الحج ومعها هدية جليلة إلى الغاية نزل لحملها من الأسطول السلطاني ثلاثون قطاراً من بغال النقل سوى الجمال وكان من جملتها أربعمائة فرس منها مائة حجرة ومائة فحل ومائتا بغل وجميعها بسروج ولجم مسقطة بالذهب والفضة وبعضها سروجها وركبها ذهب وكذلك لجمها وعدتها اثنان وأربعون رأساً منها سرجان من ذهب مرصع بجوهر وفيها اثنان وثلاثون بازاً وفيها سيف قرابه ذهب مرصع وحياصة ذهب مرصع وفيها مائة كساء وغير ذلك من القماش العالي، وكان قد خرج المهمندار إلى لقائهم وأنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح وهم جمع كثير جداً وكان يوم طلوع الهدية من الأيام المذكورة ففرق السلطان الهدية على الأمراء بأسرهم على قدر مراتبهم حتى نفدت كلها سوى الجوهر واللؤلؤ فإنه اختص به، فقدرت قيمة هذه الهدية بما يزيد على مائة ألف دينار، ثم نقلت الحرة إلى الميدان بمن معها ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والحلواء والفاكهة في كل يوم بكرة وعشية ما عمهم وفضل عنهم، فكان مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأساً من الغنم ونصف إردب أرزاً وقنطار حب رمان وربع قنطار سكراً وثمان فانوسيات شمعاً وتوابل الطعام، وحمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم وأجرة حمل أثقالهم مبلغ ستين ألف درهم ثم خلع على جميع من قدم مع الحرة فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين خلعة على قدر طبقاتهم حتى خلع على الرجال الذين قادوا الخيول، وحمل إلى الحرة من الكسوة ما يجل قدره وقيل لها أن تملي ما تحتاج إليه ولا يعوزها شيء وإنما تريد عناية السلطان إكرامها وإكرام من معها حيث كانوا، فتقدم السلطان إلى النشو وإلى الأمير أحمد إن بغى بتجهيزها اللائق بها فقاما بذلك واستخدما لها السقائين والضوئية وهيأ كل ما تحتاج إليه في سفرها من أصناف الحلاوات والسكر والدقيق والبجماط وطلبا الحمالة لحمل جهازها وأزودتها وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولي الجيزة وأمره أن يرحل بها في مركب لها

بمفردها قدام المحمل ويمتثل كلما تأمر به وكتب لأميري مكة والمدينة بخدمتها أتم خدمة اهـ وفيه بعض مخالفة لما وصفه ابن مرزوق في الهدية والخطب سهل.

ثم انتسخ السلطان أبو الحسن رحمه الله نسخة أخرى من المصحف الكريم على القانون الأول ووقفها على القراء بالمدينة وبعث بها من تخيره لذلك العهد من أهل دولته سنة أربعين وسبعمائة وفعل مثل ذلك بحرم بيت المقدس، قال العلامة أبو العباس المقري في نفح الطيب: «كان السلطان أبو الحسن المريني قد كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه وأرسلها إلى المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، ووقف عليها أوقافاً جليلة كتب سلطان مصر والشام توقيعه بمسامحتها من إنشاء الأديب الشهير جمال الدين بن نباتة المصري، ونص ما يتعلق به الغرض منه هنا قوله:

«وهو الذي مد يمينه بالسيف والقلم فكتب في أصحابها وسطر الختمات الشريفة فأيد الله حزبه بما سطره من أحزابها، واتصلت ملائكة النصر بلوائه تغدو وتروح، وكثرت فتوحه لأملياء الغرب فقالت أوقاف الشرق: لا بد للفقراء من فتوح، ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقلمه المجيد المجدي وخط سطورها بالعربي وطالما خط في صفوف الأعداء بالهندي، ورتب عليها أوقافاً تجري أقلام الحساب في إطلاقها وطلقها وحبس أملاكاً شامية تحدث بنعم الأملاك التي سرت من مغرب الأرض إلى مشرقها، والله تعالى يمتع من وقف هذه الختمات بما سطر له في أكرم الصحائف، وينفع الجالس من ولاة الأمور في تقريرها ويتقبل من الواقف» اهـ، قال المقري: وقد رأيت أحد المصاحف المذكورة وهو الذي ببيت المقدس وربعته في غاية الصنعة اهـ والله تعالى أعلم.

واتصلت الولاية بين السلطان أبي الحسن وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وولي أمر مصر من بعده ابنه أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن قلاوون فخاطبه السلطان أبو الحسن أيضاً على ما نذكره بعد إن شاء الله.

نكبة الأمير أبي عبد الرحمٰن يعقوب ابن السلطان أبي الحسن وفرار وزيره زيان بن عمر الوطاسي والسبب في ذلك

كان السلطان أبو الحسن رحمه الله عندما نهض إلى تلمسان أولاً وثانياً ينتظر قدوم صهره السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي عليه لما كان انعقد بينه وبين أبيه أبي سعيد رحمه الله من الاجتماع على تلمسان والتعاون على حصارها، ولما فتح أبو الحسن تلمسان في التاريخ المتقدم كان وزير الحفصيين الشيخ أبو محمد بن تافراجين شاهداً لذلك الفتح قدم رسولاً من عند مخدومه السلطان أبي بكر المذكور، فأسر إلى السلطان أبي الحسن بأن مخدومه قادم عليه للقائه وتهنئته بالظفر بعدوه فتشوف السلطان أبو الحسن إليها لما كان يحب الفخر ويعنى به، وارتحل عن تلمسان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة وعسكر بمتيجة منتظراً لوفادة صهره عليه فتكاسل الحفصي عن القدوم بسبب تثبيط محمد بن الحكيم من رجال دولته إياه عن ذلك وقال له: «إن لقاء سلطانين لا يتفق إلا في يوم على أحدهما» فكره الحفصي ذلك وتقاعد عنه وطال مقام السلطان أبي الحسن في انتظاره ثم طرقه بفسطاطه مرض ألزمه الفراش حتى تجدث أهل العسكر بمهلكه.

وكان ابناه الأميران أبو عبد الرحمٰن وأبو مالك متناغيين في ولاية عهد منذ أيام جدهما أبي سعيد وكان أبوهما قد جعل لهما لأول دولته ألقاب الإمارة وأحوالها من اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة وتدوين الدواوين وإثبات العطاء واستلحاق الفرسان، وانفراد كل بعسكره على حدة وجعل لهما مع ذلك الجلوس بمقعد فصله مناوبة لتنفيذ الأوامر السلطانية فكانا لذلك رديفين له في سلطانه، ولما اشتد وجع السلطان في هذه المرة تمشت سماسرة الفتن بينهما وتحزب أهل العسكر لهما حزبين وشوشوا بواطنهما، فبث كل واحد منهما المال وحمل على المقربات وصار الجيش شيعاً، وهم الأمير أبو عبد الرحمٰن بالتوثب على الأمر قبل أن يتبين حال السلطان بإغراء

وزرائه وبطانته بذلك. وتفطن خاصة السطان لما وقع فأخبروه الخبر وحضوه على الخروج إلى الناس قبل أن يتفاقم الأمر ويتسع الخرق، فبرز السلطان إلى فسطاط جلوسه وتسامع أهل المعسكر به فازدحموا إلى بساطة وتقبيل يده، وتقبض على أهل الظنة من الجيش فأودعهم السجن وسخط على الأميرين وأمر برحيلٍ من كان معهما من الجند فردهم إلى معسكره، ثم رجع إلى فسطاطه وطفئت نار الفتنة وسكن سعي المفسدين وانتبذ الناس عن الأميرين المذكورين فبقيا أوحش من وتد بقاع، فاشتد جزع الأمير أبي عبد الرحمٰن وركب من فسطاطه وخاض الليل فأصبح بحلة أولاد على أمراء بني زغبة من هلال الموطنين بأرض حمزة فتقبض عليه أميرهم موسى بن أبي الفضل ورده إلى أبيه فاعتقله بوجدة ورتب العيون لحراسته ولحق وزيره زيان بن عمر الوطاسي بالموحدين أصحاب تونس فأجاروه، ورضي السلطان صبيحة فرار أبي عبد الرحمٰن عن أخيه أبي مالك وعقد له على ثغور عمله بالأندلس وصرفه إليها وانكفأ راجعاً إلى تلمسان والله أعلم.

ثورة ابن هيدور الجزار وما كان من أمره

لما تقبض السلطان أبو الحسن على ابنه أبي عبد الرحمٰن وأودعه السجن تفرق خدمه وحشمه في الجهات، وكان منهم رجل جزار مرتب في مطبخه، يعرف بابن هيدور وكان له شبه في الصورة بأبي عبد الرحمٰن فلحق ببني عامر بن زغبة وكانوا لذلك العهد منحرفين عن طاعة السلطان أبي الحسن لاختصاصه عريف بن يحيى أمير بني سويد أعدائهم، فلما لحق بهم ابن هيدور هذا انتسب لهم إلى السلطان أبي الحسن وأنه ابنه أبو عبد الرحمٰن فشبه لهم وبايعوه وأجلبوا به على نواحي لمدية فبرز إليهم قائدها فهزموه، ثم جمع لهم ونزمار بن عريف بن يحيى فهزمهم وافترق جمعهم ونبذوا للجزار عهده، فلحق ببني يزناتن من زواوة فنزل على شيختهم شمسي من بني

عبد الصمد منهم، وكانت هذه المرأة قد ملكتهم وغلبت عليهم بقومها ورجالها وكان لها بنون عشرة فاستفحل أمرها بهم ولما نزل عليها الجزار المذكور وانتسب لها إلى السلطان أبي الحسن قامت بأمره وشمرت عزائمها لإجارته وحملت قومها على طاعته وشاع في الناس خبره فمن مصدق ومن مكذب وسرب السلطان أبو الحسن الأموال في قومها وبنيها على إسلامه إليه فأبت ثم نمى إليها الخبر بكذبه وتمويهه فنبذت إليه عهده وخرج عنها إلى بلاد العرب فلحق بالذواودة أمراء رياح من بني هلال ونزل على سيدهم يعقوب بن علي وانتسب له في مثل ذلك فأجاروه إن صدق نسبه وأوعز السلطان أبو الحسن إلى صهره أبي بكر الحفصي في شأن الجزار فبعث الحفصي إلى يعقوب بن علي في ذلك، فأشخصه إلى السلطان أبي الحسن مع بعض حاشيته، فلحق به بمكانه بسبتة يريد الجهاد فامتحنه وقطعه من خلاف وانحسم داؤه وبقي المغرب تحت جراية من الدولة إلى أن هلك في بعض السنين، وأما الأمير أبو عبد الرحمٰن فإنه لما سجن بوجدة بقي هنالك إلى سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة فوثب ذات يوم بالسجان فقتله واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن فأنفذ حاجبه علان بن محمد فقضى عليه رحم الله الجميع.

أخبار السلطان أبي الحسن في الجهاد وما كان من وقعة طريف التي محص الله فيها المسلمين وغير ذلك

لما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوه وعلت على الأيدي يده وانفسح نطاق ملكه دعته همته إلى الجهاد وكان كلفاً به فأوعز إلى ابنه الأمير أبي مالك أمير الثغور الأندلسية سنة أربعين وسبعمائة بالدخول إلى دار الحرب وجهز إليه العساكر من حضرته وأنفذ إليه الوزراء، فشخص أبو مالك غازياً وتوغل في بلاد النصرانية واكتسحها وخرج بالسبي والغنائم إلى أدنى صدر من أرضهم، وأناخ بها فاتصل به الخبر أن النصارى قد جمعوا له وأنهم

أغذوا السير في اتباعه فأشار عليه الملأ بالخروج من أرضهم وعبور الوادي الذي كان تخماً بين أرض المسلمين ودار الحرب ويتحيز إلى مدن المسلمين فيمتنع بها فلج في إبايته وصمم على التعريس وكان قرماً ثبتاً إلا أنه غير بصير بالحرب لصغر سنه، فصبحتهم عساكر النصرانية في مضاجعهم قبل أن يركبوا وخالطوهم في بياتهم وأدركوا الأمير أبا مالك بالأرض قبل أن يستوي على فرسه فجدلوه[1] واستلحموا الكثير من قومه واحتووا على المعسكر بما فيه من أموال المسلمين وأموالهم ورجعوا على أعقابهم، واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن فتفجع لهلاك ابنه واسترحم له واحتسب عند الله أجره، ثم أنفذ وزراءه إلى سواحل المغرب لتجهيز الأساطيل وفتح ديوان العطاء وعرض الجنود وأزاح عللهم واستنفر أهل المغرب كافة، ثم ارتحل إلى سبتة ليباشر أحوال الجهاد وتسامعت به أمم النصرانية فاستعدوا للدفاع وأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق ليمنع السلطان من الإجازة واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مراسي المغرب، وبعث إلى أصهاره الحفصيين بتجهيز أسطولهم إليه فعقدوا عليه لزيد بن فرحون قائد أسطول بجاية ووافى سبتة في ستة عشر أسطولاً من أساطيل إفريقية كان فيها من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية وتوافت أساطيل المغربين بمرسى سبتة تناهز المائة، وعقد السلطان عليها لمحمد بن علي العزفي الذي كان صاحب سبتة يوم فتحها أيام السلطان أبي سعيد وأمره بمناجزة أسطول النصارى بالزقاق وقد تكامل عديدهم وعدتهم، فاستلأموا وتظاهروا في السلاح وزحفوا إلى أسطول النصارى وتواقفوا ملياً ثم قربوا الأساطيل بعضها من بعض وقرنوها للمصاف، فلم يمض إلا كلاّ ولا حتى هبت ريح النصر وأظفر الله المسلمين

(1) وحملت جثته إلى شالة وأقبر بها وقد وقف القنصل الفرنساوي شينيي Chénier على رخامة ضريحه انظر تأليفه المسمى أبحاث في تاريخ المغاربة ج3ص287 فقد استقصى ذلك واستدل عليه بالأثر الذي عثر عليه بنفسه.

بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هبراً بالسيوف وطعناً بالرماح وألقوا أشلاءهم في اليم وقتلوا قائدهم الملند، واستاقوا أساطيلهم مجنوبة إلى مرسى سبتة فبرز الناس لمشاهدتها وطيف بكثير من رؤوسهم في جوانب البلد ونظمت أصفاد الأسرى بدار الإنشاء، وعظم الفتح وجلس السلطان للتهنئة وأنشد الشعراء بين يديه وكان ذلك يوم السبت سادس شوال سنة أربعين وسبعمائة فكان من أعز أيام الإسلام، ثم شرع السلطان أبو الحسن في إجازة العساكر من المتطوعة والمرتزقة، وانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة، ولما تكاملت العساكر بالعبور وكانت نحو ستين ألفاً أجاز هو في أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين وسبعمائة ونزل بساحة طريف وأناخ عليها ثالث محرم من السنة بعدها وشرع في منازلتها، ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن الأحمر في عسكر الأندلس من غزاة بني مرين وحامية الثغور ورجالة البدو، فعسكروا حذاء معسكره وأحاطوا بطريف نطاقاً واحداً وأنزلوا بها أنواع القتال ونصبوا عليها الآلات، وجهز الطاغية أسطولاً آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن المعسكر، وطال مقام المسلمين بمكانهم حول طريف ففنيت أزوادهم وقلت العلوفات فوهن الظهر واختلت أحوالهم، ثم احتشد الطاغية أمم النصرانية وظاهره البرتقال صاحب أشبونة وغرب الأندلس وزحفوا إلى المسلمين لستة أشهر من نزولهم على طريف ولما قرب الطاغية من معسكر المسلمين سرب إلى طريف جيشاً من النصارى أكمنه بها إلى وقت الحاجة إليه فدخلوها ليلاً على حين غفلة من العسس الذين أرصدوا لهم وأحسوا بهم آخر الليل فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد فقتلوا منهم عدداً وقد نجا أكثرهم فلبسوا على السلطان أنه لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوته، ثم زحف الطاغية من الغد في جموعه إلى المسلمين وعبأ السلطان مواكبه صفوفاً وتزاحفوا ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وهو الذي

دخل ليلاً وخالفوا المسلمين إلى معسكرهم وعمدوا إلى فسطاط السلطان فدافعهم عنه الناشبة الذين كانوا على حراسته فاستلحموهم لقلتهم، ثم دافعهم النساء عن أنفسهم فقتلوهن كذلك وخلصوا إلى حظايا السلطان منهن عائشة بنت عمه أبي بكر بن يعقوب بن عبد الحق وفاطمة بنت السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي وغيرهما من حظاياه فقتلوهن واستلبوهن ومثلوا بهن وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر ناراً ثم أحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان تاشفين ابن السلطان أبي الحسن صمم في طائفة من قومه وحاشيته حتى خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به وتقبضوا عليه وعظم المصاب بأسره، وكان الخطب على الإسلام قلما فجع بمثله وذلك ضحوة يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة من سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وولى السلطان أبو الحسن متحيزاً إلى فئة المسلمين واستشهد كثير من الغزاة وتقدم الطاغية حتى انتهى إلى فسطاط السلطان من المحلة فأنكر قتل النساء والولدان وكان ذلك منتهى أثره، ثم انكفأ راجعاً إلى بلاده ولحق ابن الأحمر بغرناطة وخلص السلطان أبو الحسن إلى الجزيرة الخضراء ثم منها إلى جبل الفتح ثم ركب الأسطول إلى سبتة في ليلة غده ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم.

استيلاء العدو على الجزيرة الخضراء

لما رجع الطاغية من طريف استأسد على المسلمين بالأندلس وطمع في التهامهم وجمع عساكر النصرانية ونازل أولاً قلعة بني سعيد ثغر غرناطة وعلى مرحلة منها، وجمع الآلات والأيدي على حصارها وأخذ بمخنقها فأصابهم الجهد من العطش فنزلوا على حكمة سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، وأدال الله الطيب منها بالخبيث وانصرف الطاغية إلى بلاده، وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعود إلى الجهاد لرجع الكرة فأرسل في المدائن حاشرين وأخرج قواده إلى سواحل المغرب لتجهيز الأساطيل فتكامل

له منها عدد معتبر، ثم ارتحل إلى سبتة لمشارفة ثغور الأندلس وقدم عساكره إليها مع وزيره عسكر بن تاحضريت وعقد على الجزيرة الخضراء لمحمد بن العباس بن تاحضريت من قرابة الوزير وبعث إليها مدداً من العسكر مع موسى بن إبراهيم اليريناني من المرشحين للوزارة نيابة، وبلغ الطاغية خبره فجهز أسطوله وأجراه إلى بحر الزقاق لمدافعته وتلاقت الأساطيل ومحص الله المسلمين واستشهد منهم أعداد وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق فملكه دون المسلمين، وأقبل الطاغية من إشبيلية في عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرفأ أساطيل المسلمين وفرضة المجاز ورجا أن ينظمها في مملكته مع جارتها طريف وحشر الفعلة والصناع للآلات وجمع الأيدي عليها وطاولها الحصار واتخذ أهل المعسكر بيوتاً من الخشب للمطاولة، وجاء السلطان أبو الحجاج بن الأحمر بعساكر الأندلس فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح في سبيل الممانعة وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة يسرب إلى أهل الجزيرة المدد من الفرسان والمال والقوت في أوقات الغفلة من أساطيل العدو تحت جناح الليل وأصيب كثير من المسلمين في ذلك، ولم يغن على أهل الجزيرة ذلك المدد شيئاً واشتد عليهم الحصار وأصابهم الجهد، وأجاز السلطان أبو الحجاج إلى السلطان أبي الحسن يفاوضه في شأن السلم مع الطاغية بعد أن أذن الطاغية له في الإجازة مكراً به وأصدر له بعض الأساطيل في طريقه فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا إلى الساحل بعد غص الريق، وضاقت أحوال أهل الجزيرة ومن كان بها من عسكر السلطان فسألوا الطاغية الأمان على أن ينزلوا له عن البلد فبذله لهم وخرجوا فوفى لهم وأجازوا إلى المغرب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، فأنزلهم السلطان ببلاده على خير نزل ولقاهم من المبرة والكرامة ما عوضهم بما فاتهم وخلع عليهم وحملهم ووصلهم بما تحدث الناس به، وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقوبة له على تقصيره في المدافعة مع تمكنه منها، وانكفأ السلطان أبو الحسن راجعاً إلى حضرته موقناً بظهور أمر الله وإنجاز وعده والله متم نوره.ولو كره الكافرون.

بقية أخبار بني أبي العلاء

قد تقدم لنا أن عثمان بن أبي العلاء كان يلي مشيخة الغزاة بالأندلس وأنه استشهد سنة ثلاثين وسبعمائة[1] وقام بأمره ابنه أبو ثابت فاستحوذ بعصبيته وقومه على بني الأحمر، فقتلوا محمد بن إسماعيل منهم مرجعه من فتح جبل الفتح ونصبوا للأمر أخاه يوسف بن إسماعيل حسبما تقدم الإلماع بذلك، ثم إن السلطان أبا الحجاج هذا بقي بين جنبيه داء دخيل من بني أبي العلاء الذين فتكوا بأخيه فلم يزل يسعى في أمرهم حتى قبض عليهم وأودعهم المطبق، ثم غربهم إلى تونس فنزلوا على السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن فكتب إليه باعتقالهم ففعل، ثم بدا له فبعث إليه مع عريف الوزعة ببابه ميمون بن بكرون في إشخاصهم إلى حضرته فتوقف الحفصي عن ذلك وأبى من إخفار ذمتهم، فأشار عليه وزيره أبو محمد بن تافراجين ببعثهم إليه وأنه لا يريد بهم إلا الخير فبعثهم وبعث كتابه بالشفاعة فيهم فقدموا على السلطان أبي الحسن مرجعه من الجهاد سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة فتلقاهم بالبر والكرامة إكراماً لشفيعهم وأنزلهم بمعسكره وحملهم على الخيول المسومة بالمراكب الثقيلة وضرب لهم الفساطيط وأسنى لهم الخلع والجوائز وفرض لهم في أعلى رتب العطاء وصاروا في جملته، ولما احتل بسبتة لمشارفة أحوال الجزيرة الخضراء سعى عنده فيهم بأن كثيراً من المفسدين يداخلونهم في الخروج والتوثب على الأمر فتقبض عليهم وأودعهم السجن بمكناسة الزيتون، واستمروا هنالك إلى أن قام أبو عنان فأطلقهم واستعان بهم على أمره حسبما نذكره إن شاء الله.

---

(1) بل مات حتف أنفه.

مراسلة السلطان أبي الحسن لصاحب مصر أبي الفداء إسماعيل بن محمد بن قلاوون

قد تقدم لنا أن السلطان أبا الحسن راسل الملك الناصر صاحب مصر وهاداه بما عظم وقعه عند الخاصة والعامة، واتصلت الولاية بينه وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وولي الأمر من بعده ابنه أبو الفداء إسماعيل، فخاطبه السلطان أبو الحسن أيضاً وأتحفه وعزاه عن أبيه وأوفد عليه كاتبه وصاحب ديوان الخراج أبا الفضل بن أبي عبد الله بن أبي مدين وفي صحبته الحرة أخت السلطان أبي الحسن فقضى من وفادته ما حمل، وأصحبه السلطان أبو الحسن كتاباً إلى الملك الصالح أبي الفداء وكان وصوله إلى مصر منتصف شعبان سنة خمس وأربعين وسبعمائة.

ونص الكتاب بعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ: «من عند أمير المسلمين المجاهد في سبيل الله رب العالمين المنصّور بفضل الله المتوكل عليه المعتمد في جميع أموره لديه سلطان البرين حامي العدوتين مؤثر المرابطة والمثاغرة موازر حزب الإسلام حق الموازرة ناصر الإسلام مظاهر دين الملك العلام ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين فخر السلاطين حامي حوزة الدين ملك البرين إمام العدوتين ممهد البلاد مبدد شمل الأعاد مجند الجنود المنصور الرايات والبنود محط الرحال مبلغ الآمال أبي سعيد ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين حسنة الأيام حسام الإسلام أبي الأملاك مشجي أهل العناد والإشراك مانع البلاد رافع علم الجهاد مدوخ أقطار الكفار مصرخ من ناداه للانتصار القائم لله بإعلاء دين الحق أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أخلص الله لوجهه جهاده ويسر في قهر عداة الدين مراده إلى محل ولدنا الذي طلع في أفق العلا بدراً تماً وصدع بأنواع الفخار فجلى ظلاماً وظلماً وجمع شمل المملكة الناصرية فأعلى منها علماً وأحيى رسماً حائط الحرمين القائم بحفظ القبلتين باسط الأمان قابض كف

العدوان الجزيل النوال الكفيل تأمينه بحياطة النفوس والأموال قطب المجد وسماكه حسب الحمد وملاكه السلطان الجليل الرفيع الأصيل الحافل العادل الفاضل الكامل الشهير الخطير الأضخم الأفخم المعان المؤزر المؤيد المظفر الملك الصالح أبي الوليد إسماعيل بن محل أخينا الشهير علاؤه المستطير في الآفاق ثناؤه زين الأيام والليال كمال عين إنسان المجد وإنسان عين الكمال وارث الدول النافث بصحيح رأيه في عقود أهل الملل والنحل حامي القبلتين بعدله وحسامه النامي في حفظ الحرمين أجر اضطلاعه بذلك وقيامه هازم أحزاب المعاندين وجيوشها هادم الكنائس والبيع فهي خاوية على عروشها السلطان الأجل الهمام الأحفل الأفخم الأضخم الفاضل العادل الشهير الكبير الرفيع الخطير المجاهد المرابط المقسط عدله في الجائر والقاسط المؤيد المظفر المنعم المقدس المطهر زين السلاطين ناصر الدنيا والدين أبي المعالي محمد بن الملك الأرضى الهمام الأمضى والد السلاطين الأخيار عاقد لواء النصر في قهر الأرمن والفرنج والتتار محيي رسوم الجهاد معلي كلمة الإسلام في البلاد جمال الأيام ثمال الأعلام فاتح الأقاليم صالح ملوك عصره المتقادم الإمام المؤيد المنصور المسدد قسيم أمير المؤمنين فيما تقلد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون مكن الله له تمكين أوليائه ونمى دولته التي أطلعها له السعد شمساً في سمائه وأحسن إيزاعه للشكر أن جعله وارث آبائه سلام كريم يفاوح زهر الربى مسراه وينافح نسيم الصبا مجراه يصحبه رضوان يدوم ما دامت تقل الفلك حركاته ويتولاه روح وريحان تحييه به رحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله مالك الملك جاعل العاقبة للتقوى صدعاً باليقين ودفعاً للشك وخاذل من أسر النفاق في النجوى فاصر على الدخن والإفك والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي محى بأنوار الهدى ظلم الشرك ونبيه الذي ختم به الأنبياء وهو واسطة ذلك السلك ودعا به حجة الحق فمادت بالكفرة محمولة الأفلاك وماجت بهم حاملة الفلك والرضا عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيل هداه فسلك في قلوبهم أجمل السلك وملكوا أعنة هواهم فلزموا من محجة الصواب أنجح السلك وصابروا في جهاد

الأعداء فزاد خلوصهم مع الابتلاء والذهب يزيد خلوصاً على السبك والدعاء لأولياء الإسلام وحماته الأعلام بنصر لمضائه في العدى أعظم الفتك ويسر بقضائه درك آمال الظهور وأحفل بذلك الدرك فكتبناه إليكم كتب الله لكم رسوخ القدم وسبوغ النعم من حضرتنا مدينة فاس المحروسة وصنع الله سبحانه يعرف مذاهب الألطاف ويكيف مواهب تلهج الألسنة في القصور عن شكرها بالاعتراف ويصرف من أمره العظيم وقضائه المتلقى بالتسليم ما يتكون بين النون والكاف ومكانكم العتيد سلطانه وسلطانكم المجيد مكانه وولاؤكم الصحيح برهانه وعلاؤكم الفسيح في مجال الجلال ميدانه وإلى هذا زاد الله سلطانكم تمكيناً وأفاد مقامكم تحصيناً وتحسيناً وسلك بكم من سنن من خلفتموه سبيلاً مبيناً فلا خفاء بما كانت عقدته أيدي التقوى ومهدته الرسائل التي على الصفاء تطوى بيننا وبين والدكم نعم الله روحه وقدسه وبقربه مع الأبرار في عليين أنسه من مؤاخاة أحكمت منها العهود تالية الكتب والفاتحة وحفظ عليها محكم الإخلاص معوذتاها المحبة والنية الصالحة فانعقدت على التقوى والرضوان واعتضدت بتعارف الأرواح عند تنازح الأبدان حتى استحكمت وصلة الولاء والتأمت كلحمة النسب لحمة الإخاء فما كان إلا وشيكاً من الزمان ولا عجب قصر زمن الوصلة أن يشكوه الخلان ورد وارد أورد رنق المشارب وحقق قول «ومن يسأل الركبان عن كل غائب» أنبأ باستئارة الله تعالى بنفسه الزكية وإكنان درته السنية وانقلابه إلى ما أعد له من المنازل الرضوانية بجليل ما وقر لفقده في الصدور وعظيم ما تأثرت له النفوس لوقوع ذلك المقدور حناناً للإسلام بتلك الأقطار وإشفاقاً من أن يعتور قاصدي بيت الله الحرام من جراء الفتن عارض الإضرار ومساهمة في مصاب الملك الكريم والوصي الحميم ثم عميت الأخبار وطويت طي السجل الآثار فلم نر مخبراً صدقاً ولا معلماً بمن استقر له ذلكم الملك حقاً وفي أثناء ذلك حفزنا للحركة عن حضرتنا استصراخ أهل الأندلس وسلطانها وتواتر الأخبار بأن النصارى أجمعوا على خراب أوطانها ونحن أثناء ذلك الشأن نستخبر الوراد من تلكم البلدان عما أجلى عنه ليل الفتن بتلكم الأوطان فبعد لأي

وقعنا منها على الخبير وجاءنا بوقاية حرم الله بكم البشير وتعرفنا أن الملك استقر منكم في نصابه وتداركه الله تعالى منكم بفاتح الخير من أبوابه فأطفأ بكم نار الفتنة وأخمدها من أدواء النفاق ما أعل البلاد وأفسدها فقام سبيل الحج سابلاً وعبر طريقه لمن جاء قاصداً وقافلاً ولما احتفت بهذا الخبر القرائن وتواتر بنقل الحاضر المعاين أثار حفظ الاعتقاد البواعث والود الصحيح تجره حقاً الموارث فأصدرنا لكم هذه المخاطبة المتفننة الأطوار الجامعة بين الخبر والاستخبار الملبسة من العزاء والهناء ثوبي الشعار والدثار ومثل ذلك: الملك رضوان الله عليه من تجل المصائب لفقدانه وتحل عرى الاصطبار بموته ولات حين أوانه ولكن الصبر أجمل ما ارتداه ذو عقل حصين والأجر أولى ما اقتناه ذو دين متين ومثلكم من لا يخف وقاره ولا يشف عن ظهور الجزع الحادث اصطباره ومن خلفتموه فما مات ذكره ومن قمتم بأمره فما زال بل زاد فخره وقد طالت والحمد لله العيشة الراضية بالحقب وطاب بين مبداه ومحتضره هنيئاً بما من الأجر اكتسب وصار حميداً إلى خير منقلب ووفد من كرم الله على أفضل ما منح موقناً ووهب فقد ارتضاكم الله بعده لحياطة أرضه المقدسة وحماية زوار بيته مقيلة أو معرسة ونحن بعد بسط هذه التعزية نهنيكم بما خولكم الله أجمل التهنية وفي ذات الله الإيراد والإصدار وفي مرضاته سبحانه الإضمار والإظهار فاستقبلوا دولة ألقى العز عليها رواقه وعقد الظهور عليها نطاقه وأعطاه أمان الزمان عقده وميثاقه ونحن على ما عاهدنا عليه الملك الناصر رضوان الله عليه من عهود موثقة وموالاة محققة وثناء كمائمه عن أذكى من الزهر غب القطر مفتقه ولم يغب عنكم ما كان من بعثنا المصحفين الأكرمين اللذين خطتهما منا اليمين وآوت بهما الرغبة من الحرمين الشريفين إلى قرار مكين وإنه كان لوالدكم الملك الناصر تولاه الله برضونه وأورده موارد إحسانه في ذلكم من الفعل الجميل والصنع الجليل ما ناسب مكانه الرفيع وشاكل فضله من البر الذي لا يضيع حتى طبق فعله الآفاق ذكراً وطوق أعناق الوراد والقصاد براً وكان من أجمل ما به تحفى وأتحف وأعظم ما بعرفه إلى الملك العلام في ذلك تعرف إذنه

للمتوجهين إذا ذاك في شراء رباع توقف على المصحفين ورسم المراسم المباركة بتحرير ذلك الوقف مع اختلاف الجديدين فجرت أحوال القراء فيها بذلك الخراج المستفاد ريثما يصلهم من خراج ما وقفناه عليهم بهذه البلاد على ما رسمه رحمة الله عليه من عناية بهم متصلة واحترام في تلك الأوقاف فوائدها به متوفرة متحصلة وقد أمرنا مؤدي هذا لكمالكم وموفده على جلالكم كاتبنا الأسنى الفقيه الأجل الأحظى الأكمل أبا المجد ابن كاتبنا الشيخ الفقيه الأجل الحاج الأتقى الأرضى الأفضل الأحظى الأكمل المرحوم أبي عبد الله بن أبي مدين حفظ الله عليه رتبته ويسر في قصد البيت الحرام بغيته بأن يتفقد أحوال تلك الأوقاف ويتعرف تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد وإسراف وأن يتخير لها من يرتضي لذلك ويحمد تصرفه فيما هنالك وخاطبنا سلطانكم في هذا الشأن جرياً على الود الثابت الأركان وإعلاماً بما لوالدكم رحمه الله تعالى في ذلك من الأفعال الحسان وكمالكم يقتضي تخليد ذلكم البر الجميل وتجديد عمل ذلكم الملك الجليل وتشييد ما اشتمل عليه من الشراء الأصيل والأجر الجزيل والتقدم بالإذن السلطاني في إعانة هذا الوافد بهذا الكتاب على ما يتوخاه في ذلك الشأن من طرق الصواب وثناؤنا عليكم الثناء الذي يفاوح زهر الربا ويطارح نغم حمام الأيك مطرباً وبحسب المصافاة ومقتضى الموالاة نشرح لكم المتزايدات بهذه الجهات وننبئكم بموجب إبطاء إنفاذ هذا الخطاب على ذلكم الجناب وذلك أنه لما وصلنا من الأندلس الصريخ ونادى منا للجهاد عزماً لمثل ندائه يصيخ أنبأنا أن الكفار قد جمعوا أحزابهم من كل صوب وفرض عليهم باباهم اللعين التناصر من كل أوب وأن تقصد طوائفهم البلاد الأندلسية بإيجافها وتنقص بالمنازلة أرضها من أطرافها ليمحو كلمة الإسلام منها ويقلصوا ظل الإيمان عنها فقدمنا من يشتغل بالأساطيل من القواد وسرنا على أثرهم إلى سبتة منتهى الغرب الأقصى وباب الجهاد فما وصلناها إلا وقد أخذ أخذه العدو الكفور وسدت أجفان الطواغيت على التعاون مجاز العبور وأتوا من أجفانهم بما لا يحصى عدداً وأرصدوها بمجمع البحرين حيث المجاز إلى دفع العدا وتقلصوا عن

الانبساط في البلاد واجتمعوا إلى الجزيرة الخضراء أعادها الله بكل من جمعوه من الأعاد لكنا مع انسداد تلك السبيل وعدم أمور نستعين بها في ذلكم العمل الجليل حاولنا إمداد تلكم البلاد بحسب الجهد وأصرخناهم بما أمكن من الجند وجهزنا أجفاناً مختلسين فرصة الإجازة تتردد على خطر بمن جهز للجهاد جهازه وأمرنا لصاحب الأندلس من المال بما يجهز به حركته لمداناة محلة حزب الضلال وأجرينا له ولجيشه العطاء الجزل مشاهرة وأرضخنا لهم من النوال ما نرجو به ثواب الآخرة وجعلت أجفاننا تتردد في مينا السواحل وتلج أبواب الخوف العاجل لإحراز الأمن الآجل مشحونة بالعدد الموفورة والأبطال المشهورة والخيل المسومة والأقوات المقومة فمن ناج حارب دونه الأجل وشهيد مضى لما عند الله عز وجل وما زالت الأجفان تتردد على ذلك الخطر حتى تلف منها سبع وستون قطعة غزوية أجرها عند الله يدخر ثم لم نقنع بهذا العمل في الإمداد فبعثنا أحد أولادنا أسعدهم الله مساهمة به لأهل تلك البلاد فلقي من هول البحر وارتجاجه وإلحاح العدو ولجاجه ما به الأمثال تضرب وبمثله يتحدث ويستغرب ولما خلص لتلك العدوة بمن أبقته الشدائد نزل بإزاء الكافر الجاحد حتى كان منه بفرسخين أو أدنى وقد ضرب بعطن يصابح العدو ويماسيه بحرب بها يمنى وقد كان من مددنا بالجزيرة جيش شريت شرارته وقويت في الحرب إدارته يبلون البلاء الأصدق ولا يبالون بالعدو وهم منه كالشامة البيضاء في البعير الأورق إلا أن المطاولة بحصارها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ومنازلتها في البر نحو عامين معقوداً عليها الصف بالصف أدى إلى فناء الأقوات في البلد حتى لم يبق لأهليه قوت شهر مع انقطاع المدد وبه من الخلق ما يربى على عشرة آلاف دون الحرم والولد فكتب إلينا سلطان الأندلس يرغب في الإذن له في عقد الصلح ووقع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح فأذنا له فيه الإذن العام إذ في إصراخه وإصراخ من بقطره من المسلمين توخينا ذلك المرام هنالك دعى النصارى إلى السلم فاستجابوا وقد كانوا علموا فناء القوت وما استرابوا فتم الصلح إلى عشر سنين وخرج من بها من فرسان

ورجال وأهل وبنين ولا رزئوا مالاً ولا عدة ولا لقوا في خروجهم غير النزوح عن أول أرض مس الجلد ترابها شدة ووصلوا إلينا فأجزلنا لهم العطاء وأسليناهم عما جرى بالحباء فمن خيل تزيد على الألف عتاقها وخلع تربى على عشرة آلاف أطواقها وأموال عمت الغني والفقير ورعاية شملت الجميع بالعيش النضير وكف الله ضبر الطواغيت عما عداها وما انقلبوا بغير مدرة عفا رسمها وصم صداها وقد كان من لطف الله حين قضى بأخذ هذا الثغر أن قدر لنا فتح جبل طارق من أيدي الكفر وهو المطل على هذه المدرة والفرصة منه إن شاء الله تعالى متيسرة حتى يفرق عقد الكفار ويفرج بهذه الجهة منهم مجاورو هذه الأقطار فلولا إجلابهم من كل جانب وكونهم سدوا مسلك العبور بما لجميعهم من الأجفان والمراكب لما بالينا بأصفاقهم ولحللنا بعون الله عقد اتفاقهم ولكن للموانع أحكام ولا راد لما جرت به الأقلام وقد أمرنا لذلك الثغر بمزيد المدد وتخيرنا له ولسائر تلك البلاد العدد والعدد وعدنا لحضرتنا فاس لتستريح الجيوش من وعثاء السفر ونرتبط الجياد وننتخب العدد لوقت الظهور المنتظر ونكون على أهبة الجهاد وعلى مرقبة الفرصة عند تمكنها في الأعاد وعند عودنا من تلك المحاولة نيسر الركب الحجازي موجهاً إلى هناكم رواحله فأصدرنا إليكم هذا الخطاب إصدار الود الخالص والحب اللباب وعندنا لكم ما عند أحنى الآباء واعتقادنا فيكم في ذات الله لا يخشى جديده من البلاء ومالكم من غرض بهذه الأنحاء موفي قصده على أكمل الأهواء موالي تتميمه على أجمل الآراء والبلاد باتحاد الود متحدة والقلوب والأيدي على ما فيه مرضاة الله عز وجل منعقدة جعل الله ذلكم خالصاً لرب العباد مدخوراً ليوم التناد مسطوراً في الأعمال الصالحة يوم المعاد بمنّه وفضله هو سبحانه يصل إليكم سعداً تتفاخر به سعود الكواكب وتتضافر على الانقياد له صدور المواكب وتتقاصر عن نيل مجده متطاولات المناكب والسلام الأتم يخصكم كثيراً أثيراً ورحمة الله وبركاته وكتب في يوم الخميس السادس والعشرين لشهر صفر المبارك من عام خمسة وأربعين وسبعمائة وصورة العلامة وكتب في التاريخ المؤرخ.

قال ابن خلدون: «فقضى أبو الفضل بن أبي عبد الله بن أبي مدين من وفادته ما حمل وكان شأنه عجباً في إظهار أبهة سلطانه والإنفاق على المستضعفين من الحاج في طريقه وإتحاف رجال الدولة التركية بذات يده والتعفف عما في أيديهم رحمه الله» وقال العلامة المقريزي: «وفي منتصف شعبان من سنة خمس وأربعين وسبعمائة قدمت الحرة أختَ صاحب المغرب في جماعة كثيرة وعلى يدها كتاب السلطان أبي الحسن يتضمن السلام وأن يدعو له الخطباء في يوم الجمعة ومشايخ الصلاح وأهل الخير بالنصر على عدوهم ويكتب إلى أهل الحرمين بذلك» اهـ ولعل هذا الكتاب آخر غير الذي سردناه يتضمن ما ذكره والله أعلم.

ونسخة الجواب عن الكتاب الذي سردناه من إنشاء خليل الصفدي شارح لامية العجم: بعد البسملة في قطع النصف بقلم الثلث: «عبد الله ووليه» صورة العلامة، ولده إسماعيل بن محمد السلطان الملك الصالح السيد العالم العادل المؤيد المجاهد المرابط المظفر المنصور، عماد الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين محيي العدل في العالمين منصف المظلومين من الظالمين وارث الملك ملك العرب والعجم والترك فاتح الأقطار واهب الممالك والأمصار، إسكندر الزمان مملك أصحاب المنابر والأسرة والتخوت والتيجان ظل الله في أرضه القائم بسنته وفرضه مالك البحرين، خادم الحرمين الشريفين، سيد الملوك والسلاطين جامع كلمة الموحدين، ولي أمير المؤمنين أبو الفداء إسماعيل بن السلطان الشهيد السعيد الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبي الفتح محمد بن السلطان الشهيد السعيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون خلد الله تعالى سلطانه وجعل الملائكة أنصاره وأعوانه يخص المقام العالي الملك الأجل الكبير المجاهد المؤيد المرابط المثاغر المعظم المكرم المظفر المعمر الأسعد الأصعد الأوحد الأمجد السني السري المنصور أبا الحسن علي بن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أمده الله بالظفر وقرن عزمه بالتأييد في الآصال والبكر سلام وشت البروق وشائعه وادخرت الكواكب ودائعه

واستوعب الزمان ماضيه ومستقبله ومضارعه وثناء اتخذ النفحات المسكية طلائعه ونبه بالتغريد في الروض سواجعه وجلى في كأسه من الشفق المحمر مدامه ومن النجوم فواقعه «أما بعد» حمد الله على نعم أدت لنا الأمانة في عود سلطنة والدنا الموروثة وأجلستنا على سرير مملكة زرابيها بين النجوم مبثوثة، وأحسنت بنا الخلف عن سلف عهدوه في الأعناق غير منكورة ولا منكوثة، وصلاته على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه الذين بلغ بجهادهم في الكفرة غاية أمله وسؤله صلاة تحط بالرضوان سيولها وتجر بالغفران ذيولها ما تراسل أصحاب وتواصل أحباب فيوضح للعلم الكريم ورود كتابكم العظيم وخطابكم الفائق على الدر النظيم تفاخر الخمائل سطوره، ويصبغ خد الورد بالخجل منثوره ويحكي الرياض اليانعة فالألفات غصونه والهمزات عليها طيوره ويخلع على الآفاق حلل الأيام والليالي فالطرس صباحه والنقس ديجوره لفظه يطرب ومعناه يعرب فيغرب وبلاغته تدل على أنه آية لأن شمس بيانها طلعت من المغرب فاتخذنا سطوره ريحاناً ورجعنا ألفاظه ألحاناً ورجعنا إلى الجد فشبهنا ألفاته بظلال الرماح وورقه بصقال الصفاح وحروفه المفرقة بأفواه الجراح وسطوره المنتظمة بالفرسان المزدحمة يوم الكفاح وانتهينا إلى ما أودعتموه من اللفظ المسجوع والمعنى الذي يطرب طائره المسموع والبلاغة التي فضح التطبع بيانها المطبوع فأما العزاء بأخيكم الوالد قدس الله روحه وسقى عهده وأحسن لسلفه خلفاً بعده فلنا برسول الله أسوة حسنة ولولا الوثوق بأنه في عدة الشهداء ما رام القلب قراره ولا الطرف وسنه عاش سعيداً يملك الأرض ومات شهيداً يفوز بالجنة يوم العرض قد خلد الله ذكره يسير مسير الشمس في الآفاق ويوقف عند نضارة خدائقه الأحداق وورثنا منه حسن الآخاء لكم والوفاء بعهود مودة تشبه في اللطف شمائلكم - وأما الهناء بوراثة ملكه والانخراط مع الملوك في سلكه فقد شكرنا لكم منحى هذه المنحة وقابلناها بثناء يعطر النسيم في كل نفحه ووقفنا عليها حمداً جعل الود علينا إيراده وعلى أنفاس سرحة الروض شرحه وتحققنا به حسن ودكم الجميل وكريم إخائكم الذي لا يميد طود رسوخه ولا يميل.

وأما ما ذكرتموه من أمر المصحفين الكريمين الشريفين اللذين وقفتموهما على الحرمين المنيفين وإنكم جهزتم كاتبكم الفقيه الأجل الأسنى الأسمى أبا المجد ابن كاتبكم أبي عبد الله بن أبي مدين أعزه الله لتفقد أحوالهما والنظر في أمر أوقافهما فقد وصل المذكور بمن معه في حرز السلامة وأكرمنا نزلهم وسهلنا بالترحيب سبلهم وجمعنا على بذل الإحسان إليهم شملهم وحضر المذكور بين أيدينا وقربناه وسمعنا كلامه وخاطبناه وأمرنا في أمر المصحفين الشريفين بما أشرتم ورسمنا لنوابنا في توخي أوقافهما بما ذكرتم وهذا الوقف المبرور جار على أحسن عادة ألفها وأثبت قاعدة عرفها مرعي الجوانب محمي المنازل والمضارب آمن إزالة رسمه أو إذالة حكمه بدره أبداً في مطالع تمه وزهره دائماً يرقص في كمه لا يزداد إلا تخليداً ولا إطلاق ثبوته إلا تقييداً ولا عنق اجتهاده إلا تقليداً جرياً على قاعدة أوقاف ممالكنا وعادة تصرفاتنا في مسالكنا وله مزيد الرعاية وإفادة الحماية ووفادة العناية. وأما ما وصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء وما لاقاه أهلها ومني به من الكفار حزنها وسهلها فإنه شق علينا سماعه الذي انكى أهل الإيمان وعدد به نوب الزمان كل قلب بأنامل الخفقان وطالما فزتم بالظفر ورزقتم النصر على عدوكم فجر ذيل الهزيمة وفر ولكن الحرب سجال وكل زمان لدوائره دولة ولرجائه رجال ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا إليكم عقبان الجياد المسومة وسالت على عدوكم أباطحهم بقسينا المعوجة وسهامنا المقومة وكحلنا عين النجوم بمراود الرماح وجعلنا ليل العجاج ممزقاً ببروق الصفاح واتخذنا رؤوسهم لصوالج القوائم كرات وفرجنا مضايق الحرب بتوالي الكرات وعطفنا عليهم الأعنة وخضنا جداول السيوف ودسنا شوك الأسنة وفلقنا الصخرات بالصراخات وأسلنا العبرات بالرعبات ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول وأين الثريا من يد المتناول وما لنا غير إمدادكم بجنود الدعاء الذي نرفعه نحن ورعايانا والتوجه الصادق الذي تعرفه ملائكة القبول من سجايانا ـ وأما ـ ما فقدتموه من

الأجفان التي طرقها طيف الإتلاف وأم حرم فنائها الفناء وطاف به بعد الألطاف فقد روع هذا الخبر قلب الإسلام ونوع له الحزن على اختلاف الإصباح والإظلام وهذه الدار لا يخلو صفوها من كدر القدر وطالما أنامت بالأمن أول الليل وخاطبت بالخطب في السحر ولكن في بقائكم ما يسلي عن خطب العطب ومع سلامة نفسكم الكريمة فالأمر هين لأن الدر يفدى بالذهب - وأما - ما رأيتموه من الصلح فرأى عقده مبارك وأمر ما فيه فارط عزم وإن كان فيتدارك والأمر يجيء كما يحب لا كما نحب والحروب يزورها نصرها تارة ويغب مع اليوم غداً وقد يرد الله الردى ويعيد الظفر بالعدا وأما عودكم إلى فاس المحروسة طلباً لإراحة من عندكم من الجنود وتجهيزاً لمن يصل من عندكم إلى الحجاز الشريف من الوفود فهذا أمر ضروري التدبير سروري التشمير لأن النفوس تمل وثير المهاد فكيف ملازمة صهوات الجياد وتسأم من مجالسة الشرب فكيف بممارسة الحرب وتعرض عن دوام اللذة فكيف بمباشرة المنايا الفذة وهذا جبل طارق الذي فتح الله به عليكم وساق هدي هديته إليكم لعله يكون سبباً إلى ارتجاع ما شرد وحسماً لهذا الطاغية الذي مرد ورداً لهذا النازل الذي كدر ورد الصبر لما ورد فعادة الألطاف بكم معروفة وعزماتكم إلى جهات الجهاد مصروفة وقد تفاءلنا لكم من هذا الجبل بأنه طارق خير من الرحمٰن يطرق وجبل يعصم من سهم يمر من قسي الكفار ويمرق وأما ما منحتموه من الخيل العتاق والملابس التي تطلع بدور الوجوه من مشارق الأطواق والأموال التي زكت عند الله تعالى ونمت على الإنفاق فعلى الله عز وجل خلفها ولكم في منازل الدنيا والآخرة سرفها وشرفها وإليكم تساق هدايا أثنيتها وتحفكم تحفها وإذا وصل وفدكم الحاج وأنار له بوجه إقبالنا عليهم ليلهم الداج وكانوا مقيمين تحت ظل إكرامنا وشمول إسعافنا لهم وإنعامنا يتخولون تحفاً أنتم سببها ويتناولون طرفاً في كؤوس الاعتناء بهم ينضد حببها وإذا كان أوان الرحيل إلى الحج فسحنا لهم الطريق وسهلنا لهم الرفيق وبلغناهم بحول الله تعالى مناهم من منى وسألهم ممن إذا

زاروا حجراته الشريفة حازوا الراحة من العناء وفازوا بالغنى وإذا عادوا عاملناهم بكل جميل ينسيهم مشقة ذلك الدرب ويخيل إليهم أن لا مسافة لمسافر بين الشرق والغرب وغمرناهم بالإحسان في العود إليكم وأمرناهم بما ينهونه شفاهاً لديكم وعناية الله تعالى تحوط ذاتكم وتوفر لأخذ الثار حماتكم وتخصكم بتأييد تنزلون روضه الأنضر وتجنون به ثمر النصر اليانع من ورق الحديد الأخضر وتتحفكم بسعد لا يبلى قشيبه وعز لا يمحو شبابه مشيبه وتحيته المباركة تغاديكم وتروحكم وتفاوحكم أنفاسها المعتبرة وتنافحكم بمنّه وكرمه، في سادس رمضان بسنة خمس وأربعين وسبعمائة».

قال ابن خلدون: «ثم شرع السلطان أبو الحسن بعد استيلائه على إفريقية كما نذكره في كتب نسخة أخرى من المصحف الكريم ليوقفها ببيت المقدس فلم يقدر إتمامها وهلك قبل فراغه من نسخها» اهـ وهو يقتضي أن السلطان المذكور ما كتب سوى مصحفين اثنين ويؤيده ظاهر الكتابين المسرودين آنفاً مع أنه تقدم النقل عن الشيخ أبي العباس المقري أنه وقف على النسخة الموقوفة ببيت المقدس والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر.

هدية السلطان أبي الحسن إلى ملك مالي من السودان المجاورين للمغرب

اعلم أن أرض السودان المجاورة للمغرب تشتمل على ممالك منها مملكة غانة ومنها مملكة مالي ومنها مملكة كاغو ومنها مملكة برنو وغير ذلك، وكان ملك مالي وهو السلطان منسى موسى بن أبي بكر من أعظم ملوك السودان في عصره، ولما استولى السلطان أبو الحسن على المغرب الأوسط وغلب بني زيان على ملكهم عظم قدره وطال ذكره وشاعت أخباره في الآفاق فسما هذا السلطان وهو منسى موسى إلى مخاطبة السلطان أبي الحسن وكان مجاوراً لمملكة المغرب على نحو مائة مرحلة في القفر، فأوفد

عليه جماعة من أهل مملكته مع ترجمان من الملثمين المجاورين لبلادهم من صنهاجة، فوفدوا على السلطان أبي الحسن في سبيل التهنئة بالظفر فأكرم وفادتهم وأحسن مثواهم ومنقلبهم ونزع إلى مذهبه في الفخر فانتخب طرفاً من متاع المغرب وماعونه وشيئاً من ذخيرة داره وأسنى الهدية وعين رجالاً من أهل دولته كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مدين ومولاه عنبر الخصي فأوفدهم بها على ملك مالي منسى سليمان لمهلك أخيه موسى قبل مرجع وفده وأوعز إلى أعراب الفلاة من بني معقل بالسير معهم ذاهبين وجاءين فشمر لذلك علي بن غانم أمير أولاد جرار من معقل وصحبهم في طريقهم امتثالاً لأمر السلطان وتوغل ذلك الركب في القفر إلى بلد مالي بعد الجهد وطول الشقة فأحسن منسى سليمان مبرتهم وأعظم موصلهم وأكرم وفادتهم ومنقلبهم، وعادوا إلى مرسلهم في وفد من كبار مالي يعظمون السلطان أبا الحسن ويوجبون حقه ويؤدون طاعته ويذكرون من خضوع مرسلهم وقيامه بحق السلطان أبي الحسن واعتماله في مرضاته ما استوصاهم به.

واعلم أن منسى موسى الذي ذكرناه كان من كبار الملوك كما قلنا وهو الذي صحبه أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويجي[1] من شعراء الأندلس، كان قد لقيه في الموسم بعرفة فحلى بعينه وحظيت منزلته عنده فصحبه إلى بلاده وأقام عنده مصحوباً بالبر والكرامة وبنى للسلطان المذكور قبة رائعة فازدادت حظوته عنده، قال ابن خلدون: «أطرف أبو إسحاق الطويجن السلطان منسى موسى ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها إجادته وكان صناع اليدين وأضفى عليها من الكلس ووالى عليها بالأصباغ المشبعة، فجاءت من أتقن المباني ووقعت من السلطان منسى موسى موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم ووصله باثني عشر ألفاً من مثاقيل التبر مثوبة عليها» اهـ وكانت وفاة أبي إسحاق بتنبتكوا يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة.

(1) صوابه الطويجن تصغير طاجين الإناء المغربي المعروف.

مصاهرة السلطان أبي الحسن ثانياً مع السلطان أبي بكر الحفصي رحمهما الله

قد تقدم لنا ما كان من وقعة طريف وإنه هلك فيها حرم السلطان أبي الحسن من جملتهن فاطمة بنت السلطان أبي بكر الحفصي فلما فقدها أبو الحسن بقي في نفسه منها حنين إلى ما شغفته به من خلالها ولذاذة العيش في عشرتها فسما له من الاعتياض عنها ببعض أخواتها، فأوفد في خطبتها وليه عريف بن يحيى أمير عرب سويد من بني زغبة الهلاليين وكاتب الجباية والعسكر بدولته أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وفقيه الفتوى بمجلسه أبا عبد الله محمد بن سليمان السطي ومولاه عنبر الخصي، فوفدوا على السلطان أبي بكر سنة ست وأربعين وسبعمائة فأنزلهم منزل البر والكرامة ثم دس إليه حاجبه أبو محمد عبد الله بن تافراجين غرض وفادتهم وأنهم قدموا خاطبين بعض كرائمه لسلطانهم فأبى من ذلك صوناً لحرمه عن جولة الأقطار وتحكم الرجال مثل ما وقع في ابنته الأولى، فلم يزل حاجبه المذكور يخفض عليه الشأن ويعظم عليه حق السلطان أبي الحسن في رد خطبته مع ما بينهما من الصهر السابق والمخالصة القديمة والعهود المتأكدة إلى أن أجاب وأسعف وجعل ذلك للحاجب المذكور فانعقد الصهر بين السلطانين على ابنته عزونة شقيقة ابنه أبي العباس الفضل بن أبي بكر صاحب بونة، وأخذ الحاجب في شوار العرس وتأنق فيه واحتفل واستكثر وطال مقام الرسل بتونس إلى أن استكمل الجهاز فارتحلوا منها في ربيع سنة سبع وأربعين وسبعمائة وأوعز السلطان أبو بكر إلى ابنه الفضل شقيق العروس المذكورة أن يزفها على السلطان أبي الحسن قياماً بحقه وبعث من بابه جماعة من مشيخة الموحدين فوفدوا جميعاً على السلطان أبي الحسن واتصل بهم الخبر في طريقهم بوفاة السلطان أبي بكر فجأة ليلة الأربعاء ثاني رجب من السنة المذكورة، فعزاهم السلطان أبو الحسن عنه عند ما وصلوا إليه واستبلغ في إكرامهم وأجمل موعد

أخيها الفضل بسلطانه ومظاهرته على تراث أبيه فاطمأنت به الدار عند السلطان أبي الحسن إلى أن سار في جملته وتحت لوائه إلى إفريقية كما نذكره إن شاء الله.

غزو السلطان أبي الحسن إفريقية واستيلاؤه على تونس وأعمالها

كان السلطان أبو بكر الحفصي رحمه الله قد عهد بالأمر بعده لابنه أبي العباس أحمد، وكان أوفد على السلطان أبي الحسن حاجبه أبا القاسم بن عتو في غرض له وأصحبه كتاب العهد إلى السلطان المذكور ليوافق عليه فوقف عليه السلطان أبو الحسن وكتب على حاشيته بخطه ووافقه عليه رحمه الله وأحكم العقد في ذلك، ولما مات السلطان أبو بكر كان ولي العهد غائباً عن الحضرة فبايع أبو محمد بن تافراجين لابنه عمر.

ذكر الشيخ أبو العباس الوانشريسي في أقضية «المعيار» عن الشيخ ابن عرفة أن سلطان إفريقية أبا بكر الحفصي كتب العهد لولده أحمد فلما توفي السلطان المذكور أحضر أبو محمد بن تافراجين قاضيَيّ تونس قاضي الجماعة أبا عبد الله محمد بن عبد السلام وقاضي الأنكحة أبا عبد الله الآجمي وأمرهما أن يبايعا ولد الخليفة عمر فقالا: «كيف نبايعه ونحن شهدنا بيعة أخيه أحمد والتزمناها» وكان الحاجب ابن تافراجين نبيلاً فلما رأى امتناعهما قال: «ادخلا دار السلطان واشتغلا بغسله وتكفينه» فلما دخلا أحضر الحاجب المذكور أهل العقد والحل وأمرهم أن يبايعوا عمر فبايعوه، فلما خرج القاضيان وجدا البيعة قد حصلت وكان في انتظار أحمد المشهود له بالعهد وهو غائب بقفصة خوف الفتنة فبايع القاضيان، وكان ابن عرفة يستصوب فعل الحاجب وامتناع القاضيين أولاً وبيعتهما ثانياً، ثم قدم ولي العهد ووقع بينه وبين أخيه قتال وجرت خطوب كان في آخرها قتل ولي العهد وقتل وليه أبي الهول بن حمزة أمير الكعوب من عرب سليم في آخرين منهم وقطع عمر

أيضاً أخويه عبد العزيز وخالداً من خلاف فهلكا» وكان الحاجب أبو محمد بن تافراجين قد أحس بالشر من جهة عمر المتغلب وتوقع النكبة من جانبه فتسلل إلى قصره وأخذ ما خف من ذخيرته ولحق بالسلطان أبي الحسن وقص عليه الخبر وأغراه بتملك إفريقية وأوجب عليه النظر للمسلمين فيها وكان السلطان أبو الحسن يتمنى ذلك لولا مكان صهره أبي بكر فأقام يتحين لها الأوقات ويترقب لها الفرص حتى كانت هذه، (وإنما تنجع المقالة في المرء إذا صادفت هوى في الفؤاد) فأظهر أبو الحسن الامتعاض لما فعله عمر بأخيه ولي العهد من منعه من حقه أولاً ثم إراقة دمه ثانياً لا سيما وقد كان أعطى خط يده بالموافقة على العهد المذكور، فأجمع الحركة إلى إفريقية ولحق به خالد بن حمزة بن عمر أخو أبي الهول المقتول مع ولي العهد فاستعداه على عدوه، ففتح السلطان أبو الحسن ديوان العطاء ونادى في الناس بالمسير إلى إفريقية وأزاح عللهم وعسكر بظاهر تلمسان ثم نهض في صفر من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة يجر الدنيا بما حملت، بعد أن عقد لابنه الأمير أبي عنان على المغرب الأوسط وعهد إليه بالنظر في أموره كافة وجعل إليه جبايته وقدمت عليه في طريقه أعراب إفريقية وولاة قابس وبلاد الجريد وأطاعته طرابلس والزاب وبجاية وصاحبها يومئذٍ أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء بن أبي بكر ولما وصل إلى قسنطينة خرج إليه أبناء الأمير أبي عبد الله بن أبي بكر فبايعوه فأقبل عليهم وصرفهم إلى المغرب وأنزلهم بوجدة وأقطعهم جبايتها، وأنزل بقسنطينة خلفاءه وعماله وقد كان صرف أبا عبد الله صاحب بجاية إلى ندرومة فأنزله بها وأقطعه الكفاية من جبايتها، ثم وفد عليه بنو حمزة بن عمر أمراء الكعوب من سليم فأخبروه بإجفال عمر المتغلب بتونس مع ظاعنة أولاد مهلهل واستحثوه في اعتراضهم قبل لحاقهم بالقفر، فسرح معهم العساكر في طلبه لنظر حمو بن يحيى العسكري.

وتلوم السلطان أبو الحسن بقسنطينة وعرض جيوشه بسطح الجعاب منها، ثم ارتحل على أثرهم وأغذ حمو بن يحيى السير مع ناجعة أولاد أبي الليل فلحقوا بعمر صاحب تونس بأرض الحامة من ناحية قابس فدافعوا عن

أنفسهم بعض الشيء ثم انهزموا وكبا بعمر جواده في نافقاء بعض اليرابيع وانجلى الغبار عنه وعن مولاه ظافر راجلين فتقبض عليهما وأوثقهما قائد العسكر بيده حتى إذا جن الليل ذبحهما خوفاً من أن تفتكهما العرب من يده. وبعث برأسيهما إلى السلطان أبي الحسن فوصلا إليه بباجية وخلص الفل من تلك الوقعة إلى قابس، فتقبض عبد الملك بن مكي صاحبها على رجالات من أهل الدولة كان فيهم أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وصخر بن موسى من رجالات سدويكش وغيرهما من أعيان الدولة، فبعث بهم ابن مكي إلى السلطان أبي الحسن مقرنين في الأصفاد فأما ابن عتو وصخر بن موسى وعلي بن منصور فقطعهم من خلاق لفتيا الفقهاء بجرابتهم واعتقل الباقي.

وسرح السلطان عساكره إلى تونس وعقد عليهم لصهره على ابنته يحيى بن سليمان من بني عسكر فاحتلوا بتونس، ثم جاء السلطان على أثرهم فنزل بظاهرها يوم الأربعاء الثامن من جمادى الآخرة من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وتلقاه وفد تونس وشيوخها من أهل الفتيا وأرباب الشورى فآتوه طاعتهم وانقلبوا مسرورين بولايته مغتبطين بملكته، وكانت تونس يومئذٍ مشحونة بالأعلام الأكابر منهم ابن عبد السلام وابن عرفة وابن عبد الرفيع وابن راشد القفصي وابن هارون وأعلام آخرون، ثم عبا السلطان أبو الحسن يوم السبت مواكبه لدخول الحضرة فصف جنوده سماطين من معسكره بسيجوم إلى باب البلد نحو أربعة أميال وركبت بنو مرين من مراكزهم من جموعهم وتحت راياتهم، وركب السلطان من فسطاطه وعن يمينه وليه عريف بن يحيى كبير سويد ويليه أبو محمد عبد الله بن تافراجين وعن يساره الأمير أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء وهو أخو السلطان أبي بكر ويليه الأمير أبو عبد الله ابن أخيه خالد كانا معتقلين بقسنطينة فأطلقهما السلطان أبو الحسن وصحبوه إلى تونس فكانوا طراز ذلك الموكب فيمن لا يحصى من أعياص بني مرين وكبرائهم، وهدرت طبوله وخفقت راياته وكانت يومئذٍ نحو المائة وجاء السلطان والمواكب تجتمع عليه صفاصفاً إلى أن وصل إلى البلد

وقد ماجت الأرض بالجيوش، قال ابن خلدون: وكان يوماً لم ير مثله فيما عقلناه، قلت: كان سن ابن خلدون يومئذٍ ست عشرة سنة لأنه ولد غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة.

وكان قدم في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كبيرة من أعلام المغرب كان يلزمهم شهود مجلسه ويتجمل بمكانهم فيه ثم دخل القصر الخلافي وخلع على أبي محمد بن تافراجين وقرب إليه فرساً بسرجه ولجامه وطعم الناس بين يديه وانتشروا إلى منازلهم ثم دخل السلطان أبو الحسن مع ابن تافراجين إلى حجر القصر ومساكن الخلفاء فطاف عليها ودخل منها إلى الرياض المتصلة بها المدعوة برأس الطابية فطاف على تلك البساتين وسرح نظره فيها واعتبر بحالها ثم أفضى منها إلى معسكره وأنزل يحيى بن سليمان بقصبة تونس في عسكر لحمايتها ثم ارتحل من الغد إلى القيروان فجال في نواحيها ووقف على آثار الأولين ومصانع الأقدمين والطلول الماثلة لصنهاجة والعبيديين والتمس البركة في زيارة القبور التي تذكر للصحابة والسلف من التابعين والأولياء في ساحتها ثم سار إلى سوسة ثم إلى المهدية ووقف على ساحل البحر منها وتطوف في معالمهما ونظر في عاقبة الذين كانوا من قبله أشد قوة وآثاراً في الأرض واعتبر بأحوالهم ومر في طريقه بقصر الأجم ورباط المنستير وانكفأ راجعاً إلى تونس فاحتل بها غرة رمضان من السنة ونزل المسالح على ثغور إفريقية وأقطع بني مرين البلاد والضواحي وأمضى إقطاعات العرب التي كانت لهم من قبل الحفصيين واستعمل على الجهات وخفتت الأصوات وسكنت الدهماء وانقبضت أيدي أهل الفساد وانقرض أمر الحفصيين في هذه المدة إلا أنه عقد على بونة لصهره الفضل ابن السلطان أبي بكر إكراماً لصهره ووفادته عليه واتصلت ممالك السلطان أبي الحسن ما بين مسراته إلى السوس الأقصى من هذه العدوة وإلى رندة من عدوة الأندلس ودخل المغرب بأسره في طاعته وحذر ملوك مصر والشام ما شاع من بسطته وانفساح دولته ونفوذ كلمته والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقد كان الشعراء رفعوا إليه قصائد في سبيل التهنئة بالفتح وكان سابق

الحلبة يومئذٍ أبو القاسم الرحوي في قصيدة يقول في مطلعها:

أجابك شرق إذ دعوت ومغرب فمكة هشت للقاء ويثرب

وهي طويلة تخطيناها اختصاراً والله تعالى ولي التوفيق بمنه.

انتقاض عرب سليم بإفريقية على السلطان أبي الحسن وما نشأ عن ذلك

قد تقدم لنا عند الكلام على العرب الداخلين إلى المغرب أن جمهورهم كان من بني جشم بن معاوية بن بكر وبني هلال بن عامر بن صعصعة وبني سليم بن منصور، وإن الذين بقوا منهم بإفريقية هم بنو سليم وبعض هلال وكان لهم استطالة على الدول واعتزاز عليها، فكان ملوك الحفصيين يتألفونهم بالولايات والإقطاعات ونحو ذلك، وكان السلطان أبو الحسن المريني حاله مع عرب المغرب الأقصى غير حال الحفصيين مع عرب إفريقية وملكته لأهل باديته غير ملكتهم لأهل باديتهم، فلما ورد إفريقية واستولى عليها رأي من اعتزاز العرب بها على الدولة وكثرة إقطاعاتهم من الضواحي والأمصار ما تجاوز الحد المعتاد عنده، فأنكر ذلك وضرب على أيديهم وعوضهم عنه بأعطيات فرضها لهم في الديوان من جملة الجند واستكثر جبايتهم فنقصهم الكثير منها، ثم شكا إليه الرعية من أولئك العرب وما ينالونهم به من الظلامات وضرب الإتاوة التي يسمونها الخفارة فقبض أيديهم عن ذلك كله وتقدم إلى الرعايا بمنعهم منها، فارتابت العرب لذلك وفسدت ضمائرهم وثقلت وطأة الدولة المرينية عليهم فتربصوا بها وتحزبوا لها وتعاوت ذئابهم في بواديهم فاجتمعوا وأغاروا على قياطين بني مرين ومسالحهم في ثغور إفريقية حتى أنهم أغاروا على ضواحي تونس فاستاقوا الظهر الذي كان في مرعاها والسلطان يومئذٍ بها فعظم عليه ذلك وحقد على كبرائهم وأظلم الجو بينه وبينهم، ثم وفد عليه أيام الفطر من رجالاتهم خالد بن حمزة أمير بني كعب وأخوه أحمد وخليفة بن عبد الله من بني مسكين وابن عمه خليفة بن

أبي زيد من أولاد القوس فأنزلهم السلطان أبو الحسن وأجمل لقاءهم مغضياً عما صدر من غوغائهم، ثم رفع إليه عبد الواحد بن اللحياني من أولاد الملوك الحفصيين أنهم بعثوا إليه مع بعض حاشيته يطلبون منه الخروج معهم لينصبوه للأمر بإفريقية وأنه خشي على نفسه بادرة السلطان فتبرأ إليه من ذلك، فقامت قيامة السلطان أبي الحسن عند سماعه ذلك فأحضرهم وأحضر الحفصي معهم وقرره بما دار بينه وبينهم فبهتوا وأنكروا فوبخهم وأمر بهم فسحبوا إلى السجن ثم فتح ديوان العطاء وعرض الجند لغزوهم وعسكر بسيجوم من ظاهر تونس وذلك بعد قضاء نسك الفطر من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

واتصل الخبر بأولاد أبي الليل وأولاد القوس باعتقال وفدهم وجمع السلطان لغزوهم فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وانطلقوا في أحيائهم يحزبون الأحزاب ويستثيرون الثوار وعطفوا على أعدائهم من أولاد مهلهل فوصلوهم بعد القطيعة وكانوا بعد مقتل سلطانهم عمر بن أبي بكر قد لحقوا بالقفر خوفاً من أبي الحسن لأنهم كانوا شيعة لعمر المذكور، فلما وقع بين أبي الحسن وبين أولاد أبي الليل ما وقع ركب قتيبة بن حمزة إليهم ومعه أمه ونساء أولادها فتطارحوا عليهم ورغبوا إليهم في الاجتماع معهم على الخروج على السلطان ومنابذته، فكان أولاد مهلهل إليها مسرعين فارتحلوا معهم وتوافت أحياء سليم من بني كعب وبني حكيم بتوزر من بلاد الجريد فتذامروا وتصافوا وأهدروا الدماء بينهم وتبايعوا على الموت وصاروا نفساً واحدة على تباين أغراضهم وفساد ذات بينهم، والتمسوا من أعياص الملك من ينصبونه للأمر فدلهم بعض سماسرة الفتن على رجل من بني عبد المؤمن وهو أحمد بن عثمان بن أبي دبوس آخر ملوك بني عبد المؤمن وكان يحترف بالخياطة في توزر بعد ما طوحت به الطوائح فانطلقوا إليه وجاؤوا به ونصبوه للأمر وجمعوا له شيئاً من الفساطيط والخيل والآلات والكسوة وأقاموا له رسم السلطان وعسكروا عليه بقياطينهم وحللهم وتحالفوا على نصره.

ولما قضى السلطان أبو الحسن نسك عيد الأضحى من السنة المذكورة

ارتحل من ساحة تونس يريد العرب فوافاهم بالموضع المعروف بالتينة بين بسيط تونس وبسيط القيروان فأجفلوا أمامه فأتبعهم وألح عليهم إلى أن وصلوا إلى القيروان فلما رأوا أن لا ملجأ لهم منه عزموا على الثبات له وتحالفوا على الاستماتة وكان عسكر السلطان أبي الحسن يومئذٍ مشحوناً بأعدائه من بني عبد الواد المغلوبين على ملكهم ومغراوة وبني توجين وغيرهم، فدسوا إلى العرب أثناء هذه المناوشة بأن يناجزوا السلطان غداً حتى يتحيزوا إليهم ويجروا عليه الهزيمة فأجابوهم إلى ذلك وصبحوا معسكر السلطان من الغد فركب إليهم في التعبية، ولما تقابلوا تحيز إليهم الكثير ممن كان معه واختل مصافه فانهزم هزيمة شنعاء وبادر إلى القيروان فدخلها فيمن معه من الفل مستجيراً بها ودافع عنه أهلها، وتسابقت العرب إلى معسكره فانتهبوه بما فيه من المضارب والعدد والآلات ودخلوا فسطاط السلطان فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمه، وأحاطوا بالقيروان وزحفت إليها حللهم فدارت بها سياجاً واحداً وتعاوت ذئابهم بأطراف البقاع وأجلب ناعق الفتنة منهم بكل قاع واضطرمت إفريقية ناراً، وكانت الهزيمة يوم الاثنين سابع محرم من سنة تسع وأربعين وسبعمائة وبلغ الخبر إلى تونس وكان السلطان قد خلف بها عند رحيله الكثير من أبنائه وحرمه ووجوه قومه وأمناء بيت ماله وبعض الحاشية من جنده فتحصنوا بالقصبة وأحاط بهم الغوغاء كي يستنزلوهم عنها فامتنعوا عليهم وكانوا بها أملك منهم، وكان الأمير أبو سالم إبراهيم بن السلطان أبي الحسن قد جاء من المغرب في هذا التاريخ فوافاه الخبر قرب القيروان فانفض معسكره ورجع إلى تونس فكان معهم في القصبة، ثم نزع أبو محمد بن تافراجين عن السلطان أبي الحسن وكان محصوراً معه بالقيروان وكان قد سئم صحبته ومل خدمته لأنه كان أيام حجابته للسلطان الحفصي مستبداً عليه مفوضاً إليه في جميع أموره، فلما استوزره السلطان أبو الحسن لم يجره على تلك العادة لأنه كان قائماً على أموره بنفسه وليس التفويض للوزراء من شأنه، وكان ابن تافراجين يظن أنه سيوكل إليه أمر إفريقية وينصب معه لملكها الفضل ابن السلطان أبي بكر شقيق زوجته وربما زعموا أنه عاهده على ذلك

فكان في قلبه من الدولة المرينية مرض وكان العرب أيام عزمهم على الخروج يفاوضونه بذات صدورهم فلما حصلوا على البغية من الظهور على السلطان وحصاره بالقيروان احتالوا في أمر ابن تافراجين، فبعثوا إلى السلطان يطلبون منه بعثه إليهم ليفاوضوه في الرجوع إلى الطاعة والانخراط في سلك الجماعة، فأذن له فخرج إليهم ووصل يده بيدهم ولم يرجع إلى السلطان أبي الحسن، فقلدوه حجابة سلطانهم ابن أبي دبوس ثم سرحوه إلى حصار من بالقصبة من بني مرين وطمعوا في الاستيلاء عليها وفض ختامها فسار ابن تافراجين إليها وانضم إليه أشياخ الموحدين في زعانف من الغوغاء وأحاطوا بالقصبة، ثم لحق بهم ابن أبي دبوس فعاودوها القتال ونصبوا عليها المجانيق فامتنعت عليهم ولم يغنوا شيئاً، وابن تافراجين في أثناء ذلك يحاول الفرار بنفسه لاضطراب الأمور واختلال الرسوم إلى أن بلغه خلوص السلطان أبي الحسن من القيروان إلى سوسة.

وكان من خبره أن العرب بعد حصارهم إياه بالقيروان اختلفت كلمتهم لديه وكان قد دخل أولاد مهلهل في الإفراج عنه واشترط لهم على ذلك أموالاً ونذر بنو أبي الليل بذلك فاضطربت كلمتهم ودخل عليه قتيبة بن حمزة منهم بمكانه من القيروان زعيماً بالطاعة فتقبله وأطلق أخويه خالداً وأحمد ومع ذلك فلم يطمئن إليهم ثم جاء إليه محمد بن طالب من أولاد مهلهل وخليفة بن أبي زيد وأبو الهول بن يعقوب من أولاد القوس وعاهدوه على الإفراج عنه والقيام معه حتى يصل إلى مأمنه فخرج معهم ليلاً على التعبية وذؤبان العرب تطأ أذياله وضباعها تنوشه إلى أن استقر بسوسة وأمن على نفسه وقد أتى النهب على جل ما كان معه ولما سمع ابن تافراجين وهو محاصر للقصبة بوصول السلطان إلى سوسة تسلل من أصحابه وركب البحر إلى الإسكندرية فأصبحوا وقد فقدوه فاضطرب أمرهم وارتاب سلطانهم ابن أبي دبوس لما علم بخبره فانفض جمعهم عن القصبة وأفرجوا عنها وخرج بنو مرين فملكوا البلد وخربوا منازل الحاشية بها، ثم ركب السلطان أبو الحسن من سوسة البحر فاحتل بتونس في ربيع الآخر سنة تسع وأربعين

وسبعمائة فاجتمع شمله واستتب أمره، وكتب إلى صاحب مصر في التقبض على ابن تافراجين فأجاره بعض الأمراء وانصرف لقضاء فريضة الحج واعتمل السلطان أبو الحسن في إصلاح أسوار تونس وإدارة الخندق عليها وأقام لها من الصيانة والحصانة رسماً دفع به في نحر عدوه وبقي له ذكره من بعده ثم أجلب العرب وسلطانهم ابن أبي دبوس على تونس ونازلوا أبا الحسن بها واستبلغوا في حصاره وخلصت ولاية أولاد مهلهل للسلطان فعول عليهم، ثم راجع بنو حمزة بصائرهم وصاروا إلى مهادنته فعقد لهم السلم ودخل عليه عمر بن حمزة وافداً فحبسه حتى قبض إخوانه على أميرهم ابن أبي دبوس وقادوه إليه استبلاغاً في الطاعة وإمحاضاً للولاية، فتقبل فئتهم وأودع ابن أبي دبوس السجن وعقد الصهر بينه وبين عمر بن حمزة فزوج ابنة عمر بابنه أبي الفضل، واختلفت أحوال هؤلاء العرب على السلطان أبي الحسن في الطاعة تارة والانحراف أخرى مدة إقامته بتونس إلى أن كان ما نذكره والله غالب على أمره.

انتقاض الأطراف وثورة أبي عنان ابن السلطان أبي الحسن واستيلاؤه على المغرب

قد تقدم لنا أن السلطان أبا بكر الحفصي رحمه الله لما زوج ابنته من السلطان أبي الحسن بعث معها في زفافها شقيقها أبا العباس الفضل بن أبي بكر وأن خبر وفاة والده أدركه وهو بالطريق، ولما وصل إلى السلطان أبي الحسن عزاه عن مصاب أبيه ووعده بالمظاهرة على ملكه فبقي عنده بتلمسان إلى أن نهض في صحبته إلى إفريقية فلما غلب السلطان أبو الحسن على بجاية وقسنطينة وارتحل إلى تونس عقد له على بونة التي كان يلي عملها أيام أبيه فانقطع أمله وفسد ضميره وطوى على البث حتى إذا كانت نكبة القيروان سما إلى التوثب على ملك سلفه وكان أهل قسنطينة وبجاية قد سئموا ملكة بني مرين وبرموا بولايتهم لمخالفتهم بعض العوائد التي كانت لهم مع الملوك

الحفصيين ولأن الصبغة الحفصية كانت قد رسخت في نفوسهم جيلاً بعد جيل فصعب عليهم نزعها.

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى　　ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى　　وحنينه أبداً لأول منزل

فاشرأبوا إلى الثورة على المرينيين لما سمعوا بنكبة القيروان واتفق أن قدم قسنطينة ركب من أهل المغرب قاصدين إلى السلطان أبي الحسن وكان فيهم عمال الجباية قدموا بجبايتهم عند راس الحول كما جرت به عادتهم في ذلك ومعهم ابن صغير للسلطان اسمه عبد الله وفيهم وفد من رؤساء الفرنج بعثهم طاغيتهم بقصد التهنئة بفتح إفريقية ومعهم تاشفين ابن السلطان الذي أسر يوم طريف أطلقه الطاغية بعد أن أصابه خبال في عقله وأرسل معه بهدية نفيسة وفيهم أيضاً وفد من أهل مالي بعثهم السلطان منسا سليمان بقصد التهنئة أيضاً فتوافت هؤلاء الوفود بقسنطينة وقد طم عباب الفتنة على إفريقية فأراد غوغاؤها وانتهاب ما معهم ثم تخلصوا منهم في خبر طويل.

وفي أثناء ذلك ثار الفضل بن السلطان أبي بكر صاحب بونة فراسله أهل قسنطينة في القدوم عليهم والقيام بأمرهم فقدمها وجرت خطوب واتصل بأهل بجاية ما فعله أهل قسنطينة فتبعوهم على رأيهم من الانتقاض ووثبوا على من كان عندهم من حامية بني مرين فاستلبوهم وأخرجوهم عراة واستدعوا الفضل بن أبي بكر من قسنطينة فبادر إليهم واستولى على بجاية واستتب أمره بها وأعاد ألقاب الخلافة وبينما هو يحدث نفسه بغزو تونس ثار عليه أبناء أخيه أبي عبد الله بن أبي بكر فانتزعوا منه بجاية وردوه إلى عمله الأول وانتقض على السلطان أبي الحسن أيضاً سائر زناتة من بني عبد الواد ومغراوة وبني توجين وبايع بنو عبد الواد لعثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان وساروا إلى تلمسان فاستجدوا بها ملك سلفهم في أخبار طويلة.

وجرت هذه الخطوب والسلطان أبو الحسن مقيم بتونس تغاديه العرب

بالقتال وترواحه وتعوج عليه تارة وتستقيم أخرى وطال مقامه بها وعميت أنباؤه على أهل المغرب وحدث في الخلق الوباء العظيم الذي عم المشرق والمغرب فأرجف بموته واضطربت الأحوال بالمغارب الثلاثة الأدنى والأوسط والأقصى واتصل ذلك بالأمير أبي عنان وهو يومئذٍ بتلمسان كان أبوه قد ولاه عليها عند ذهابه إلى إفريقية حسبما مر، فلما أرجف بمهلك أبيه وتساقط إليه الفل من عسكره عراة زرافات ووحداناً تطاول إلى الاستئثار بملك أبيه دون سائر إخوته وكان مرشحاً عنده لذلك لمزيد فضله عليه في غير وصف، واتفق أن كان عنده رجل من بني عبد الواد اسمه عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار وكان ينسب إلى علم الحدثان، ولما سافر السلطان إلى إفريقية كان هذا الرجل أول المرجفين به وأنه لا يرجع من سفرته وأن الأمر صائر إلى أبي عنان ونجع ذلك في أبي عنان لموافقته هواه، فاشتمل على ابن جرار وخلطه بنفسه فلما ورد الخبر بنكبة السلطان وانحصاره أولاً بالقيروان ثم بتونس لم يستزب أبو عنان في صدق ابن جرار وأنه على بصيرة من أمره فتحفز للوثبة وصمم على الثورة، ثم أكد عزمه على ذلك ما اتصل به من خبر ابن أخيه منصور بن أبي مالك عبد الواحد بن أبي الحسن بفاس الجديد وأنه ثار بها وفتح ديوان العطاء واستلحق واستركب ورام التغلب على المغرب واحتياز الأمر لنفسه دون غيره وورى في ذلك بأنه إنما عزم على الذهاب إلى إفريقية لاستنقاذ السلطان من هوة الحصار يسر من ذلك حسواً في ارتغاء وتفطن لشأنه الحسن بن سليمان بن يزريكن عامل القصبة بفاس وصاحب الشرطة بالضواحي، فاستأذنه في اللحاق بالسلطان فأذن له راحة منه فلحق بأبي عنان على حين أمضى عزيمته على التوثب فأخرج ما كان بقصر السلطان بالمنصورة من المال والذخيرة وجاهر بالدعاء لنفسه وجلس للبيعة بمجلس السلطان من قصره في ربيع الثاني من سنة تسع وأربعين وسبعمائة فبايعه الملأ وقرأ كتاب بيعتهم على الأشهاد، ثم بايعه العامة وانفض المجلس وقد استتب سلطانه ورست قواعد ملكه وركب في التعبية والآلة حتى نزل بقبة الملعب وطعم الناس وانتشروا وعقد على وزارته للحسن بن سليمان بن

يرزيكن القادم عليه، ثم لفارس بن ميمون بن وردار وجعله رديفاً له ورفع مكان ابن جرار عليهم كلهم واختص لمناجاته كاتبه أبا عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمرو، ثم فتح الديوان وجعل يستركب كل من تساقط إليه من قبل أبيه ويخلع عليهم وارتحل إلى المغرب وعقد على تلمسان لابن جرار وأنزله بالقصر القديم منها فاستمر بها واستبد إلى أن قدم عليه بنو عبد الواد مجتمعين على سلطانهم عثمان بن عبد الرحمٰن فقتلوه غرقاً في خبر طويل، ولما انتهى الأمير أبو عنان إلى وادي الزيتون وشى إليه بالوزير الحسن بن سليمان وأنه عازم على الفتك به بتازا تقرباً إلى السلطان أبي الحسن ووفاء بطاعته، وأنه قد داخل في ذلك حافده منصور بن أبي مالك الثائر بفاس وأطلعه هذا الواشي على كتاب الوزير في ذلك فلما قرأه تقبض عليه ثم قتله خنقاً في مساء ذلك اليوم وأغذ السير إلى المغرب.

وانتهى الخبر إلى منصور صاحب فاس فزحف للقائه والتقى الجمعان بوادي أبي الأجراف من ناحية تازا فاختل مصاف منصور وانهزمت جموعه ولحق بفاس الجديد فتحصن بها وتبعه أبو عنان فأناخ عليه خارجها وقد تسايل الناس على طبقاتهم إليه وآتوه طاعتهم وكان قد سلك مع الرعية والجند من البذل والاستيلاف طريقاً لم يسبق إليه، وكانت منازلته لفاس الجديد في ربيع الآخر من السنة المذكورة فأخذ بمخنقها وأجمع الأيدي والفعلة على الآلات لحصارها، ثم أرسل إلى مكناسة بإطلاق أولاد أبي العلاء المعتقلين بالقصبة منها فأطلقوا ولحقوا به وحاصروا معه فاس الجديد وضيقوا عليها إلى أن ضاقت أحوال أهلها واختلفت أهواؤهم ونزع إلى أبي عنان أهل الشوكة منهم، ثم أن إدريس بن عثمان بن أبي العلاء احتال في فتح البلد بأن أظهر النزوع عن أبي عنان إلى منصور المحصور فدخل البلد وتمكن منه وثار به فيمن معه من حاشيته واقتحمه الأمير أبو عنان عليهم ونزل منصور على حكمه فاعتقله إلى أن قتله بمحبسه واستولى على ذلك الملك، وتسابقت إليه وفود الأمصار للتهنئة بالبيعة وتمسك أهل سبتة بطاعة السلطان

أبي الحسن ثم رجعوا عن ذلك وثاروا على عاملهم عبد الله بن علي بن سعيد من طبقة الوزراء فقبضوا عليه وقادوه إلى أبي عنان مبايعين له متقربين به إليه وتولى كبر ذلك فيهم زعيمهم الشريف أبا العباس أحمد بن محمد بن رافع الصقلي من آل الحسين السبط رضي الله عنه كان سلفه قد انتقلوا من صقيلة إلى سبتة فاستوطنوها، ثم استوطنوا بعدها حضرة فاس واستوسق للأمير أبي عنان ملك المغرب واجتمع إليه قومه من بني مرين إلا من أقام مع أبيه بتونس وفاء بحقه وحص جناح أبيه عن الكرة على بني كعب الناكثين لعهده الناكبين عن طاعته فأقام السلطان أبو الحسن رحمه الله بتونس يرجو الأيام ويأمل الكرة والأطراف تنتقض والخوارج تتجدد وقنط من كان معه من حاشيته وسئموا المقام بأرض ليست لهم بدار مقام فحسنوا له النهوض إلى المغرب فأسعفهم وعزم على الرحلة كما نذكره إن شاء الله، وفي هذه المدة كتب إليه السلطان أبو الحجاج يوسف بن الأحمر كتاباً من إنشاء وزيره لسان الدين ابن الخطيب يسائله عن أحواله ويعزيه عن مصابه ويتأسف له ونص الكتاب: «المقام الذي أقمار سعده في انتظام واتساق، وجياد عزه إلى الغاية القصوى ذات استباق، والقلوب على حبه ذات اتفاق، وعناية الله تعالى عليه مديدة الرواق، وأياديه الجمة في الأعناق ألزم من الأطواق، وأحاديث مجده سمر النوادي وحديث الرفاق، مقام محل أبينا الذي شأن قلوبنا الاهتمام بشأنه، وأعظم مطلوبنا من الله تعالى سعادة سلطانه، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى والصنائع الإلٰهية تحط ببابه والألطاف الخفية تعرس في جنابه والنصر العزيز يحف بركابه وأسباب التوفيق متصلة بأسبابه والقلوب الشجية لفراقه مسرورة باقترابه، معظم سلطانه الذي له الحقوق المحتومة، والفواضل المشهورة المعلومة، والمكارم المسطورة المرسومة والمفاخر المنسوقة المنظومة الداعي إلى الله تعالى في وقاية ذاته المعصومة وحفظها على هذه الأمة المرحومة الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر سلام كريم، طيب عميم،

كما سطعت في غياهب الشدة أنوار الفرج وهبت نواسم ألطاف الله عاطرة الأرج، يخص مقامكم الأعلى ورحمة الله وبركاته، أما بعد حمد الله جالي الظلم بعد اعتكارها، ومقيل الأيام من عثارها ومزين سماء الملك بشموسها المحتجبة وأقمارها، ومريح القلوب من وحشة أفكارها، ومنشىء سحاب الرحمة على هذه الأمة بعد افتقارها، وشدة اضطرابها واضطرارها، ومتداركها باللطف الكفيل بتمهيد أوطانها وتيسير أوطارها والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله صفوة النبوة ومختارها، ولباب مجدها السامي ونجارها، نبي الملاحم وخائض تيارها، ومذهب رسوم الفتن ومطفىء نارها، الذي لم ترعه الشدائد باضطراب بحارها، حتى بلغت كلمة الله ما شاءت من سطوع أنوارها، ووضوح آثارها والرضا عن آله وأصحابه الذين تمسكوا بعهده على إجلاء الحوادث وإمرارها، وباعوا نفوسهم في إعلاء دعوته الحنيفية وإظهارها، والدعاء لمقامكم الأعلى باتصال السعادة واستمرارها وانسحاب العناية الإلٰهية وإسدال أستارها حتى تقف الأيام ببابكم موقف اعتذارها وتعرض على مثابتكم ذنوبها راغبة في اغتفارها فإنا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم أوفى ما كتب لصالحي الملوك من مواهب السعادة وعرفكم عوارف الآلاء في إصدار أمركم الرفيع وإيراده وأجرى الفلك الدوار بحكم مراده وجعل لكم العاقبة الحسنى كما وعد به في محكم كتابه المبين للصالحين من عباده من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى وليس بفضل الله الذي عليه في الشدائد الاعتماد. وإلى كنف فضله الاستناد ثم ببركة جاه نبينا الذي وضح بهدايته سبيل الرشاد إلا الصنائع التي تشام بوارق اللطف من خلالها وتخبر سيماها بطلوع السعود واستقبالها، وتدل مخايل يمنها على حسن مآلها، لله الحمد على نعمه التي نرغب في كمالها ونستدر عذب زلالها وعندنا من الاستبشار باتساق أمركم وانتظامه والسرور بسعادة أيامه والدعاء إلى الله تعالى في إظهاره وإتمامه ما لا تفي العبارة بأحكامه ولا تتعاطى حصر أحكامه وإلى هذا أيد الله تعالى أمركم وعلاه وصان سلطانكم وتولاه فقد علم

الحاضر والغائب وخلص الخلوص الذي لا تغيره الشوائب ما عندنا من الحب الذي وضحت منه المذاهب وإنه لما اتصل بنا ما جرت به الأحكام من الأمور التي صحبت مقامكم فيها العناية من الله والعصمة وجعل على العباد والبلاد الوقاية والنعمة لا يستقر بقلوبنا القرار ولا تتأتى بأوطاننا الأوطار تشوفاً لما تتيحه لكم الأقدار ويبرزه من سعادتكم الليل والنهار ورجاؤنا في استئناف سعادتكم يشتد على الأوقات ويقوي علماً بأن العاقبة للتقوى وفي هذه الأيام عميت الأنباء وتكالبت في البر والبحر الأعداء واختلفت الفصول والأهواء وعاقت الوارد الأنواء وعلى ذلك من فضل الله الرجاء ولو كنا نجد للاتصال بكم سبباً أو نلفي لإعانتكم مذهباً لما شغلنا البعد الذي بيننا اعترض والعدو بساحتنا في هذه الأيام ربض وكان خديمكم الذي رفع من الوفاء راية خافقة واقتنى منه في سوق الكساد بضاعة نافقة الشيخ الأجل الأوفى الأود الأخلص الأصفى على أبو محمد بن آجانا سنى الله مأموله وبلغه من سعادة أمركم سؤله وقد ورد على بابنا وتحيز إلى اللحاق بجانبنا ليتيسر له من جهتنا القدوم، ويتأتى له بإعانتنا الغرض المروم فبينما نحن ننظر في تتميم غرضه وإعانته على الوفاء الذي قام بمفترضه إذا اتصل بنا خبر قرقورتين من الأجفان التي استعنتم بها على الحركة والعزمة المقترنة بالبركة حطت إحداهما بمرسى المنكب والأخرى بمرسى المرية في كنف العناية الإلٰهية فتلقينا من الواصلين فيها الأنباء المحققة بعد التباسها والأخبار التي يغني نصها عن قياسها وتعرفنا ما كان من عزمكم على السفر وحركتكم المقرونة باليمن والظفر وإنكم استخرتم الله تعالى في اللحاق بالأوطان التي يؤمن قدومكم خائفها ويؤلف طوائفها ويسكن راجفها ويصلح أحوالها ويذهب أهوالها وإنكم سبقتم حركتها بعشرة أيام مستظهرين بالعزم المبرور والسعد الموفور واليمن الرائق السفور والأسطول المنصور فلا تسألوا عن انبعاث الآمال بعد سكونها ونهوض طيور الرجاء من وكونها واستبشار الأمة المحمدية منكم بقرة عيونها وتحقق ظنونها وارتياح البلاد إلى دعوتكم التي ألبستها ملابس العدل والإحسان وقلدتها

قلائد السير الحسان وما منها إلا من باح بما يخفيه من وجده وجهر بشكر الله تعالى وحمده وابتهل إليه في تيسير غرض مقامكم الشهير وتتميم قصده واستئناس نور سعده وكم مطل الانتظار بديون آمالها والمطاولة من اعتلالها وأما نحن فلا تسألوا عمن استشعر دنو حبيبه بعد طول مغيبه إنما هو صدر راجعه فؤاده وطرف ألفه رقاده وفكر ساعده مراده فلما بلغنا هذا الخبر بادرنا إلى إنجاز ما بذلنا لخديمكم المذكور من الوعد واغتنمنا ميقات هذا السعد ليصل سببه بأسبابكم ويسرع لحاقه بجنابكم فعنده خدم نرجو أن ييسر الله تعالى بحوله أسبابها ويفتح بنيتكم الصالحة أبوابها وقد شاهد من امتعاضنا لذلك المقام الذي ندين له بالتشيع الكريم الوداد ونصل له على بعد المزار ونزوح الأقطار سبب الاعتداد ما يغني عن القلم والمداد وقد ألقينا إليه من ذلك كله ما يلقيه إلى مقامكم الرفيع العماد وكتبنا إلى من بالسواحل من ولاتنا نحد لهم ما يكون عليه عملهم في برِّ من يرد عليهم من جهة أبوتكم الكريمة. ذات الحقوق العظيمة والأيادي الحديثة والقديمة وهم يعملون في ذلك بحسب المراد وعلى شاكلة جميل الاعتقاد ويعلم الله تعالى أننا لو لم تعق العوائق الكبيرة والموانع الكثيرة والأعداء الذين غصت بهم في الوقت هذه الجزيرة ما قدمنا عملاً على اللحاق لكم والاتصال بسببكم حتى نوفي لأبوتكم الكريمة حقها ونوضح من المسرة طرقها لكن الأعذار واضحة وضوح المثل السائر وإلى الله تعالى نبتهل في أن يوضح لكم من التيسير طريقاً ويجعل لكم السعد مصباحاً ورفيقاً ولا يعدمكم عناية منه وتوفيقاً ويتم سرورنا عن قريب بتعريف أنبائكم السارة وسعودكم الدارة فذلك منه سبحانه غاية آمالنا وفيه أعمال ضراعتنا وابتهالنا هذا ما عندنا بادرنا لإعلامكم به أسرع البدار والله تعالى يوفد علينا أكرم الأخبار بسعادة ملككم السامي المقدار وييسر ما له من الأوطار ويصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته» اهـ.

ركوب السلطان أبي الحسن البحر من تونس إلى المغرب وما جرى عليه من المحن في ذلك

كان الأمير أبو العباس الفضل أبو السلطان أبي بكر الحفصي بعد أن لحق بعمله القديم من بونة قد وفد عليه مشيخة العرب من أولاد أبي الليل وأغروه بملك إفريقية والنهوض إلى تونس ومحاصرة السلطان أبي الحسن بها فأجابهم إلى ذلك ونهض إليها بعد عيد الفطر سنة تسع وأربعين وسبعمائة فحاصرها مدة ثم انفض عنها ثم عاود حصارها، ثم انفض عنها ودخل القفر مع أولاد أبي الليل إلى أن بايعه أهل بلاد الجريد بإشارة أبي القاسم بن عتو المقطوع، ودخل في طاعته توزر وقفصة ونفطة والحامة وقابس وجربة وانتهى الخبر إلى السلطان أبي الحسن باستيلاء الفضل على هذه الأمصار واستفحال أمره بها وأنه ناهض إلى تونس فأهمه شأنه وخشي على الأمر، وكانت بطانته توسوس إليه بالرحلة إلى المغرب لاسترجاع نعمتهم باسترجاع ملكه مع ما أصابهم بتونس من الغلاء والموت الذريع فأجابهم إلى ذلك وشحن أساطيله بالأقوات وأزاح علل المسافرين، ولما قضى نسك عيد الفطر من سنة خمسين وسبعمائة ركب البحر في فصل الشتاء وهيجان البحر وكلب البرد بعد أن عقد لابنه أبي الفضل على تونس ثقة بما بينه وبين عمر بن حمزة من المصاهرة وتفادياً بمكانه من معرة الغوغاء وثورتهم به، وكانت مدة محاصرة السلطان أبي الحسن بتونس سنة ونصفاً، واتصل خبر رحيله بالفضل بن أبي بكر وهو ببلاد الجريد فأغذ السير إلى تونس ونزل بها على أبي الفضل المريني ومن كان معه من حاشيته وأهل دولته ثم اقتحمها واتصلت يده بيد أهد البلد ثم أحاطوا بالقصبة يوم منى حتى استنزلوا أبا الفضل على الأمان فخرج إلى دار أصهاره من بني حمزة فبقي عندهم حتى أنفذوا معه من أوصله إلى أبيه فلحق به بثغر الجزائر.

وأما السلطان أبو الحسن وجيشه الراكب البحر معه فإنهم لما لججوا احتاجوا إلى الماء فدخلوا مرسى بجاية لخمس ليال من إقلاعهم عن تونس فمنعهم صاحب بجاية الحفصي من الورود وأوعز إلى سائر سواحله بمنعهم

فزحفوا إلى الساحل وقاتلوا من صدهم عن الماء إلى أن غلبوهم واستقوا وأقلعوا ثم عصفت بهم الريح في تلك الليلة وجاءهم الموج من كل مكان وتكسرت الأجفان وغرق الكثير من بطانة السلطان وعامة الناس وقذف الموج بالسلطان فألقاه على حجر قرب الساحل من بلاد زواوة عاري الجسد مباشراً للموت، وقد هلك من كان معه من الفقهاء والعلماء والكتاب والأشراف والخاصة وهو يشاهد مصارعهم واختطاف الموج لهم من فوق الصخور التي تعلقوا بها فمكثوا ليلتهم على ذلك وصبحهم جفن من بقية الأساطيل كان قد سلم من ذلك العاصف فبادر أهل الجفن إليه حين رأوه فاحتملوه وقد تصايح به البربر من الجبال وتواثبوا إليه حين وضح النهار وأبصروه، فتداركه الله بهذا الجفن فاحتملوه وقذفوا به في مدينة الجزائر.

وفي نفح الطيب أن أساطيل السلطان أبي الحسن كانت نحو الستمائة فغرقت كلها ونجا هو على لوح وهلك من كان معه من أعلام المغرب وهم نحو أربعمائة عالم منهم أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي شارح الحوفي، وأبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسي الذي أملى في مجلس درسه بمكناسة على حديث يا أبا عمير ما فعل النغير أربعمائة فائدة، والأستاذ الزواوي أبو العباس وغير واحد وكان غرق الأسطول على ساحل تدلس. وذكر الشيخ أبو عبد الله الأبي في شرح مسلم كلامه على أحاديث العين ما معناه: أن رجلاً كان بتلك الديار معروفاً بإصابة العين فسأل منه بعض الموتورين للسلطان أبي الحسن أن يصيب أساطيله بالعين وكانت كثيرة نحو الستمائة فنظر إليها الرجل العائن فكان غرقها بقدرة الله الذي يفعل ما يشاء ونجى السلطان بنفسه وجرت عليه محن اهـ.

ولما احتل بالجزائر وقد تمسك أهلها بطاعته استنشق ريح الحياة ولأم الصدع وأقام الرسم وخلع على من وصل إليه من فل الأساطيل واستلحق واستركب ولحق به ابنه الناصر من بسكرة والتف عليه بعض العرب من أحواز الجزائر ووفد عليه أولياؤه من عرب سويد فنهض إلى جهة تلمسان وقد استولى عليها بنو زيان وسلطانهم عثمان بن عبد الرحمٰن فبرز إليه أبو ثابت

أخو عثمان المذكور ولما التقى الجمعان اختل مصاف السلطان أبي الحسن واستبيح معسكره وانتهبت فساطيطه وقتل ابنه الناصر، وظهر يومئذٍ من بسالته وصدق دفاعه وشدة حملاته حتى أنه أركب ظعائنه وخلص محامياً عنها واحتمل ولده جريحاً فتوفي بالطريق فواراه في التراب وأخفى قبره، ثم خلص إلى الصحراء مع وليه ونزمار بن عريف بن يحيى السويدي ولحق بحلل قومه قبلة جبل وانشريس وأجمع أمره على قصد المغرب موطن قومه ومنبت عزه ودار ملكه فارتحل معه وليه ونزمار بالناجعة من قومه وخرجوا إلى جبل راشد ثم قطعوا المفاوز إلى سجلماسة في القفر، فلما أطلوا عليها وعاين أهلها السلطان تهافتوا عليه تهافت الفراش على ضوء السراج حتى خرج إليه العذارى من ستورهن ميلاً إليه ورغبة في ولايته، وفر العامل بسجلماسة إلى منجاته.

وكان الأمير أبو عنان لما بلغه الخبر بقصد أبيه سجلماسة نهض إليه في قومه وجموعه بعد أن أزاح عللهم وأفاض عطاءه فيهم، وكانت بنو مرين نافرة عن السلطان أبي الحسن حاذرة من عقوبته لجنايتهم بالتخاذل في المواقف والفرار عنه في الشدائد ولما كان يبعد بهم في الأسفار ويتجشم بهم المهالك والأخطار فكانوا لذلك مجمعين على منابذته ومخلصين في طاعة ابنه، ولما اتصل خبر قدومهم بالسلطان أبي الحسن علم من حاله أنه لا يطيق دفاعهم وكان ونزمار قد أجفل عنه في قومه سويد لأن أباه عريف بن يحيى كان قد نزع إلى أبي عنان قبل قدوم السلطان من تونس فأكرم محله ورفع منزلته فكتب إلى ابنه ونزمار ينهاه عن ولاية السلطان أبي الحسن ومظاهرته له وأقسم له لئن لم يفارق السلطان ليوقعن بابنه عنتر وكان معه في جملة الأمير أبي عنان فآثر ونزمار رضا أبيه وعلم أن غناءه عن السلطان في وطن المغرب قليل فأجفل عنه ولحق بسكرة فكان بها إلى أن رجع إلى أبي عنان بعد هذا، ولما قرب أبو عنان من سجلماسة أجفل السلطان عنها إلى ناحية مراكش ودخل أبو عنان سجلماسة فثقف أطرافها وسد فروجها وعقد عليها ليحتاتن بن عمر بن عبد المؤمن كبير بني ونكاسن وبلغه أن أباه قد سار إلى مراكش فاعتزم على اتباعه إليها فلم تطاوعه بنو مرين فرجع بهم إلى فاس إلى أن كان ما نذكره.

استيلاء السلطان أبي الحسن على مراكش ثم انهزامه عنها إلى هنتاته أهل جبل درن ووفاته هنالك

لما أجفل السلطان أبو الحسن عن سجلماسة سنة إحدى وخمسين وسبعمائة قصد مراكش وركب إليها الأوعار من جبال المصامدة، ولما شارفها تسارع إليه أهل جهاتها بالطاعة من كل أوب ونسلوا إليه من كل حدب، وفر عامل مراكش إلى أبي عنان ونزع إلى السلطان أبي الحسن صاحب ديوان الجباية أبو المجد بن محمد بن أبي مدين بما كان في الخزانة من مال الجباية فاختصه واستكتبه وجعل إليه علامته، واستركب واستلحق وجبى الأموال وبث العطاء ودخل في طاعته قبائل العرب من جشم وسائر المصامدة، وثاب له بمراكش ملك رجى معه أن يستولي على سلطانه ويرتجع فارط أمره.

وكان أبو عنان لما رجع إلى فاس عسكر بساحتها وشرع في العطاء وإزاحة العلل، ثم ارتحل في جموع بني مرين إلى مراكش وبرز السلطان أبو الحسن للقائه وانتهى كل واحد من الفريقين إلى وادي أم الربيع وتربص كل واحد بصاحبه عبور الوادي فعبره أبو الحسن، وكان اللقاء بتامدغوست في آخر صفر من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة فاختل مصاف السلطان وانهزم عسكره، ولحق به أبطال بني مرين ثم راجعوا عنه حياء وهيبة وكبى به فرسه يومئذٍ في مفره فسقط إلى الأرض والفرسان تحوم حوله، فاعترضهم دونه أبو دينار سليمان بن علي بن أحمد أمير الذواودة من عرب رياح ورديف أخيه يعقوب كان هاجر مع السلطان من الجزائر ولم يزل في جملته إلى هذا اليوم فدافع عنه حتى ركب وسار من ورائه ردأ له، وأسر حاجبه علال بن محمد فأودعه أبو عنان السجن ثم امتن عليه بعد وفاة أبيه.

وخلص السلطان أبو الحسن رحمه الله إلى جبل هنتانة من جبال درن ومعه كبيرهم عبد العزيز بن محمد بن علي الهنتاتي فنزل عليه وأجاره واجتمع إليه الملأ من قومه هنتاتة ومن انضاف إليهم من المصامدة وتآمروا

وتعاهدوا على المدافعة عنه وبايعوه على الموت وجاء أبو عنان على أثره حتى احتل بمراكش وأنزل عساكره على جبل هنتاتة ورتب المسالح لحصاره وحربه وطال عليه ثواؤه حتى طلب السلطان من ابنه الإبقاء عليه وأن يبعث إليه حاجبه أبا عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمر فحضر عنده وأحسن العذر عن الأمير أبي عنان والتمس له الرضا منه فرضي عنه وكتب له بولاية عهده وأوعز إليه بأن يبعث له مالاً وكسى فسرح الحاجب ابن أبي عمر بإخراجها من المودع بدار ملكهم واعتل السلطان خلال ذلك فمرضه أولياؤه وخاصته وافتصد لإخراج الدم ثم باشر الماء للطهارة فورم محل الفصادة ومات رحمه الله في الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة[1] هكذا عند ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما، والذي رأيته مكتوباً بالنقش على رخامة قبره بشالة أن وفاته كانت ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من ربيع الأول من السنة المذكورة وبعث أولياء السلطان بالخبر إلى ابنه وهو بمعسكره من ساحة مراكش ورفعوه على أعواد نعشه إليه فتلقاه حافياً حاسراً، وقبل أعواده وبكي واسترجع ورضني عن أوليائه وخاصته وأنزلهم بالمحل الذي رضوه من دولته؛ ثم دفن أباه بمراكش قبلي جامع المنصور من القصبة بالموضع الذي به اليوم قبور الملوك الأشراف السعديين، ثم لما نهض أبو عنان إلى فاس احتمل شلو أبيه معه حتى دفنه بشالة مقبرة سلفهم ولا زال ضريحه قائم العين والأثر إلى الآن رحمه الله تعالى.

بقية أخبار السلطان أبي الحسن وسيرته

كان السلطان أبو الحسن رحمه الله أسمر طويل القامة عظيم الهيكل معتدل اللحية حسن الوجه، وكان عفاً مائلاً إلى التقوى، مولعاً بالطيب لم يشرب الخمر قط لا في صغره ولا في كبره، محباً للصالحين عدلاً في رعيته

---

(1) حكى المؤلف قولاً آخر في كتابه «كشف العرين عن ليوث بني مرين» أنه مات مسموماً، وفي الروضة أنه مات بذات الجنب والله أعلم.

يحب الفخر ويعنى به، وقال بعض المشارقة في حقه ما صورته: «ملك أضاء المغرب بأنوار هلاله، وجرت إلى المشرق أنواء نواله وطابت نسماته واشتهرت عزماته كان حسن الكتابة كثير الإنابة ذا بلاغة وبراعة وشهامة وشجاعة». اهـ وبنى رحمه الله عدة مدارس منها المدرسة العظمى بمراكش قبلي جامع ابن يوسف، قال العلامة اليفرني في «النزهة»: «إن الذي بناها هو السلطان أبو الحسن المذكور» قلت: «ومن وقف على هذه المدرسة وتأمل تنجيدها وتنميقها قدر قدر هذا السلطان وعلم عظم أهميته ومحبته للعلم وأهله» ومنها المدرسة العظمى بطالعة سلا قبلي المسجد الأعظم منها، بناها رحمه الله على هيئة بديعة وصنعة رفيعة؛ وأودع جوانبها من أنواع النقش وضروب التخريم ما يحير البصر ويدهش الفكر، ووقف عليها عدة أوقاف رصع أسماءها بالنقش والأصباغ على رخامة عظيمة ثم نصب الرخامة بالحائط الجوفي منها كل ذلك محافظة على تلك الأوقاف أن تغير، وأما المسجد الأعظم ومدرسته الجوفية فهما من بناء يعقوب المنصور الموحدي حسبما تقدم ذلك في أخباره وعندي أن السور المحمول عليه الماء الداخل إلى سلا المعروف عندهم بسور الأقواس من بناء السلطان أبي الحسن رحمه الله، ولي في ذلك مستند غريب: وهو أني كنت ذات يوم أفاوض بعض القناقنة بسلا ممن كان يباشر أمر المياه بها ويصلح ما احتاج إلى الإصلاح منها، فقلت كالمستفهم لنفسي من غير قصد توجيه الخطاب إليه. يا ترى من الذي بنى سور الماء الداخل إلى البلد، فقال على البديهة: الذي بنى المدرسة هو الذي بنى سور الماء، فقلت له وكنت متشوفاً يومئذٍ لتحقيق ذلك. وما علمك بهذا؟ فقال: إن بيلة المدرسة بنيت يوم بنيت المدرسة بدليل الزليج المرصوف حولها بالعمل الكبير الموجود نظيره في سائر حيطان المدرسة وسواريها، وهذه البيلة لم تتغير عن حالها إلى أن باشرت إصلاحها في هذه الأيام؛ فحفرت عن قنواتها وتتبعت مادة الماء الواصل إليها فإذا عمل تلك القوادس وصنعة بنائها حتى الكلس المفرغ عليها الجامع بينها مماثل لعمل قنوات مبنية بالسور المذكور، داخلة فيه بحيث بني عليها يوم تأسيسه من غير

فوق بين هذه وتلك في جميع عملهما، وليس بشيء من القنوات الحادثة بعدهما يشبههما، فعلمت أن الذي بناهما واحد فأعجبني كلامه وباحثته في ذلك فصمم على معتقده وحاولت تشكيكه بكل وجه فلم يتشكك فظهر لي صدق دليله وغلب على ظني ما جزم به وعند الله علم حقيقة الأمر.

واعلم أن هذا السور من المباني العادية والهياكل العظيمة التي تدل على فخامة الدولة وكمال قوتها مثل ما يقال عن حنايا قرطاجنة ونحوها، وهذا السور مسوق من عيون البركة خارج مدينة سلا على أميال كثيرة ممتداً من القبلة إلى الجوف على أضخم بناء وأحكمه، موزون سطحه بالميزان الهندسي ليأتي جريان الماء فوقه على استواء ولذلك ينخفض إلى الأرض متى ارتفعت ويعلو عنها إذا انخفضت، ويجري على متنه من الماء مقدار النهر الصغير في ساقية قد اتخذت له، ولما شارف البلد عظم ارتفاعه جداً لأجل انخفاض الأرض عنه وكلما مر في سيره بطريق مسلوك فتحت له فيه أقواس فسمي لذلك سور الأقواس، وبالجملة فهو شاهد لبانيه بضخامة الدولة وعظم الهمة.

وللسلطان أبي الحسن رحمه الله بفاس ومكناسة وغيرهما من بلاد المغرب آثار كثيرة، فمن آثاره بفاس بيلة الرخام الأبيض المجلوبة من المرية زنتها مائة قنطار وثلاثة وأربعون قنطاراً، سيقت من المرية إلى مرسى العرائش ثم طلعت في وادي قصر كتامة؛ ثم حملت على عجل الخشب تجرها القبائل إلى منزل أولاد محبوب الذين على ضفة وادي سبو فوسقت فيه إلى أن وصلت إلى ملتقاه مع وادي فاس، ثم حملت على عجل الخشب أيضاً يجرها الناس إلى أن وصلت إلى مدرسة الصهريج التي بعدوة الأندلس؛ ثم نقلت منها بعد ذلك بأعوام إلى مدرسة الرخام التي أمر رحمه الله ببنائها جوف جامع القرويين المعروفة اليوم بمدرسة مصباح، ومصباح هذا هو أبو الضياء مصباح بن عبد الله الياصلوتي الفقيه المشهور، وإنما نسبت إليه لأن السلطان أبا الحسن لما بناها كان أبو الضياء أول من تصدى للدرس بها فنسبت إليه وقد تقدم لنا خبر المدرسة التي بناها غربي جامع الأندلس أيام أبيه وأنفق عليها أكثر من مائة الف دينار، ومن آثاره بمكناسة الزيتون الزاويتان القدمى والجديدة وكان بنى القدمى

في زمان أبيه والجديدة حين ولي الخلافة، وله في هذه المدينة عدة آثار سوى الزاويتين من القناطر والسقايات وغيرها، ومن أجل ذلك المدرسة الجديدة بها وكان قدم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة ولما تم بناؤها جاء إليها من فاس ليقف عليها ويرى عملها وصنعتها فقعد على كرسي من كراسي الوضوء حول صهريجها، وجيء بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها، فغرقها من الصهريج قبل أن يطالع ما فيها وأنشد:

لا بأس بالغالي إذا قيل حسن ... ليس لما قرت به العين ثمن

وكان له معرفة بالشعر فمن شعره قوله:

أرضي الله في سر وجهر ... وأحمي العرض عن دنس ارتياب
وأعطي الوفر من مالي اختياراً ... وأضرب بالسيف طلي الرقاب

وأخباره كثيرة ومن أراد الوقوف على تفاصيلها فعليه بكتاب الخطيب بن مرزوق الذي ألفه في دولته وسيرته وسماه «المسند الصحيح الحسن من أحاديث السلطان أبي الحسن» ولما ذكر الوزير ابن الخطيب في كتابه رقم الحلل هذا السلطان وصفه بقوله:

الملك المعدود من خير سلف ... ومجموع القول إذا القول اختلف
الدين والعفاف والجلالة ... والعز والقدرة والجزاله
والعلم والحلم وفضل الدين ... وصفوة الصفوة من مرين
ممهد الملك ومسدي المنن ... وواحد الدهر وفخر الزمن
باني المباني النخبة الشريفة ... بمقتضى همته المنيفه
وتارك المدارس الظريفه ... شاهدة بأنه الخليفه
وقاطع الدهر بغير لهو ... في مجلس معظم أو بهو
أما لتدريس وعلم يدرس ... أو لبلاد من عدو تحرس
أو لأياد في عباد ثغرس ... أو لثواب ورضا يلتمس
أو نسخ قرآن وعرض حزب ... أو عدة معدة لحرب

ومن أعيان وزرائه عامر بن فتح الله السدراتي، وعبد الله بن إبراهيم

الفودودي ومن أعيان كتابه أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي وأبو محمد بن عبد الله بن أبي مدين العثماني، وأبو الحسن علي بن القبايلي التينمللي رحم الله الجميع بمنّه.

ولنذكر ما كان من الأحداث في هذه المدة[1]:

ففي سنة سبعمائة أسس السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق تلمسان الجديدة المسماة بالمنصورة حسبما تقدم الخبر عنها مستوفى.

وفي سنة إحدى عشرة وسبعمائة كان القحط بالمغرب فاستسقى الناس وخرج السلطان أبو سعيد ماشياً على قدميه لإقامة سنة الاستسقاء وذلك يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان من السنة المذكور وتقدمت أمامه الصلحاء والفقهاء والقراء يدعون الله تعالى، وقدم بين يدي نجواه صدقات، وفرق أموالاً، وفي يوم السبت بعده خرج في جنده إلى قبر الشيخ أبي يعقوب الأشقر بجبل الكندرتين فدعا هنالك ورحم الله تعالى عباده وغاث أرضه وبلاده.

وفي سنة تسع عشرة وسبعمائة توفي الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي المعروف بالصغير بضم الصاد وفتح الغين وكسر الياء المشددة قاله ابن الخطيب في الإحاطة، وكان ربعة آدم اللون خفيف العارضين يلبس أحسن زي، ويدرس بجامع الأجدع من فاس يقعد على كرسي عال ليسمع القريب والبعيد على انخفاض كان في صوته وكان حسن الإقراء وقوراً صبوراً ثبتاً، وكان أحد الأقطاب الذين تدور عليهم الفتيا بالمغرب فيحسن

---

(1) قد ذكر صاحب روضة النسرين بعض أولاد السلطان أبي الحسن فقال: «أولاده الذكور السلطان أبو عمر تاشفين والسلطان أبو عنان فارس والسلطان أبو سالم إبراهيم والسلطان أبو فارس عبد العزيز وأبو مالك عبد الواحد وأبو عبد الرحيم يعقوب وأبو عامر عبد الله وسعود وداود ويوسف وعبد الحق وأبو غالب محمد وأحمد ومحمد المنتصر بالله ومحمد المسعود بالله. بناته: حضرية وأم العز وتابو وتاعزنت وسونة وريمة ويامنة والزهراء وصفية وزروا وكان جميع ما ولد بين ذكر وأنثى وسقط وغيره ألفاً وثمانمائة اثنين وستين أخبرني بذلك ثقته الشيخ المعمر علال بن محمد بن «مصمود الهسكوري».

التوقيع عليها على طريق الاختصار وترك فضول القول ولاه السلطان أبو الربيع القضاء بفاس وشد عضده فجرى في العدل على صراط مستقيم.

وفي سنة إحدى وعشرين وسبعمائة توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي المعروف بابن البناء الإمام المشهور في علم التعاليم والهيئة والنجوم والأزياج وغير ذلك، وكان رحمه الله عز وجل معروفاً باتباع السنة موسوماً بطهارة الاعتقاد منعوتاً بالصلاح وكان انتفاعه بصحبة الشيخ أبي زيد الهزميري رضي الله عنه.

وفي سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة في ذي القعدة منها هبت ريح شديدة بفاس ومكناسة وأحوازهما.واستمر هبوبها يومين وليلتين فعاقت عن الأسفار وهدمت الدور وقلعت الأشجار.

وفي سنة ثلاث وعشرين بعدها في المحرم منها جرت العين الموالية للمشرق من عيون صنهاجة بأحواز فاس بدم عبيط من وقت العصر إلى نصف الليل ثم عادت إلى حالها وفيها كان المطر العظيم والثلج الكثير بالمغرب وعدم الفحم والحطب حتى بيع الفحم بفاس بدرهمين للرطل، وفي جمادى الأولى منها احترق سوق العطارين الكبرى بفاس فجدده السلطان أبو سعيد من باب مدرسة العطارين إلى رأس عقبة الجزارين، وعقد عليه هنالك باباً ضخماً وأفرده للعطارين دون غيرهم.

وفي سنة أربع وعشرين وسبعمائة كانت المجاعة بالمغرب وارتفعت الأسعار في جميع البلاد فبلغ المد من القمح بفاس خمسة عشر درهماً والصحفة منه تسعين ديناراً وغلا الإدام وعدمت الخضر بأسرها، وكسى السلطان أبو سعيد وأطعم في هذه المسغبة شيئاً كثيراً، ودام ذلك إلى قرب منتصف السنة بعدها، وفيها في يوم الثلاثاء ثالث عشر رمضان منها نشأ خارج فاس من جهة جوفيها سحاب عظيم وظلمة شديدة ورياح عاصفة أعقب ذلك برد كثير عظيم الجرم تزن الواحدة منه ربع رطل وأقل وأكثر ونزل في خلاله مطر وابل جاءت منه السيول طامية حملت الناس والدواب وأهلكت جميع ما بجبل زالغ من الكروم والزيتون وسائر الشجر.

وفي سنة خمس وعشرين بعدها ليلة الجمعة السادس والعشرين من جمادى منها دخل السيل العظيم مدينة فاس وكاد يأتي عليها بحيث هدم الدور والمساجد والأسواق وأهلك آلافاً من الخلق حتى خيف على البلد التلف.

وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة انتهى تاريخ ابن أبي زرع المسمى: «بالأنيس المغرب القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» ومما هو الغاية في باب الإغراب ما ذكره ابن خلدون قال: «حضر أشياخنا بمجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح شأنهما واتصل على ذلك حالهما إلى أن ماتتا وذكرهما أيضاً الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقري في كتابه المسمى بـ «المحاضرات» قال: «وردت على تلمسان في العشرة الخامسة من المائة الثامنة امرأة من رندة لا تأكل ولا تشرب ولا تبول ولا تتغوط وتحيض فلما اشتهر هذا من أمرها أنكره الفقيه أبو موسى ابن الإمام وتلى: «كانا يأكلان الطعام» فأخذ الناس يبثون ثقات نسائهم ودهاتهن إليها فكشفوا عنها بكل وجه يمكنهن فلم يقفن على غير ما ذكر، وسئلت هل تشتهين الطعام، فقالت: «هل تشتهون التبن بين يدي الدواب» وسئلت هل يأتيها شيء فأخبرت «أنها صامت ذات يوم فأدركها الجوع والعطش فنامت فأتاها آت في النوم بطعام وشراب فأكلت وشربت فلما أفاقت وجدت نفسها قد استغنت فهي على تلك الحال تؤتى في المنام بالطعام والشراب إلى الآن»، ولقد جعلها السلطان في موضع بقصره وحفظها بالعدول ومن يكشف عما عسى تجيء أمها به إذا أتت إليها أربعين يوماً فلم يوقف لها على أمر، قال: «بيد إني أردت أن يزاد في عدد العدول ويضم إليهم الأطباء ومن يخوض في المعقولات من علماء الملل المسلمين وغيرهم ويوكل من نساء الفرق من يبالغ في كشف من يدخل إليها ولا يترك أحداً يخلو بها (وبالجملة) يبالغ في ذلك ويستدام رعيها عليه سنة لاحتمال أن يغلب عليها طبع فتستغني في فصل دون فصل، ثم يكتب هذا في العقود ويشاع أمره في العالم، وذلك لأنه يهدم حكم الطبيعة الذي

هو أضر الأحكام على الشريعة، ويبين كيفية غذاء أهل الجنة، وأن الحيض ليس من فضلات الغذاء ويبطل التأثير والتولد، ويوجب أن الاقترانات بالعادات لا باللزوم، وعند الأسباب لا بها إلى غير ذلك، إلا إني لما أشرت بهذا انقسم من أشرت عليه بتبليغه إلى من لم يفهم ما قلت ومن لم يرفع به رأساً لإيثار الدنيا على الدين فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال المقري: «وقد ذكر أن امرأة أخرى كانت معها على تلك الحالة» وحدثني غير واحد من الثقات ممن أدرك عائشة الجزرية أنها كانت كذلك، وإن عائشة بنت أبي بكر يعني زوجة السلطان أبي الحسن التي استشهدت في طريف اختبرتها أربعين يوماً أيضاً وكم من آية أضيعت وحجة نسيت مما لم يعرف مثله قبل المائة الثامنة، وكذلك الوباء العام القريب فروطه يوشك أن يطول أمره فينسى ذكره ويكذب المحدث به إذا انقضى عصره، وكم فيه من أدلة على أصول الملة» اهـ كلام الشيخ أبي عبد الله المقري رحمه الله ويعني بالوباء القريب فروطه: وباء منتصف المائة الثامنة أيام كان السلطان أبو الحسن بتونس فإنه كان وباء عظيماً لم يعهد مثله قد عم أقطار الأرض وتحيف العمران جملة حتى كاد يأتي على الخليقة أجمع والأمور كلها بيد الله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي عنان فارس بن أبي الحسن رحمه الله

كان هذا السلطان محبوباً في قومه وعشيرته، أثيراً عند والده متميزاً بذلك عن سائر إخوته لفضله وعمله وصيانته وعفافه واستظهار القرآن الكريم وغير ذلك من الأوصاف الحسنة، أمه أم ولد رومية اسمها شمس الضحى وقبرها بشالة معروف إلى الآن رأيت مكتوباً عليه بالنقش: «أنها توفيت ليلة السبت رابع رجب الفرد سنة خمسين وسبعمائة، ودفنت إثر صلاة الجمعة في الخامس والعشرين من الشهر المذكور وحضر لدفنها أعيان المشرق

والمغرب»، اهـ وكان مولد السلطان أبي عنان بفاس الجديد في الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وسبعمائة وبويع في حياة والده يوم ثار عليه بتلمسان حسبما قدمنا الخبر عنه وذلك يوم الثلاثاء منسلخ ربيع الأول سنة تسع وأربعين وسبعمائة. ولما هلك والده أبو الحسن بجبل هنتاتة وانقضى شأن الحصار ارتحل السلطان أبو عنان إلى فاس ونقل شلو أبيه إلى شالة فدفنه بها، وأغذ السير إلى فاس وقد استتب أمره وخلا له الجو فاحتل بدار ملكه وأجمع[1] أمره على غزو بني عبد الواد لارتجاع ما بأيديهم من الملك الذي تطاولوا إليه. ولما دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة نادى بالعطاء وأزاح العلل وعسكر بساحة البلد الجديد وعرض جيشه ثم نهض يريد تلمسان.

واتصل خبره بسلطانها أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمٰن الزياني فجمع له قومه ومن شايعهم من زناتة والعرب، ثم نهض إليه ومعه أخوه ووزيره أبو ثابت فكان اللقاء ببسيط أنكاد آخر ربيع الثاني من السنة المذكورة، وأجمع بنو عبد الواد على صدمة المرينيين وقت القائلة وعند ضرب الأبنية وسقاء الركاب وافتراق أهل المعسكر في حاجاتهم، فحملوا عليهم وأعجلوهم عن ترتيب المصاف وركب السلطان أبو عنان لتلافي الأمر وخاض بحر القتال وقد أظلم الجو بالغبار، حتى إذا خلص إليهم وخالطهم في صفوفهم ولوا الأدبار، واتبع بنو مرين آثارهم فاستولوا على معسكرهم واستباحوهم قتلاً وسبياً وصفدوهم أسرى ولم يزالوا في اتباعهم إلى الليل، وتقبضوا على سلطانهم أبي سعيد فساقوه إلى السلطان أبي عنان فاعتقله، وتقدم على التعبية إلى تلمسان فدخلها في ربيع المذكور واستوت في ملكها قدمه، وأحضر أبا سعيد فوبخه وأراه أعماله حسرات عليه، ثم أحضر الفقهاء وأرباب الفتيا

---

(1) في بغية الرواد أن الأمر كان على ما ينبغي بين أبي عنان وملك تلمسان أبي سعيد إلى أن كتب أبو عنان لأبي سعيد متشفعاً في مغراوة الذين كان محاصراً لهم فرد شفاعته فحنق على بني عبد الواد من أجل ذلك واستنفر الناس لغزو تلمسان الخ بغية الرواد ص 158 وما بعدها جزء أول طبع الجزائر 1321.

فأفتوا بحرابته وقتله فأمضى حكم الله فيه فذبح في محبسه لتاسعة من اعتقاله.

وفر أخوه الزعيم أبو ثابت إلى قاصية الشرق بعد أن احتمل معه حرمه وحرم أخيه ومتخلفهم، واحتل بوادي شلف من بلاد مغراوة فعسكر هنالك واجتمع عليه أوشاب من زناتة وحدث نفسه باللقاء ووعدها بالصبر والثبات.

واتصل خبره بالسلطان أبي عنان فسرح إليه وزيره فارس بن ميمون في عساكر بني مرين والجند فأغذ السير إليهم، ثم ارتحل السلطان أبو عنان من تلمسان على أثره، ولما تراءى الجمعان تصادقا الحملة وخاض النهر بعضهم إلى بعض ثم صدق بنو مرين الحملة فاجتازوا النهر وانكشفت بنو عبد الواد واتبع بنو مرين آثارهم فاستلحموهم ثانية واستباحوا معسكرهم واستاقوا نساءهم وأموالهم ودوابهم، وكتب الوزير بالفتح إلى السلطان أبي عنان وفر أبو ثابت إلى قاصية الشرق في نفر من عشيرته وبني أبيه فاعترضتهم قبائل زواوة فانتهبوا أسلابهم وأرجلوهم عن خيولهم ومروا على وجوههم حفاة عراة لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، وكتب الوزير إلى أمراء الثغور في شأن أبي ثابت وأصحابه فأذكوا العيون عليهم وقعدوا لهم بالمراصد حتى عثر عليهم بعض الحشم، فقبضوا على أبي ثابت وابن أخيه أبي زيان بن أبي سعيد المقتول ووزيرهم يحيى بن داود، فرفعوهم إلى أمير بجاية أبي عبد الله محمد بن أبي زكرياء بن أبي بكر الحفصي وكان خالصة للسلطان أبي عنان منذ أيام والده فاعتقلهم عنده حتى وفد بهم عليه بلمدية، فأكرم السلطان أبو عنان وفادته وركب للقائه، لما تراءيا نزل الحفصي عن فرسه إعظاماً للسلطان فنزل السلطان مكافأة له ولقاه مبرة وكرامة، وأودع أبا ثابت السجن وتوافت إليه وفود الذواودة بمكانه من لمدية فأكرم وفادتهم، وأسنى عطاياهم من الخلع والحملان والذهب والفضة وانقلبوا خير منقلب، ووافته بمكانه ذلك بيعة ابن مزني عامل بسكرة والزاب مع وفدهم فأكرمهم ووصلهم، وفرغ السلطان أبو عنان من شأن المغرب الأوسط وبث عماله في نواحيه وثقف أطرافه وسمى إلى تملك إفريقية على ما نذكره إن شاء الله.

تملك السلطان أبي عنان بجاية وتولية عمر بن علي الوطاسي عليها

لما وفد أبو عبد الله الحفصي على السلطان أبي عنان بلمدية في شعبان من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وبالغ في إكرامه ناجاه بذات صدره، وشكا إليه ما يلقاه من رعيته من الامتناع من الجباية والسعي في الفساد وما يتبع ذلك من شقاق الحامية واستبداد البطانة، وكان السلطان أبو عنان متشوفاً لمثلها فأشار عليه بالنزول عنها وأن يعوضه عنها ما شاء من بلاده، فسارع إلى قبول ذلك ودس إليه السلطان مع حاجبه محمد بن أبي عمرو أن يشهد بذلك على رؤوس الملأ ففعل وعوضه عنها مكناسة الزيتون، ونقم بطانة الحفصي عليه ونزع بعضهم عنه إلى إفريقية وأمره السلطان أبو عنان أن يكتب بخطه إلى عامله على بجاية بالنزول عنها وتمكين عمال السلطان منها ففعل، وعقد أبو عنان عليها لعمر بن علي الوطاسي من بني الوزير الذين قدمنا خبر ثورتهم بحصن تازوطا أيام يوسف بن يعقوب، ولما قضى السلطان أبو عنان حاجته من المغرب الأوسط واستولى على بجاية ثغر إفريقية انكفأ راجعاً إلى تلمسان لشهود عيد الفطر بها ودخلها في يوم مشهود، حمل أبا ثابت الزياني ووزيره يحيى بن داود على جملين ودخل بهما تلمسان يخطوان بهما في ذلك المحفل بين السماطين فكانا عبرة لمن حضر، ثم جنبا من الغد إلى مصارعهما فقتلا قعصاً بالرماح وإلى الله عاقبة الأمور.

ثورة أهل بجاية ومقتل عمر بن الوطاسي بها

لما قدم عمر بن علي الوطاسي بجاية واستقر بها ثقل أمره على نفوس أهلها لألفهم ملكة الحفصيين وانصباغهم بالميل إليهم، فتربصوا بالوطاسي الدوائر وكان أبو عبد الله الحفصي قد استصحب معه في وفادته على السلطان أبي عنان حاجبه فارحاً مولى ابن سيد الناس، فلما نزل

للسلطان عن بجاية نقم فارح عليه ذلك وأسرها في نفسه إلى أن بعثه الحفصي المذكور مع الوطاسي لينقل حرمه ومتاعه وماعون داره إلى المغرب، فانتهى إلى بجاية وبينما هو يحاول ما أرسل في شأنه شكا إليه الصنهاجيون سوء ملكة بني مرين فنجع كلامهم فيه ونفث لهم بما عنده من الضغن ودعاهم إلى الثورة بالمرينيين والقيام بدعوة الحفصيين، فأجابوه إلى ذلك وتواعدوا للفتك بعلي بن عمر الوطاسي بمجلسه من القصبة، وتولى كبرها منصور بن إبراهيم بن الحاج من مشيختهم وباكره في داره على عادة الأمراء، ولما أكب عليه ليلثم أطرافه طعنه بخنجره ثم ولج عليه الباقون فاستلحموه وذلك في ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وثارت الغوغاء بالبلد وهتف الهاتف بدعوة أبي زيد بن محمد بن أبي بكر الحفصي صاحب قسنطينة، وطيروا إليه بالخبر واستدعوه فتثاقل عنهم وبلغ الخبر إلى السلطان أبي عنان فاتهم أبا عبد الله الحفصي بمداخلة حاجبه فارح في ذلك فاعتقله بداره واعتقل وفداً من أشراف بجاية كانوا ببابه، ثم راجع شيوخ بجاية بصائرهم وتداركوا أمرهم في الرجوع إلى طاعة السلطان أبي عنان واتفق رأيهم على أن يرقعوا هذا الخرق ويسدوا هذه الثلمة برأس الحاجب فارح وصنهاجة الثائرين معه، وداخلهم في ذلك القائد هلال مولى ابن سيد الناس ولما عزموا على أمرهم دعوا الحاجب فارحاً إلى المسجد ليفاوضوه فيما نزل بهم فأحس بالشر ولجأ إلى دار الشيخ أبي العباس أحمد بن إدريس البجائي إمام بجاية ومفتيها، فاقتحموا عليه الدار وباشره مولاه محمد بن سيد الناس بطعنة فأنفذه ورمى بشلوه من أعلى الدار، فاحتزوا رأسه وبعثوا به إلى السلطان أبي عنان وفر منصور بن إبراهيم بن الحاج وقومه صنهاجة عن البلد، وسرح السلطان أبو عنان إليها حاجبه أبا عبد الله محمد بن أبي عمرو في الكتائب فدخلها فاتح سنة أربع وخمسين وسبعمائة، وذهبت صنهاجة في كل وجه ولحق أصحاب الفعلة منهم بتونس وتقبض الحاجب ابن أبي عمرو على جماعة من غوغاء بجاية

المتهمين بالخوض في الفتنة يناهزون المائتين فاعتقلهم وأركبهم الأسطول إلى المغرب فأطمأن الناس وسكنوا، وتوافت لديه وفود الذواودة من كل جهة فأجزل صلاتهم، ووفد عليه عامل الزاب يوسف بن مزني فأكرم وفادته، ثم ارتحل إلى تلمسان غرة جمادى الأولى من السنة ومعه شيوخ الذواودة ووجوه بجاية.

قال ابن خلدون: وكنت يومئذٍ في جملتهم فجلس السلطان للوفد وعرض ما جنب إليه من الجياد والهدايا وكان يوماً مشهوداً، وانصرفوا إلى مواطنهم فاتح شعبان من السنة المذكورة، قال: وانقلبت مع الحاجب بعد إسناء الجائزة والخلع والحملان من السلطان والوعد الجميل بتجديد ما إلى قومي ببلدي من الإقطاعات، ولما احتل الحاجب ابن أبي عمرو ببجاية ضبط أمرها وأقام أودها وألح على قسنطينة بترديد البعوث وتجهيز الكتائب إلى أن أذعنوا للطاعة ومكنوه من تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المنصوب هناك للفتنة وأوفد أبو زيد الحفصي صاحب قسنطينة ابنه على السطان أبي عنان فقبل وفادته وشكر سعيه وانكفأ الحاجب ابن أبي عمرو إلى بجاية وأقام بها إلى أن هلك في المحرم سنة ست وخمسين وسبعمائة فذهب حميد السيرة عند أهل البلد، وعقد السلطان أبو عنان على بجاية لعبد الله بن علي بن سعيد أحد وزرائه فنهض إليها في ربيع من سنة ست وخمسين المذكورة فاستقر بها وسلك سنن الحاجب قبله وسيرته وجهز العساكر إلى حصار قسنطينة إلى أن كان من فتحها ما نذكره بعد إن شاء الله.

خروج أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن ببلاد السوس ثم مقتله عقب ذلك

قد تقدم لنا أن السلطان أبا الحسن لما ركب البحر من تونس إلى المغرب عقد على تونس لابنه أبي الفضل هذا، وأنه لما أقلع عنها ثار أهل البلد وشيعة الحفصيين عليه فأخرجوه عنها ولحق بأبيه فكان معه إلى أن هلك وخلص الأمر إلى السلطان أبي عنان فلحق به هو وأخوه أبو سالم، ففكر أبو

عنان في أمرهما وخشي عاقبة ترشيحهما فأشخصهما إلى الأندلس ليكونا مع الغزاة والقرابة في إيالة السلطان أبي الحجاج يوسف بن الأحمر ثم ندم على ذلك ولما استولى على تلمسان والمغرب الأوسط ورأى أن قد استفحل أمره واعتز سلطانه أنفد الرسل إلى أبي الحجاج في أن يشخصهما إليه لأن مقامهما عنده أحوط لجمع الكلمة بخلاف ما إذا غابا عن حضرته، وخشي أبو الحجاج غائلته عليهما فأبى من إسلامهما اليد وأجاب الرسل بأنه لا يخفر ذمته ولا يسيء جوار المسلمين المجاهدين لديه، فغضب السلطان أبو عنان لذلك وقام وقعد وأمر حاجبه ابن أبي عمرو أن يكتب إليه ويبالغ في التوبيخ واللوم ففعل الحاجب المذكور.

قال ابن خلدون: وقد أوقفني الحاجب على ذلك الكتاب ببجاية فقضيت عجباً من فصوله وأغراضه، ولما قرأه أبو الحجاج ابن الأحمر دس إلى أبي الفضل وكان أكبر الأخوين باللحاق بالطاغية وكانت بينهما ولاية ومخالصة فنزع إليه أبو الفضل وجهز الطاغية له أسطولاً أركبه فيه وأنزله بساحل السوس من أرض المغرب، ونذر السلطان أبو عنان بذلك فأوعز إلى قائد أسطوله باعتراض أسطول الطاغية فاعترضه وأوقع به وكتب ابن الأحمر أثناء ذلك كتاباً إلى السلطان أبي عنان يعتذر عن أمر أبي الفضل من إنشاء وزيره لسان الدين ابن الخطيب ونصه:

«المقام الذي شهد الليل والنهار بأصالة سعادته وجرى الفلك الدوار بحكم إرادته وتعود الظفر بمن يناويه فاطرد والحمد لله جريان عادته فوليه متحقق لإفادته وعدوه مرتقب لإبادته وحلل الصنائع الإلهية تضفو على أعطاف مجادته مقام محل أخينا الذي سهم سعده صائب وأمل من كاده خاسر خائب وسير الفلك المدار في مرضاته دائب وصنائع الله تعالى له تصحبها الألطاف العجائب فسيان شاهد منه في عصمة وغائب السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى مسدداً لسهم ماضي العزم، تجل سعوده عن تصور الوهم ولا زال مرهوب الحد ممتثل الرسم موفور الحظ من نعمة الله تعالى عند تعدد القسم، فائزاً بفلج الخصام عند لد الخصم معظم قدره

وملتزم بره مبتهج بما يسببه الله تعالى له من إعزاز نصره وإظهار أمره فلان، سلام كريم طيب بر عميم، يخص مقامكم الأعلى، ومثابتكم الفضلى التي حازت في الفخر الأمد البعيد وفازت من التأييد والنصر بالحظ السعيد ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله الذي فسح لملككم الرفيع في العز مدى وعرفه عوارف آلائه وعوائد النصر على أعدائه يوماً وغداً وحرس سماء علائه بشهب من قدره وقضائه فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً، وجعل نجح آماله وحسن مآله قياساً مطرداً فرب مريد ضره ضر نفسه وهاد إليه الجيش أهدى وما هدي والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه ورسوله الذي ملأ الكون نوراً وهدى وأحيا مراسم الحق وقد صارت طرائق قدداً أعلى الأنام يداً وأشرفهم محتداً الذي بجاهه نلبس أثواب السعادة جدداً ونظفر بالنعيم الذي لا ينقطع أبداً والرضا عن آله وأصحابه الذين رفعوا لسماء سنته عمداً وأوضحوا لسبيل اتباعه مقصداً وتقبلوا شيمه الطاهرة ركعاً وسجداً سيوفاً على من اعتدى ونجوماً لمن اهتدى حتى علت فروع ملته صعداً وأصبح بناؤها مديداً مخلداً والدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر الذي يتوالى مثنًى وموحداً كما جمع لملككم ما تفرق من الألقاب على توالي الأحقاب فجعل سيفكم سفاحاً وعلمكم منصوراً ورأيكم رشيداً وعزمكم مؤيداً فإنا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم صنعاً يشرح للإسلام خلداً ونصراً يقيم للدين الحنيفي أوداً وعزماً يملأ أفئدة الكفر كمداً وجعلكم ممن هيأ له من أمره رشداً ويسر لكم العاقبة الحسنى كما وعد به في كتابه العزيز والله أصدق موعداً من حمراء غرناطة حرسها الله ولا زائد بفضل الله سبحانه إلا استطلاع سعودكم في آفاق العناية واعتقاد جميل صنع الله في البداية والنهاية والعلم بأن ملككم تحدى من الظهور على أعدائه بآية وأجرى جياد السعد في ميدان لا يحد بغاية وخرق حجاب المعتاد بما لم يظهر إلا لأصحاب الكرامة والولاية ونحن على ما علمتم من السرور بما يهز لملككم المنصور عطفاً ويسدل عليه من العصمة سجفاً فقاسمه الارتياح لمواقع نعم الله تعالى نصفاً ونصفاً ونعقد بين أنباء مسرته وبين الشكر لله حلفاً ونعد التشيع له مما يقربنا إلى الله زلفى

ونؤمل من إمداده ونرتقب من جهاده وقتاً يكفل به الدين ويكفي وتروى غلل النفوس وتشفى وإلى هذا وصل الله سعدكم ووالى نصركم وعضدكم فإنا من لدن صدر عن أخيكم أبي الفضل ما صدر من الانقياد لخدع الآمال والاغترار بموارد الآل وقال رأيه في اقتحام الأهوال وتورط في هفوة حار فيها حيرة أهل الكلام في الأحوال وناصب من أمركم السعيد جبلاً قضى الله له بالاستقرار والاستقلال ومن ذا يزاحم الأطواد ويزحزح الجبال وأخلف الظن منا في وفائه وأضمر عملاً استأثر عنا بإخفائه واستعان من عدو الدين بمعين فلا ورى لمن استنصر به زند ولا خفق لمن تولاه بالنصر بند وإن الطاغية أعانه وأنجده ورأى أنه سهم على المسلمين سدده وعضب للفتنة جرده فسخر له الفلك وأمل أن يستخدمه بسبب ذلك الملك فأورده الهلك والظلم الحلك علمنا أن طرف سعادته كاب وسحائب آماله غير ذات انسكاب وقدم عزته لم يستقر من السداد في غرز ركاب فإن نجاح أعمال النفوس مرتبط بنياتها وغايات الأمور تظهر في بداياتها وعوائد الله تعالى فيمن نازع قدرته لا تجهل ومن غالب أمر الله خاب منه المعول فبينما نحن نرتقب خسار تلك الصفقة المعقودة وخمود تلك الشعلة الموقودة وصلنا كتابكم يشرح الصدور ويشرح الأخبار ويهدي طرف المسرات على أكف الاستبشار ويعرب بلسان حال المسارعة والابتدار عن الود الواضح وضوح النهار والتحقق بخلوصنا الذي يعلمه عالم الأسرار فأعاد في الإفادة وأبدأ وأسدى من الفضائل الجلائل ما أسدى فعلم منه مآل من رام يقدح زند الشتات من بعد الالتئام ويثير عجاجة المنازعة من بعد ركوب القتام هيهات تلك قلادة الله تعالى التي ما كان ليتركها بغير نظام ولم يدر أنكم نصبتم له من الحزم حبالة لا يفلتها قنيص ، سددتم له من السعد سهماً ما له عنه من محيص بما كان من إرسال جوارح الأسطول السعيد في مطاره حائلاً بينه وبين أوطاره فما كان إلا التسمية والإرسال ثم الإمساك والقتال ثم الاقتيات والاستعمال فيا له من زجر استنطق لسان الوجود مجدله واستنصر البحر فخذله وصارع القدر فجدله لما جد له وإن خدامكم استولوا على ما كان فيه من مؤمل غاية بعيدة ومنتسب إلى نسبة غير سعيدة

وشانىء غمرته من الكفار خدام الماء وأولياء النار تحكمت فيهم أطراف العوالي وصدور الشفار وتحصل منهم من تخطاه الحمام في قبضة الأسار فعجبنا من تيسير هذا المرام وإخماد الله لهذا الضرام وقلنا تكييف لا يحصل في الأوهام وتسديد لا تستطيع إصابته السهام كلما قدح الخلاف زنداً أطفأ سعدكم شعلته أو أظهر الشتات ألماً أبرأ يمن طائركم علته ما ذاك إلا لنية صدقت معاملتها في جنب الله تعالى وصحت واسترسلت بركتها وسحت وجهاد نذرتموه إذا فرغت شواغلكم وتمت واهتمام بالإسلام يكفيه الخطوب التي أهمت فنحن نهنيكم بمنح الله ومننه ونسأله أن يلبسكم من إعانته أوقى جننه فأملنا أن تطرد آمالكم وتنجح في مرضات الله أعمالكم فمقامكم هو العمدة التي يدافع العدو بسلاحها وتنبلج ظلماته بصفاحها وكيف لانهنئكم بصنع على جهتنا يعود وبشابقنا تطلع منه السعود فتيقنوا ما عندنا من الاعتقاد الذي رسومه قد استقلت واكتفت وديمه بساحة الود قد وكفت والله عز وجل يجعل لكم الفتوح عادة ولا يعدمكم عناية وسعادة وهو سبحانه يعلي مقامكم وينصر أعلامكم ويهني الإسلام أيامكم والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته» اهـ.

ولما نزل أبو الفضل بساحل السوس لحق بعبد الله السكسيوي صاحب الجبل المنسوب إليه ودعا لنفسه، وكان ذلك إثر مقدم الحاجب ابن أبي عمرو من فتح بجاية سنة أربع وخمسين وسبعمائة، فجهز السلطان أبو عنان إليه عسكره من تلمسان وعقد على حرب السكسيوي وأبي الفضل لوزيره فارس بن ميمون بن وردار فسار حتى نزل على جبل السكسيوي وأحاط به وأخذ بمخنقه واختط مدينة لمعسكره وتجمير كتائبه بسفح ذلك الجبل سماها القاهرة، ولما اشتد الحصار على السكسيوي بعث إلى الوزير يسأله الرجوع إلى طاعته المعروفة وأن ينبذ العهد إلى أبي الفضل، ففارقه وانتقل إلى جبال المصامدة، ودخل الوزير فارس أرض السوس فدوخ أقطارها ومهد أكنافها وسارت الألوية والجيوش في جهاتها ورتب المسالح في ثغورها وأمصارها.

وسار أبو الفضل يتنقل في جبال المصامدة إلى أن انتهى إلى صناكة

وألقى بنفسه على ابن الحميدي منهم مما يلي بلاد درعة فأجاره وقام بأمره ونازله عامل درعة يومئذٍ عبد الله بن مسلم الزردالي من مشيخة بني عبد الواد كان السلطان أبو الحسن رحمه الله قد اصطنعه أيام فتحه لتلمسان فاستقر في دولتهم واندرج في صنائعهم، فأخذ بمخنق ابن الحميدي وأرهبه بوصول العساكر والوزراء إليه، وداخله في التقبض على أبي الفضل وأن يبذل له من المال في ذلك ما أحب، فأجاب ولاطف عبد الله بن مسلم الأمير أبا الفضل ووعده من نفسه الدخول في الأمر وطلب لقاءه، فركب إليه أبو الفضل ولما استمكن منه ابن مسلم تقبض عليه ودفع لابن الحميدي ما اشترط له من المال وأشخصه معتقلاً إلى أخيه السلطان أبي عنان سنة خمس وخمسين وسبعمائة فأودعه السجن وكتب بالفتح إلى القاصية ثم قتله لليال يسيرة من اعتقاله خنقاً بمحبسه وانقضى أمر الخوارج وتمهدت الدولة إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله.

وفادة الوزير ابن الخطيب من قبل سلطانه الغني بالله على السلطان أبي عنان رحمهم الله

كان السلطان أبو الحجاج يوسف بن الأحمر قد أوفد وزيره لسان الدين ابن الخطيب على السلطان أبي عنان إثر مهلك السلطان أبي الحسن معزياً له بمصابه، فقدم ابن الخطيب وأدى الرسالة وجلى في أغراض تلك السفارة وعاد إلى غرناطة، ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة بمصلى عيد الفطر وهو ساجد طعنه بعض الزعانف فأصماه لوقته، وبايع الناس ابنه محمد بن يوسف الغني بالله وقام بأمر دولته مولاه رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة الأصاغر من ملوكهم واستبد بالأمر وانفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه من قبل، واتخذ لكتابته غيره وجعل ابن الخطيب رديفاً لرضوان في أمره وتشاركا في الاستبداد

معاً، فجرت الدولة على أحسن حال، ثم إن السلطان الغني بالله بعث وزيره ابن الخطيب سفيراً عنه إلى السلطان أبي عنان مستمداً له على عدوه الطاغية على عادة سلفه في ذلك، قال ابن الخطيب: لما أشرفت على مدينة فاس في غرض هذه الرسالة خاطبني الخطيب الرئيس أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني بمنزل الشاطبي على مرحلة منها بما نصه:

يا قادماً وافي بكل نجاح ... أبشر بما تلقاه من أفراح

هذي ذرى ملك الملوك فلذ بها ... تنل المنى وتفز بكل سماح

مغنى الإمام أبي عنان يممن ... تظفر ببحر بالندا طفاح

من قاس جود أبي عنان في الندا ... بسواه قاس البحر بالضحضاح

ملك يفيض على العفاة نواله ... قبل السؤال وقبل بسطة راح

فلجود كعب وابن سعد في الندا ... ذكر محاه عن نداه ماح

ما أن سمعت ولا رأيت بمثله ... من أريحي للندا مرتاح

بسط الأمان على الأنام فأصبحوا ... قد ألحفوا منه بظل جناح

وهمى على العافين سيب نواله ... حتى حكى سح الغمام الساح

فنواله وجلاله وفعاله ... فاقت وأعيت السن المداح

وبه الدنا أضحت تروق وأصبحت ... كل المنى تنقاد بعد جماح

من كان ذا ترح فرؤية وجهه ... متلافة الأحزان والأتراح

فانهض أبا عبد الإله تفز بما ... تبغيه من أمل ونيل نجاح

لا زلت ترتشف الأماني راحة ... من راحة المولى بكل صباح

فالحمد لله يا سيدي وأخي على نعمه التي لا تحصى، حمداً يؤم به جميعنا المقصد الأسنى فيبلغ الأمد الأقصى، فطالما كان معظم سيدي للأسى في خبال وللأسف بين اشتغال بال واشتعال بلبال ولقدومكم على هذا المحل المولوي في ارتقاب ولمواعيدكم بذلك في تحقق وقوعه من غير شك ولا ارتياب، فها أنت تجتني من هذا المقام العلي بتشيعك وجوه المسرة صباحاً وتتلقى أحاديث مكارمه ومواهبه مسندة صحاحاً بحول الله تعالى ولسيدي

الفضل في قبول مركوبه الواصل إليه بسرجه ولجامه فهو من بعض ما لدى المعظم من إحسان مولاه وإنعامه ولعمري لقد كان وافد على سيدي في مستقره مع غيره فالحمد لله الذي يسر في إيصاله على أفضل أحواله قال ابن الخطيب: فراجعته بما نصه:

راحت تذكرني كؤوس الراح ... والقرب يخفض للجنوح جناح
وسرت تدل على القبول كأنما ... دل النسيم على انبلاج صباح
حسناء قد غنيت بحسن صفاتها ... عن دملج وقلادة ووشاح
أمست تحض على اللياد بمن جرت ... بسعوده الأقلام في الألواح
بخليفة الله المؤيد فارس ... شمس المعالي الأزهر الوضاح
ما شئت من شيم ومن همم غدت ... كالزهر أو كالزهر في الأدواح
فضل الملوك فليس يدرك شأوه ... أنى يقاس الغمر بالضحضاح
أسنى بني عباسهم بلوائه الـ ... ـمنصور أو بحسامه السفاح
وغدت مغاني الملك لما حلها ... تزري ببدر هدى وبحر سماح
وحياة من أهداك تحفة قادم ... في العرف منها راحة الأرواح
ما زلت أجعل ذكره وثناءه ... روحي وريحاني الأريح وراح
ولقد تمازج حبه بجوارحي ... كتمازج الأجسام بالأرواح
ولو أنني أبصرت يوماً في يدي ... أمري لطرت إليه دون جناح
فالآن ساعدني الزمان وأيقنت ... من قربه نفسي بفوز قداح
إيه أبا عبد الإله وإنه ... لنداء ود في علاك صراح
أما إذا استنجدتني من بعد ما ... ركدت لما جنت الخطوب رياح
فإليكها مهزولة وأنا امرؤ ... قررت عجزي وأطرحت سلاح

سيدي أبقاك الله لعهد تحفظه، وولاء بعين الوفاء تلحظه، وصلتني رقعتك التي ابتدعت وبالحق من مولى الخليفة صدعت والفتنى وقد سطت بي الأوحال حتى كادت تتلف الرحال والحاجة إلى الغداء قد شمرت عن كشح البطين وثانية العجماوين قد توقع فوات وقتها وإن كانت صلاتها صلاة الطين

والفكر قد غاض معينه وضعف وعلى الله جزاء المولى الذي يعينه، فغزتني بكتيبة بيان أسدها هسور وعلمها منصور وألفاظها ليس فيها قصور ومعانيها عليها الحسن مقصور واعتراف مثلي بالعجز في المضايق حول ومنّة وقول لا أدري للعالم فكيف بغيره جنة لكنها بشرتني بما يقل لمؤديه بذل النفوس وإن جلت وأطلعتني من السراء على وجه تحسده الشمس إذا تجلت بما أعلمتني به من جميل اعتقاد مولانا أمير المؤمنين أيده الله في عبده وصدق المخيلة في كرم مجده وهذا هو الجود المحض والفضل الذي شكره هو الفرض وتلك الخلافة المولوية تتصف بصفات من يبدأ بالنوال من قبل الضراعة والسؤال من غير اعتبار للأسباب ولا مجازات للأعمال نسأل الله تعالى أن يبقي منها على الإسلام أوفى الظلال ويبلغها من فضله أقصى الآمال ووصل ما بعثه سيدي صحبتها من الهدية والتحفة الودية وقبلتها امتثالاً واستجليت منها عتقاً وجمالاً وسيدي في الوقت أنسب باتخاذ ذلك الجنس وأقدر على الاستكثار من إناث البهم والإنس وأنا ضعيف القدرة غير مستطيع لذلك إلا في الندرة فلو رأى سيدي ورأيه سداد وقصده فضل ووداد أن ينقل القضية إلى باب العارية من باب الهبة مع وجود الحقوق المترتبة لبسط خاطري وجمعه وعمل في رفع المؤنة على شاكلة حالي معه وقد استصحبت مركوباً يشق عليّ هجره ويناسب مقامي شكله ونجره، وسيدي في الإسعاف على الله أجره، وهذا أمر عرض وفرض فرض، وعلى نظره المعول، واعتماد إغضائه هو المعقول الأول والسلام على سيدي من معظم قدره وملتزم بره ابن الخطيب في ليلة الأحد السابع والعشرين لذي القعدة سنة خمس وخمسين وسبعمائة والسماء قد جادت بمطر سهرت منه الأجفان وظن أنه طوفان واللحاق في غدها بالباب المولوي مؤمل بحول الله» اهـ.

ولما قدم الوزير المذكور على السلطان المذكور تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها ومثل بين يديه واستأذنه في إنشاد شيء من الشعر يقدمه بين يدي نجواه فأذن له وأنشد وهو قائم:

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى لنا وفي المحل كفك المطر
والناس طراً بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
ومن به مذ وصلت حبلهم ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وجملة الأمر أنه وطن في غير علياك ما له وطر
وقد أهمتهم نفوسهم فوجهوني إليك وانتظروا

فاهتز السلطان أبو عنان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس وقال له قبل أن يجلس: «ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم» ثم أدى الرسالة ودفع الكتاب ولما عزموا على الانصراف أثقل كاهلهم بالإحسان وردهم بجميع ما طلبوه.

قال ابن خلدون: قال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف وكان معه في ذلك الوفد «لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا».

ونص الكتاب الذي قدم به ابن الخطيب: «المقام الذي يغني عن كل مفقود بوجوده ويهز إلى جميل العوائد أعطاف بأسه وجوده ونستضيء عند إظلام الخطوب بنور سعوده ونرث من الاعتماد عليه أسنى ذخر يرثه الولد عن آبائه وجدوده مقام محل أبينا الذي رعى الأذمة شأنه وصلة الراعي سجية انفرد بها سلطانه ومواعد النصر ينجزها زمانه والقول والفعل في ذات الله تعالى تكفلت بهما يده الكريمة ولسانه وتطابق فيهما إسراره وإعلانه السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى محروساً من غير الأيام جنابه موصولة بالوقاية الإلٰهية أسبابه مسدولاً على ذاته الكريمة ستر الله تعالى وحجابه مصروفاً عنه من صروف القدر ما يعجز عن رده بوابه ولا زال ملجأ تنفق لديه الوسائل التي تدخرها لأولادها أولياؤه وأحبابه ويسطر في صحف الفخر ثوابه وتشتمل على مكارم الدين والدنيا أثوابه وتتكفل بنصر الإسلام وجبر القلوب عند طوارق الأيام كتائبه وكتابه معظم ما عظم من حقه

السائر من إجلاله وشكر خلاله على لاحب طرقه المستضيء في ظلمة الخطب بنور أفقه الأمير عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر سلام كريم بر عميم يخص مقامكم الأعلى ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله الذي لاراد لأمره ولا معارض لفعله مصرف الأمر بقدرته وحكمته وعدله الملك الحق الذي بيده ملاك الأمر كله مقدر الآجال والأعمار فلا يتأخر شيء عن ميقاته ولا يبرح عن محله، جاعل الدنيا مناخ نقلة، لا يغتبط العاقل بمائه ولا بظله، وسبيل رحلة فما أكثب ظعنه من حله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صفوة خلقه وخيرة أنبيائه وسيد رسله الذي نعتصم بسببه الأقوى ونتمسك بحبله ونمد يد الافتقار إلى فضله ونجاهد في سبيله من كذب به أو حاد عن سبله ونصل إليه ابتغاء مرضاته ومن أجله والرضا عن آله وأحزابه وأنصاره وأهله المستولين من ميدان الكمال على خصله والدعاء لمقامكم الأعلى بعز نصره ومضاء فضله فإنا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم وقاية لا تطرق الخطوب حماها وعصمة ترجع عنها سهام النوائب كلما فوقها الدهر ورماها، وعناية لا تغير الحوادث اسمها ولا مسماها وعزاً يزاحم أجرام الكواكب منتماها من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ونعم الله سبحانه تتواتر لدينا دفعاً ونفعاً وألطافه نتعرفها وتراً وشفعاً، ومقامكم الأبوي هو المستند الأقوى والمورد الذي ترده آمال الإسلام فتروي وتهوي إليه أفئدتهم فتجد ما تهوى ومثابتكم العدة التي تأسست مبانيها على البر والتقوى وإلى هذا وصل الله تعالى سعدكم وأبقى مجدكم، فإنا لما نعلم من مساهمة مجدكم التي يقتضيها كرم الطباع وطباع الكرم وتدعو إليها ذمم الرعي ورعي الذمم، نعرفكم بعد الدعاء لملككم بدفاع الله تعالى عن إرتقائه وإمتاع المسلمين ببقائه بما كان من وفاة مولانا الوالد نفعه تعالى بالسعادة التي ألبسه حلتها والشهادة التي في أعماله الزكية كتبها والدرجة العالية التي حتمها له وأوجبها وبما تصير لنا من أمره وضم بنا من نشره وسدل على من خلفه من ستره وإنها لعبرة لمن ألقى السمع وموعظة تهز الجمع وترسل الدمع وحادثة أجمل الله تعالى فيها

الدفع وشرح مجملها وإن أخرس اللسان هولها وأسلم العبارة قوتها وحولها إنه رضي الله تعالى عنه لما برز لإقامة سنة هذا العيد مستشعراً شعار كلمة التوحيد مظهراً سمة الخضوع للمولى الذي تضرع بين يديه رقاب العبيد آمناً بين قومه وأهله متسربلاً في حلل نعم الله تعالى وفضله قرير العين باكتمال عزه واجتماع شمله قد احترس بأقصى استطاعته واستظهر بخلصان طاعته والأجل المكتوب قد حضر والإرادة الإلٰهية قد أنفذت القضاء والقدر وسجد بعد الركعة الثانية من صلاته أتاه أمر الله لميقاته على حين الشباب غض جلبابه والسلاح زاخر عبابه والدين بهذا القطر قد أينع بالأمن جنابه وأمر من يقول للشيء كن فيكون قد بلغ كتابه ولم يرعه، وقد اطمأنت بذكر الله تعالى القلوب وخلصت الرغبات إلى فضله المطلوب إلا شقي قيضه الله تعالى لسعادته غير معروف ولا منسوب، وخبيث لم يكن بمعتبر ولا محسوب تخلل الصفوف المعقودة وتجاوز الأبواب المسدودة وخاض الجموع المشهودة والأمم المحشورة إلى طاعة الله المحشودة لا تدل العين عليه شارة ولا بزة ولا تحمل على الحذر من مثله أنفة ولا عزة وإنما هو خبيث ممرور وكلب عقور وحية سمها وحي محذور وآلة مصرفة لينفذ بها قدر مقدور فلما طعنه وأثبته وأعلق به شرك الحين فما أفلته قبض عليه من الخلصان الأولياء من خبر ضميره وأحكم تقريره فلم يجب عند الاستفهام جواباً يعقل ولا عثر على شيء عنه ينقل لطفاً من الله أفاد براءة الذمم وتعاورته للحين أيدي التمزيق وأتبع شلوه بالتحريق واحتمل مولانا الوالد رحمه الله إلى القصر وبه ذماء لم يلبث بعد الفتكة العمرية إلا أيسر من اليسير وتخلف الملك ينظر من الطرف الحسير وينهض بالجناح الكسير وقد عاد جمع السلامة إلى جمع التكسير إلا أن الله تعالى تدارك هذا القطر الغريب أن أقامنا مقامه لوقته وحينه ورفع عماد بناء ملكه ولم شعث دينه وكان جميع من حضر المشهد من شريف الناس ومشروفهم وأعلامهم ولفيفهم قد جمعه ذلك الميقات وحضر الأولياء الثقات فلم تختلف علينا كلمة ولا شذت منهم عن بيعتنا نفس مسلمة ولا أخيف بري ولا حذر جري ولا فرى فري ولا وقع لبس ولا استوحشت

نفس ولا نبض للفتنة عرق ولا أغفل للدين حق فاستند النقل إلى نصه ولم يعدم من فقيدنا غير شخصه وبادرنا إلى مخاطبة البلاد نمهدها ونسكنها ونقرر الطاعة في النفوس ونمكنها وأمرنا الناس بها بكف الأيدي ورفع التعدي والعمل من حفظ شروط المسالمة المعقودة بما يجدي ومن شره منهم للفرار عاجلناه بالإنكار وصرفنا على النصارى ما أوصاه مصحباً بالاعتذار وخاطبنا صاحب قشتالة نرى ما عنده في صلة السلم إلى أمدها من الأخبار واتصلت بنا البيعات من جميع الأقطار وعفى على حزن المسلمين بوالدنا ما ظهر عليهم بولايتنا من الاستبشار واستبقوا تطير بهم أجنحة الابتدار جعلنا الله تعالى ممن قابل الحوادث بالاعتبار وكان على حذر من تصاريف الأقدار واختلاف الليل والنهار وأعاننا على إقامة دينه في هذا الوطن الغريب المنقطع بين العدو الطاغي والبحر الزخار وألهمنا من شكره ما يتكفل بالمزيد من نعمه ولا قطع عنا عوائد كرمه وإن فقدنا والدنا فأتم لنا من بعده الوالد والذخر الذي تكرم منه العوائد والحب يتوارث كما ورد في الأخبار التي صحت منها الشواهد ومن أعد مثلكم لبنيه فقد تيسرت من بعد الممات أمانيه وتأسست قواعد ملكه وتشيدت مبانيه فالاعتقاد الجميل موصول والفروع لها في التشيع إليكم أصول وفي تقرير فخركم محصول وأنتم رد‌ء المسلمين بهذه البلاد المسلمة الذي يعينهم بإرفاده وينصرهم بإنجاده ويعامل الله تعالى فيها بصدق جهاده وعندما استقر هذا الأمر الذي تبعت المحنة فيه المنحة وراقت من فضل الله تعالى ولطفه فيه الصفحة وأخذنا البيعة من أهل حضرتنا بعد استدعاء خواصهم وأعيانهم وتزاحمت على رقها المنشور خطوط أيمانهم وتأصلت قواعد ألفاظها ومعانيها في قلوبهم وآذانهم وضمنوا الوفاء بما عاهدوا الله عليه وقد خبر سلفنا والحمد لله وفاء ضمانهم بادرنا تعريف مقامكم الذي نعلم مساهمته فيما ساء وسر أحلى وأمر عملاً بمقتضى الخلوص الذي ثبت واستقر والحب الذي ما مال يوماً ولا أزور وما أحق تعريف مقامكم بوقوع هذا الأمر المحذور وانجلاء ليله عن صبح الصنع البادي السفور وإن كنا قد خاطبنا من خدامكم من يبادر إعلامكم بالأمور إلا

أنه أمر له ما بعده وحادث يأخذ حده ونبعث إلى بابكم من شاهد الحال ما بين وقوعها إلى استقرارها رأي العيان وتولى تسديد الأمور بأعماله الكريمة ومقاصده الحسان ليكون أبلغ في البر وأشرح للصدر وأوعب للبيان فوجهنا إليكم وزير أمرنا وكاتب سرنا الفقيه الأجل أبا عبد الله محمد بن الخطيب وألقينا إليه من تقرير تعويلنا على ذلك المقام الأسنى واستنادنا من التشيع إليه إلى الركن الوثيق المبني ما نرجو أن يكون له فيه المقام الأغنى والثمرة العذبة المجني فلاهتمامه بهذا الغرض الأكيد الذي هو أساس بنائنا وقامع أعدائنا آثرنا توجيهه على توفر الاحتياج إليه ومدار الحال عليه والمرغوب من أبوتكم المؤملة أن يتلقاه قبولها بما يليق بالملك العالي والخلافة السامية المعالي والله عز وجل يديم أيامكم لصلة الفضل المتوالي ويحفظ مجدكم من غير الأيام والليالي وهو سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم ويوالي نصركم وعضدكم والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته اهـ.

وللسلطان الغني بالله هذا مع السلطان أبي عنان رحمهما الله مراسلات عديدة ومكاتبات مديدة قد ذكر صاحب نفح الطيب منها جملة وافرة مع التنبيه على أسبابها فانظرها فيه إن شئت وأكرم السلطان أبو عنان الوزير ابن الخطيب في هذه الوفادة وغيرها إكراماً بليغاً ولما انصرف عنه مدحه بقصيدة طويلة طنانة يقول في أولها:

أبدى لداعي الفوز وجه منيب ... وأفاق من عذل ومن تأنيب

ويقول في أثنائها:

يا ناصر الدين الحنيف وأهله ... إنضاء مسغبة وفل خطوب
حقق ظنون بنيه فيك فإنهم ... يتعللون بوعدك المرقوب
ضاقت مذاهب نصرهم فتعلقوا ... بجناب عز من علاك رحيب
ودجا ظلام الكفر في آفاقهم ... أو ليس صبحك منهم بقريب
فانظر بعين العز من ثغر غدا ... حذر العدا يرنو بطرف مريب
نادتك أندلس ومجدك ضامن ... ألا يخيب لديك ذو مطلوب

وهي طويلة.

وفي سنة ست وخمسين وسبعمائة انتقض على السلطان أبي عنان وزيره وصاحب شوراه عيسى بن الحسين بن علي بن أبي الطلاق من شيوخ بني مرين ووجوهها، وكان السلطان أبو عنان قد استعمله على جبل طارق فتمكنت رياسته به وانتقض على السلطان لأسباب يطول شرحها، ثم التاثت حاله وضاقت مذاهبه فقبض عليه وأحضر بين يدي السلطان أبي عنان هو وابنه يوم منى من سنة ست وخمسين المذكورة فتنصلا واعتذرا فلم يقبل منهما وأودعهما السجن وضيق عليهما، ولما كان آخر السنة أمر بهما فجنبا إلى مصارعهما وقتل عيسى قعصاً بالرماح وقطع ابنه أبو يحيى من خلاف وأبى من مداواة قطعه فلم يزل يتخبط في دمه إلى أن هلك بعد ثلاثة أيام من قطعه وعقد السلطان على جبل طارق وسائر ثغور الأندلس لسليمان بن داود، ثم عقد بعده لولده أبي بكر السعيد وهو الذي تولى الملك بعده والله أعلم.

رحلة السلطان أبي عنان إلى سلا وتطارحه[1] على وليها الأكبر أبي العباس بن عاشر رضي الله عنه

كان لبني مرين عموماً وللسلطان أبي عنان خصوصاً جنوح إلى الخير ومحبة في أهله وتعرض لمن يشار إليه بالصلاح واستمطار لطله ووبله، وكان الشيخ الأشهر أبو العباس أحمد بن عاشر الأندلس رضي الله عنه قد استوطن في هذا التاريخ مدينة سلا، وكان من الأفراد الجامعين بين العلم والعمل المتمسكين بالكتاب والسنة، الناهجين سنن السلف الصالح في الزهد والورع والانقطاع عن الخلق جملة بحيث طار ذكره وعظم لدى الخاص والعام

(1) ما وقع لأبي عنان مع ابن عاشر وقع نظيره لمولاي إسماعيل العلوي مع سيدي أحمد بن محمد بن عبد الله معن الأندلسي راجع ذلك في الجزء الأول من المقصد الأحمد لسيدي عبد السلام القادري ص 150 وما يليها فإنه مما يحسن الوقوف عليه والتنظير به رحم الله الجميع ولله در القائل:

فقل لملوك الأرض تجهد جهدها ... فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

قدره، فتحركت همة السلطان أبي عنان لزيارته والاقتباس مما يفتح الله به من وعظه وإشارته، فارتحل سنة سبع وخمسين وسبعمائة إلى سلا فقدمها وحرص على الاجتماع بالشيخ المذكور ووقف ببابه مراراً فلم يأذن له وترصده يوم الجمعة بعد الصلاة ولما انفضّ الناس تبعه على قدميه والناس ينظرون إليه وهو لا يراه فقال السلطان عند ذلك لقد منعنا من هذا الولي، ثم أرسل إليه ولده راغباً ومستعطفاً فأجابه بما قطع رجاءه من لقائه غير أنه كتب إليه كتاباً وعظه فيه وذكره فسر السلطان أبو عنان بذلك الكتاب وحزن لما فاته من الاجتماع بالشيخ، وقد ذكر الفقيه العلامة البركة أبو العباس أحمد بن عاشر بن عبد الرحمٰن السلاوي المدعو بالحافي في كتابه «تحفة الزائر في مناقب الشيخ ابن عاشر» نص هذا الكتاب ولم يحضرني الآن فانظره فيه وبالله تعالى التوفيق.

غزوة السلطان أبي عنان إفريقية وفتح قسنطينة ثم فتح تونس بعدها

لما كان أيام التشريق من سنة سبع وخمسين وسبعمائة اعتزم السلطان أبو عنان على النهوض إلى إفريقية واضطرب معسكره بساحة فاس الجديد، وبعث في الحشد إلى مراكش وأوعز إلى بني مرين بأخذ الأهبة للسفر وجلس للعطاء وعرض الجنود من لدن عزمه على النهوض إلى شهر ربيع الأول من سنة ثمان وخمسين بعدها، ثم ارتحل من فاس وسرح في مقدمته وزيره فارس بن ميمون في العساكر وسار هو في ساقته على التعبية إلى أن احتل ببجاية وتلوم لإزاحة العلل، ثم نازل الوزير قسنطينة وجاء السلطان على أثره ولما أطلت راياته وماجت الأرض بجنوده ذعر أهل البلد وألقوا بأيديهم إلى الإذعان، وانفضوا من حول سلطانهم أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر الحفصي وجاؤوا مهطعين إلى السلطان أبي عنان، وتحيز الحفصي في خاصته إلى القصبة ثم طلبوا الأمان من السلطان أبي عنان فبذله لهم وخرجوا وأنزلهم بمعسكره أياماً، ثم بعث بأبي العباس في

الأسطول إلى سبتة فاعتقله بها، وعقد على قسنطينة لمنصور بن الحاج خلوف الياباني من شيوخ بني مرين وأهل الشورى منهم وأنزله بالقصبة في شعبان من السنة المذكورة، ووصلت إليه بيعات أمراء الأطراف من توزر ونفطة وقابس وغيرها، ووفد عليه أولاد مهلهل أمراء بني كعب من سليم وأقيال بني أبي الليل منهم يستحثونه لملك تونس فسرح معهم العساكر وعقد عليها ليحيى بن عبد الرحمٰن بن تاشفين[1] وبعث أسطوله في البحر مدداً لهم وعقد عليه للرئيس محمد بن يوسف المعروف بالأبكم من أمراء بني الأحمر.

وكان سلطان تونس يومئذٍ أبا إسحاق إبراهيم بن أبي بكر الحفصي ولما اتصل به خبر بني مرين أخرج حاجبه أبا محمد بن تافراجين لقتالهم فزحفت الجيوش إلى تونس ووصل الأسطول إلى مرساها فقاتلهم ابن تافراجين يوماً أو بعض يوم ثم ركب الليل إلى المهدية فتحصن بها، ودخل أولياء السلطان إلى تونس في رمضان من سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وأقاموا بها الدعوة المرينية، واحتل يحيى بن عبد الرحمٰن بالقصبة وأنفذ الأوامر وكتب إلى السلطان أبي عنان بالفتح فعظم سروره، ونظر بعد ذلك في أحوال ذلك القطر وقبض أيدي العرب من رياح عن الإتاوة التي يسمونها الخفارة، فارتابوا وطالبهم بالرهن عن الطاعة، فأجمعوا الخلاف والتفوا على أميرهم يعقوب بن علي ولحقوا بالزاب؛ وارتحل السلطان في أثرهم فأجفلوا أمامه إلى القفر فخرب حصونهم التي بالزاب ورجع عنهم وحمل له ابن مزني عامل بسكرة والزاب جبايته وأطلق المؤن للعسكر من الإدام والحنطة والحملان والعلوفة ثلاثة أيام، وكافأه السلطان على صنيعه فخلع عليه وعلى أهله وولده وأسنى جوائزهم.

ورجع إلى قسنطينة واعتزم على الرحلة إلى تونس، وضاقت العساكر ذرعاً بشأن النفقات والإبعاد في الرحلة وارتكاب الخطر في دخول إفريقية،

---

(1) التيربدي.

فتمشت رجالاتهم في الانفضاض عن السلطان وداخلوا الوزير فارس بن ميمون في ذلك فوافقهم؛ ثم أذن شيوخ العسكر ونقباؤه لمن تحت أيديهم من القبائل في اللحاق بالمغرب حتى يبقوا منفردين وأنهى إلى السلطان أبي عنان أن شيوخ العسكر قد عزموا على قتله ونصب إدريس بن عثمان بن أبي العلاء للأمر فأسرها في نفسه ولم يبدها لهم، ورأى قلة من معه من الجند فارتاب وكر راجعاً إلى المغرب بعد أن كان ارتحل عن قسنطينة إلى جهة تونس مرحلتين؛ فانكفأ وأغذ السير إلى فاس فاحتل بها غرة ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين المذكورة، وتقبض يوم دخوله على وزيره فارس بن ميمون لأنه اتهمه بمداخلة بني مرين في شأنه وقتله رابع أيام التشريق قعصاً بالرماح، وتقبض على مشيخة بني مرين فاستلحمهم وأودع طائفة منهم السجن.

ولما رجع السلطان أبو عنان من إفريقية بلغ خبره إلى الجهات؛ فارتحل أبو محمد بن تافراجين من المهدية إلى تونس ولما أطل عليها ثارت شيعة الحفصيين على من كان بها من جيش بني مرين فنجوا إلى السفن وركبوا البحر إلى المغرب، وجاء على أثرهم يحيى بن عبد الرحمٰن فيمن كان معه من العساكر وأولاد مهلهل وكان يوم الهيعة بناحية الجريد لاقتضاء جبايته فصوب إلى المغرب واجتمعوا كلهم بباب السلطان أبي عنان فأرجأ حركته إلى العام القابل وكان ما نذكره إن شاء الله.

وزارة سليمان بن داود ونهوضه بالعساكر إلى إفريقية

لما رجع السلطان أبو عنان من إفريقية ولم يستتم فتحها بقي في نفسه منها شيء وخشي على ضواحي قسنطينة من يعقوب بن علي ومن معه من الذواودة المخالفين فأهمه شأنهم واستدعى سليمان بن داود من مكانه بجبل طارق وعقد له على وزارته وسرحه في العساكر إلى إفريقية فنهض إليها في ربيع من سنة تسع وخمسين وسبعمائة، وكان السلطان أبو عنان لما خالف عليه يعقوب بن علي وفر إلى القفر أقام مكانه أخاه المنازع له في رياسة رياح

ميمون بن علي وقدمه على أولاد محمد من الذواودة وأحله بمكانه من رياسة البدو فنزع إليه عن أخيه يعقوب الكثير من قومه، وتمسك بطاعة السلطان أيضاً طوائف من أولاد سباع بن يحيى فانحاشوا جميعاً للوزير ونزلوا بحللهم على معسكره.

ثم ارتحل السلطان أبو عنان من فاس حتى احتل بتلمسان فأقام بها لمشارفة أحوال الوزير المذكور واحتل الوزير بوطن قسنطينة وبعث إلى عامل بسكرة والزاب يوسف بن مزني بأن تكون يده معه وأن يفاوضه في أحوال الذواودة لرسوخه في معرفتها؛ فارتحل إليه من بسكرة ونازلوا جبل أوراين[1] واقتضوا جبايته ومغارمه وشردوا المخالفين من الذواودة عن العيث في الوطن فتم غرضهم من ذلك؛ وانتهى الوزير وعساكر السلطان إلى أول أوطان إفريقية من آخر مجالات رياح، وانكفأ راجعاً إلى المغرب فوافى السلطان أبا عنان بتلمسان ووصلت معه وفود العرب الذين أبلوا في الخدمة فوصلهم السلطان وخلع عليهم وحملهم وفرض لهم في العطاء بالزاب وكتب لهم بذلك وانقلبوا إلى أهليهم فرحين مغتبطين، ووفد على أثرهم أحمد بن يوسف بن مزني أوفده أبوه بهدية إلى السلطان من الخيل والرقيق والدرق فتقبلها السلطان وأكرم وفادته، ثم استصحبه إلى فاس ليريه أحوال كرامته وليستبلغ في الاحتفاء به واحتل بدار ملكه منتصف ذي القعدة من سنة تسع وخمسين وسبعمائة.

وفاة السلطان أبي عنان رحمه الله

لما وصل السلطان أبو عنان إلى دار ملكه بفاس احتل بها بين يدي العيد الأكبر حتى إذا قضى الصلاة من يوم الأضحى أدركه المرض بالمصلى وأعجله طائف الوجع عن الجلوس للناس يوم العيد على العادة فدخل قصره ولزم فراشه.

---

(1) صوابه أوراس.

وذكر ابن خلدون ما حاصله: «إنه كانت بين الوزير حسن بن عمر الفودودي وبين ولي العهد أبي زيان محمد بن السلطان أبي عنان نفرة مستحكمة لسوء طويته وشر ملكته فاتفق الوزير المذكور مع من كان على رأيه من أهل مجلس السلطان على تحويل الأمر عنه إلى غيره من أبناء السلطان فأجمعوا الفتك به والبيعة لأخيه أبي بكر السعيد طفلاً خماسياً، ثم أغروا الوزير مسعود بن عبد الرحمٰن بن ماساي بتطلب أبي زيان ولي العهد في نواحي القصر والتقبض عليه فدخل إليه وتلطف في إخراجه من بين الحرم وقاده إلى أخيه السعيد فبايع وثل إلى بعض حجر القصر فأتلفت فيها مهجته، واستقل الحسن بن عمر بالأمر يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ذي الحجة والسلطان أبو عنان أثناء ذلك يجود بنفسه، وارتقب الناس دفنه يوم الأربعاء والخميس بعده فلم يدفن فارتابوا وفشى الكلام فدخل الوزير زعموا إليه بمكانه من قصره ثم غطه حتى أتلفه ودفن[1] يوم السبت وحجب الحسن بن عمر الولد المنصوب للأمر وأغلق عليه بابه وتفرد بالأمر والنهي دونه» انتهى وهذا أول مرض نزل بالدولة المرينية.

وقال في الجذوة: «توفي السلطان أبو عنان قتيلاً خنقه وزيره الحسن بن عمر الفودودي يوم السبت الثامن والعشرين من ذي الحجة متم سنة تسع وخمسين وسبعمائة وسنه يوم توفي ثلاثون سنة».

بقية أخبار السلطان أبي عنان وسيرته

كان السلطان أبو عنان رحمه الله أبيض اللون تعلوه صفرة؛ طويل القامة يشرف على الناس بطوله نحيف البدن عالي الأنف حسنه؛ أعين أدعج جهوري الصوت في كلامه عجلة حتى لا يكاد السامع يفهم ما يقول، عظيم اللحية تملأ صدره أسودها وإذا مرت بها الريح تفرقت نصفين حتى يستبين موضع الذقن؛ وكان فارساً شجاعاً يقوم في الحرب مقام جنده، وكان فقيهاً

(1) بجامع المدينة البيضاء [فاس] وكانت دولته تسعة أعوام وتسعة أشهر.

يناظر العلماء الجلة عارفاً بالمنطق وأصول الدين وله حظ صالح من علمي العربية والحساب؛ وكان حافظاً للقرآن عارفاً بناسخه ومنسوخه، حافظاً للحديث عارفاً برجاله، فصيح القلم كاتباً بليغاً، حسن التوقيع شاعراً أنشد له صاحب الجذوة أشعاراً حسنة من ذلك في الحكمة قوله:

وإذا تصدر للرياسة خامل ... جرت الأمور على الطريق الأعوج

وقال ابن الأحمر: «كنت يوماً جالساً معه بمقعد ملكه من المدينة البيضاء بفاس فدخل عليه رجل يتصلح فلما نظر إليه قال بديهة:

تراهم في ظواهرهم كراماً ... ويخفون المكيدة والخداعا»

وللسلطان أبي عنان رحمه الله آثار دينية من بناء المدارس والزوايا وغير ذلك، ومدرسته العنانية بفاس مشهورة إلى الآن؛ ومن مدارسه المدرسة العجيبة بحومة باب حسين من سلا وقد صارت اليوم فندقاً يعرف بفندق أسكور ومما قاله أبو بكر بن جزي في بعض ما أنشأه السلطان المذكور من الزوايا قوله:

هذا محل الفضل والإيثار ... والرفق بالسكان والزوار
دار على الإحسان شيدت والتقى ... فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار
هي ملجأ للواردين ومورد ... لابن السبيل وكل ركب ساري
آثار مولانا الخليفة فارس ... أكرم بها في المجد من آثار
لا زال منصور اللواء مظفراً ... ماضي العزائم سامي المقدار
بنيت على يد عبدهم وخديم با ... بهم العلي محمد بن حدار
في عام أربعة وخمسين انقضت ... من بعد سبعمئين في الأعصار

وقال صاحب الجذوة: «حدثني شيخنا أبو راشد اليدري أن السلطان أبا عنان هو الذي أحدث بفاس العلم الأزرق في الصومعة يوم الجمعة».

وقال في موضوع آخر منها: «حكي أن السلطان أبا عنان المريني صعد الصومعة يعني بالقرويين ليعتبر المدينة وترتيبها ووقف على المنجانة وما اتصل بها فاستحسن ذلك وأنعم على الناظر فيها بمرتب وسع عليه فيه

ليستعين به على القيام بشعائر الإسلام» وذلك في سنة تسع وأربعين وسبعمائة، قال: وأمر بإثر ذلك بأن ينصب بأعلى الصومعة صاري من خشب وينشر فيه علم في الأوقات التي يصلى فيها، وفنار فيه سراج مزهر في أوقات صلاة الليل ليستدل بذلك من بعد ومن لم يسمع النداء، وفي ذلك اعتناء بأمور الأوقاف وما يتعلق بها من وجوب الصلوات ويترتب عليها من وجوه الحقوق في العادات والعبادات ومما قيل في ذلك:

نور به علم الإيمان مرتفع ... للمهتدين به للحق إرشاد

يأتون من كل صوب نحوه فلهم ... لديه للرشد إصدار وإيراد

وقد لخص ابن الخطيب رحمه الله في رقم الحلل سيرة السلطان أبي عنان فقال:

وخلص الأمر لكف فارس ... باني الزوايا الكثر والمدارس

الأسد المفترس المصنوع له ... من نال من كل المساعي أمله

واحد آحاد الملوك العظما ... ومطلع النصر إذا ما أقدما

ومخجل الغيث إذا الغيث هما ... وعالم الملك وملك العلما

أوجب حق الشعر والكتابة ... فأملت أعلامها جنابه

واستجلب الأماثل الكبارا ... النبهاء العلية الأخيارا

يجبرهم على حضور الدولة ... فهم بدور وشموس حوله

وكان جباراً على خدامه ... ينالهم بالقسر في أحكامه

مذهبه ألا يقيل عثرة ... حتى لأرباب التقى والأثرة

فطرة السيف تناغي الدرة ... إذ غلبت على المزاج المرة

ومات فيما قيل شر ميتة ... بغيلة لنفسه مفيته

لم يغن عنه البأس والبسالة ... وأصبحت مهجته مسالة

وألقيت أزمة التدبير ... من بعده في راحة الوزير

ومن أعيان كتابه: أبو القاسم بن رضوان وأبو القاسم البرجي.

ومن أعيان قضاته: أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقري وهو

جد أبي العباس المقري صاحب نفح الطيب وغيره من التآليف الحسان، وأبو عبد الله محمد بن أحمد الفشتالي وغيرهما رحم الله الجميع[1].

تم الجزء الثالث

ويليه الجزء الرابع وأوله:

الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله

أبي بكر بن أبي عنان بن أبي الحسن المريني

(1) ذكر صاحب روضة النسرين أولاد السلطان أبي عنان فقال: أولاده الذكور السلطان أبو زيان محمد والسلطان أبو يحيى أبو بكر السعيد والسلطان موسى والمهدي بالله والمعتمد على الله محمد والمعتصم بالله محمد والمنتصر بالله محمد والمكتفي بالله محمد والواثق بالله محمد ومحمد المدعو بأبي طريق. بناته: فاطمة الصالحة وست العرب ورقية وعائشة وزنو وسكينة وسما وأم جعفر وأم هاني وجندوزة ولمة العزيز المدعوة بمديلة. وكان جميع ما ولد ثلاثمائة ونحو خمسة وعشرين ما بين سقط وغيره.

فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام والقبائل

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ط)

حرف (ظ)

حرف (ع)

حرف (غ)

حرف (ف)

فهرس الأماكن

حرف (ح)

حرف (د)

حرف (ذ)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ض)

حرف (ط)

حرف (ع)

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (و)

حرف (ي)